

مؤلفات يوسف السباعي



■ نقحة من الإيمان

■ صور طبق الأصل

يوسف السباعي
مكتبة النشر للجامعيين

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

الإهداء

الى أخى العزيز ، احسان عبد القدوس ،

اهدى كتابى هذا

أهديه اليه بصفته ، أولاً ، .. أخاً عزيزاً ، .. رغم أن له من المزايا العامة فى نفوس القراء والجماهير ما يفوق كثيراً هذه الميزة الخاصة فى نفسى . فهو كاتب سليم التفكير ، صريح الأسلوب ، جذاب التعبير ، شجاع ، صريح غير معوج ولا ملنو .

ومع ذلك .. ورغم أن هذه الصفات لا تتوفر فى كثير من كتاب هذا الزمن رغم أنها قد جعلت منه فى فترة وجيزة كاتباً من أبرز الكتاب السياسيين ، رغم كل هذا فأنا أتجاهلها فى اهدائى .. وأهدى كتابى اليه لمجرد أنه أخ عزيز .

قد يكون فى هذا نوع من ايثار النفس والأناية وقد يكون نوع من الغرور أن أميز أخ عزيز ليوسف السباعى أكثر من أن أميزه بأنه كاتب شهير معروف .

ولكنى حر فى اهدائى .. وفى اعتبارى لميزة المهدي اليه . ولى فى ذلك عذر قد يقبله صاحب الإهداء والقراء وقد لا يقبلونه ولكنه ليس عليهم

لِلْأَقْرَبِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن
أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَكُم تَسْؤُكُمْ ﴾
« قُرْآن كريم ،

الساعة السابعة صباحاً وشارع « الخيامة » ما زال يتأعب وينفض عن
عينيه آثار النعاس .. والحركة تدب فيه بطيئة واهنة ، والعمال من سكان الحي
يحثون الخطأ وقد وضعوا لفافات الخبز تحت أياطهم ودسوا أيديهم في جيوبهم
ولفوا رؤوسهم وأصداعهم بالتلافيح الصوفية اتقاء صقيع الصباح . والنكاكين
ما زالت مغلقة الا نكان « أبو الفضل » بائع القول والطعمية فقد فتح على
مصراعيه وقاحت من داخله رائحة الطعمية تفتح الشهية وتهيج الخياشيم .

ومن احدى الحارات الممتاطعة بدأ الحاج « درويش » بعباءته وطافيته
وجلبابه الأبيض وخطواته المتثاقلة وقد أخذ يجري حبات المسبحة بين
أصابعه ويحرك شفتيه بتمتمة خافتة .

ووصل الحاج الى حانوته المواجه لحانوت « أبو الفضل » وألقى بتحية
الصباح على جاره ثم اخذ يفتح باب الحانوت وقد اتجه ببصره الى السماء وأخذ
يهتف بصوت خافت « يا فتاح يا علم يا رزاق يا كريم » .

سوى الرضوخ له رضوا أم لم يرضوا .

هذا العذر هو أن صفة « الأخ العزيز » في حد ذاتها صفة مميزة لأن
الانسان لا يكون لي أخا عزيزا حقا الا اذا توفرت فيه شروط ومميزات ،
تجعل من مرتبة « الأخ العزيز » مرتبة تفوق كثيرا غيرها من المراتب . هذه
الشروط والمميزات ، هي أن يكون الانسان نكيا ، وفيا ، مرحا ، لطيفا ، غير
مغرور ولا متكلف .

فاذا أنا أهديت الكتاب الى احسان لأنه « أخ عزيز » فأنا أعنى بذلك أنه
قد توفرت فيه تلك الشروط والمميزات .

أنى لأذكر منذ بضع سنوات أنى أهديت كتابي « اثني عشر رجلا » الى
توفيق الحكيم وعندما قرأ احسان الاهداء ثار عليه وعلى وقال ان توفيق الحكيم
وطبقته من الكتاب لا يستحقون أى اهداء لأنهم أنانيون مغرورون لم يحاولوا
أن يمدوا أيديهم لمعاونة الجيل الذى يليهم من الكتاب وسألنى هل حاول توفيق
الحكيم أن يكتب عنى مرة لينقدنى أو ليقدمنى الى قرائه .

وقلت له يومئذ أن الكاتب المجيد سبيرز بلا معاونة أحد وانى أهدى
كتابي الى أحب الناس الى لا الى اكثرهم نفعا لى .

ولا أظننى نقضت رأبى فى اهداء أى كتاب من كتبى ، فانى قد أهديت
كتبى الى نفسى والى أبى وأمى وأولادى وأختى وعمى والى أحب
الأصدقاء الى ..

فاذا أهديت كتابي الآن الى احسان ، فلسبب واحد هو أنه أضحى حبيبا
الى نفسى .

يوسف السباعى

كان الوقت ما زال مبكرا عن الموعد الذى تعود الرجل فيه أن يفتح
حانوته . ولذا فقد أثار الأمر دهشة المعلم ، أبو الفضل ، الذى مد عنقه من
وراء قدور الفول وصاح بالحاج :

- خير ان شاء الله .. ان الوقت ما زال مبكرا .

- ان شاء الله خيرا .. ربنا لا يعطى الا الخير .. لقد استقيظت مبكرا
ففضلت الحضور الى الدكان .

وبدأ الحاج يتشاغل بنقل الغرارات ورصها خارج الدكان ثم أخذ يقوم
بأعمال النظافة اليومية التى تعود أن يقوم بها كل صباح .. وهو يبدو على
أتم حال من الهدوء والسكينة .. ومع ذلك فقد كان صدره يصطخب بالمشاعر ،
وكانت نفسه تحترق قلقا واضطرابا .

كان الحاج رجلا مؤمنا تقيا .. وكانت بوجهه اشراقه ايمان ووسامة
طيبة ووداعة .. ولم تكن رزائنه وتناقل مشيئة عن كبر فى السن .. فقد كانت
تلك هى طبيعته منذ الصغر . كان دائما نمونجا للتقوى والورع .. حتى لقد
أطلق عليه لقب الحاج وهو ما زال صبيا يقيم الصلاة وأترابه مغرقون فى اللهو
واللعب .

وكانت حياته مثلا للتضحية وانكار الذات .. فقد مات أبوه وخلفه صبيا
دون أن يورثه سوى أسرة عاجزة من أم وثلاث بنات ، ليس لهن من يعولهن
سواه . واضطر الحاج درويش أن يترك المدرسة ويتولى حانوت البقالة الذى
كان يملكه أبوه .. والذى كان على شفا الافلاس .. فاستطاع بصبره وجلده أن
ينقذ الحانوت . وأن يعول أمه وأخوته .. ووقف حياته على تربيتهن ومنحه
الله من لدنه الستر والتوفيق فنزوجن زيجات مرضية ضمنت لهن حياة مستقرة
هائلة .. من الله على أمه بميثة هادئة ناعمة بعد أن أطمأنت على مصير
بناتها .

ووجد الحاج درويش نفسه وحيدا بعد موت أمه .. وقد أنفق زهرة شبابه
فى تربية أخواته وهيا لكل منهن حياة راضية .. أما هو فقد أدير عمره أو
كاد دون أن يجد من حوله زوجا ولا بنين .

لقد كان يرفض الزواج خشية أن يشغل عن أمه وأخواته بزوجه
وأولاده .. ومرت به الأيام ومرضاتهن هى جل بغيته وسعادتهن هى هدفه فى
الحياة حتى تفرقن من حوله .. وذهبت كل منهن الى غايتها . وبقي هو وحده
تتساقط من حوله أوراق الخريف .. وتتسلل الى شعره خيوط الشتاء البيضاء
وتتسرب الحياة من بين أصابعه .

وأخيرا قرر أن يتزوج فيتمم نصف دينه ، ويحقق لأمه أمنيتها التى
طالما تافت اليها ، ويقضى لنفسه حقها فى الحياة .

ورزقه الله ، بينت الحلال ، .. فتاة من عائلة كريمة طيبة . كانت له
نمونجا للزوجة الطيبة الراضية القانعة فحق بها عليه قول الله تعالى ﴿ أنا
لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ .

وسارت به الحياة ناعمة هائلة ، ونفسه قريرة راضية ، لا يبغى مزيدا
من هناء ولا مزيدا من نعيم ولا يكاد يقلقه فى حياته سوى أمر واحد كان يرى
أن الزمن كليل بتحقيقه .

لقد مرت به الأيام . دون أن تظهر على أمراته علامات حمل ولم يكن
الرجل بالمعجول الطامع أو اللئيم المتلطف ، ولكنه رغم ذلك كان لا يستطيع
أن يقاوم تلك الرغبة الملحة فى البنين ولا الشوق الجارف اليهم .

ولم يجد سوى الله ملجأ ، فأخذ يدعو دعاء المؤمن الواثق ، ان الله
لا يخيب له أملا ، ولا يرفض له دعاء وهو لا يطلب الشئ الكثير ، انه يطلب
حقا له من رب كريم رحيم .

ومرت السنون دون أن تحمل امرأته . ولكنه لم يضق بها ولم يحزن ولم يئأس ، لقد كان إيمانه بالله عظيما وظل يواصل دعاءه ورجاءه حتى حقق الله أمنيته .

كان ذلك في يوم أغر ميمون .. عندما أنبأته امرأته ذات صباح أنها تشعر بعلامت حمل .. ولم يستطع .. وهو الرزين الوقور أن يكتف فرحته فاندفع يضمها بين ذراعيه .. وعيناه مغروقتان بالدموع وهو يهتف بنبرات مرتجفة : الحمد لله .. الحمد لله .

وهو ينكر أنه قد أصابه القلق بعد خشية أن تكون العلامات خادعة .. وان تكون امرأته واهمة فطلت نفسه تتأرجح بين الأمل واليأس والثقة والقلق حتى أكدت له الأيام أن الأمر حقيقة لا غبار عليها .

وبات بعد ذلك مطمئن النفس قرير العين .. يرتقب المولود بنفس لهفة .. وقلب مشتاق .. حتى قرب الموعد .. وبات الوضع قاب قوسين أو أدنى .

وفي الليلة السابقة لم يغمض له جفن فقد جاء لامرأته المخاض ، وحلت الساعة المرجوة .. وبدأت الأم الوضع تلج عليها .. فتنتلق منها الصيحة تلو الصيحة .

ولقد كانت ثقته في نفسه وفي جلده وصبره لا حد لها .. ولكنه في الليلة الماضية كان أشبه بريشة تلعب بها الريح .. لا يكاد من قلقه يستقر على موضع .

انه لم يرقد .. ولم يجلس .. لقد كان أشبه ببندول الساعة .. دائم القلق دائم التأرجح .

ومرت به الليلة طويله مرهقة .. وقد وقف ينصت خارج الحجرة ممسكا

قلبه بيديه .. منتظرا بعد كل صيحة بشرى . ولكن الصيحة تخفت ويعقبها سكون ثقيل وصمت جاتم .

وتسلل ضوء الفجر من النافذة وهو جالس في مقعده مسندا رأسه بين كفيه مغرقا في التفكير .. وخرجت « القابلة » من الحجرة تنبئه أن امرأته قد استغرقت في النوم وأنه لا ينتظر ولادة عاجلة وسألته أخته أن يذهب الى الفراش ليستريح برهة .

ولقد حاول فعلا أن يرقد في فراشه ولكن كان لا يكاد يغمض جفنه حتى يهيب فزعا على صيحة موهومة .. وأخيرا ترك الفراش وارتنى ثيابه ، وصمم على أن يذهب الى الحانوت عله يتشاغل هناك بما يخلصه من ذلك الانتظار الثقيل والقلق الممض .

بمثل هذه النفس القلقة المضطربة كان الحاج « درويش » يتحرك في حانوته يعبى لهذا زيتونا بقرش ويزن لآخر أقة من الأرز . وهو مستمر في تتمته وتسبيحه . وبين آونة وأخرى يرفع رأسه الى أعلى ويدعو بحرارة وإيمان « يا رب .. رحمتك يا رب » .

وكان الحاج « درويش » يرجو في قرارة نفسه - أن تضع امرأته ولدا .. ولكنه لم يكن يجسر على أن يفصح عن رغبته في دعائه . فقد كان يرى في هذا طمعا منه .. ولا يفتأ يكرر بين آونة وأخرى انما يجيب على رغبته الخفية - كل ما يأتي به الله نعمة وبركة .

وبينما هو منهمك في لف قطعة جبن لأحد الزبائن .. وصل الى مسمعه صوت عندليب .. فمس الصوت من نفسه موضعا حساسا .. وبدا البشر على وجهه وسرت الى نفسه موجة رجاء وتفاؤل . انه ما سمع صوت العندليب الا وأصابه خير .

ومد الشاربي يده بثمر الجبن فرفض أن يأخذه وقال له ضاحكا :

- خذها حلاوة بشرى أتوقع سماعها .

وفي تلك اللحظة لمح من بعيد خاتمة الصغيرة زينب وقد أقبلت تعدو من الحارة .. ولم ينتظر حتى تصل إليه الخادم ، وما حاجته الى الانتظار وهو يعلم ما أنت من أجله ؟ وأسرع يحمل الغزارات الى داخل الحانوت .. وفي غمضة عين كان قد أغلق الحانوت وانطلق يهرول تجاه الدار والفتاة فى أعقابها .

ووصل الى البيت وهو يلهث وقد فصد جبينه عرقا .. وقطع السلم أربعا بعد أربع .. ودفع باب الشقة فاذا به يصطدم بصرخة حادة :

ويحه .. أما زال الوضع مستمرا ؟

أذن فيم كان حضور الخادم اليه ؟

أم ترى أن الصراخ قد يعقب الولادة . كما يسبقها ؟

من يدري .. انه لم يحضر من قبل حالات الولادة .

ولكن الصرخة تلتها صرخات .. أجل صرخات متواليه من حناجر متعددة .. تماما كذلك الأصوات التى يسمعا فى ماتم .

واندفع كالمجنون الى الداخل .. فاذا بجمع من النسوة يحطن بامرأته وقد استلقت مسجاه على فراشها جثة هامدة ومن حولها الملاءات البيضاء وقد غلبتها حمرة دماء قانية .

وأسكتت به أخته تقوده الى خارج الحجرة وتطلب منه الصبر والصمود وتنبئه بأن النطف قد نزل مقلوبا وأن الولادة تعذرت حتى راح ضحيتها الأم والابن .

أجل .. الابن .. فقد كان المولود .. ولدا !

هكذا ؟

أبمثل هذه السخرية والشماتة يعامل الله أمثاله من المؤمنين والأتقياء ؟
أبمثل هذا الجزاء يجزى الله عبده الطيبين الأبرار ؟

ولم بيك الرجل .. بل انطلق يقهقه فى سخرية . ان الصدمة كانت أفسى من أن يتحملها فانهارت مقاومته وتحطمت أعصابه وتبدد ايمانه .

ووقف فى حجرته وحيدا .. وقد أمسك بالمسبحة يقطعها وينثر حباتها .. ضاحكا مقهقا .

هكذا ؟

أهذه هى بشرى العنديلين ؟

لقد خدعه الله .. خدعة مقصودة مدبرة .. محكمة التدبير .

أبعد كل هذا الايمان والتقى .. والاحسان .. والحياة النقية التى لم تشبها شائبة وزر ولا عكر صفاءها نرة شر .. جزى جزاء ستمار .. انها والله منتهى الشماتة .

وهكذا ظلت قهقهته تختلط بأصوات الصراخ .. حتى أحس بفطر التعب والاجهاد وشعر بقواه تنهار ، فتهاوى على أحد المقاعد وأخفى رأسه بكفيه واندفع فى نوبة من البكاء ...

وفعل البكاء فعله .. وهذأت أعصاب الرجل .. وتمالك نفسه وخرج من حجرته .. يباشر عمله نحو تشييع الجنازة واستقبال المعزين .

واستمر طيلة يومه يتحرك حركة آلية .. وهو يتجلد ويقاوم حتى انتهى اليوم .. وأب الى داره بعد انفضاض المعزين .

وخلا الحاج « درويش » الى نفسه فى حجرته .. كما تعود أن يخلو بها فى صلواته الطويلة .. ولكنه لم يطق أن يجلس على سجادة الصلاة فقد كان يحس نفورا منها .. كانت نفسه مكلومة من ربه ومن خالقه .. لقد تبدد ايمانه ..

وانطلقت روحه هائمة شاردة . كافرة بكل شيء .. وكان من العيب أن يعيدها مرة ثانية الى قيود العبادة الأولى ..

وعلام العبادة والتقوى والورع ؟

ومن يعيد ؟

لو أنه استطاع أن يرى فيما أصابه حكمة .. أو مبررا .
وتمدد الحاج على فراشه مقروح الجفن مسهد العينين وقد أمعنت روحه في الهيمان والشroud .. وأخذ يقلب رأسه على الوسادة متمللا ويرنو بعينيه من خلال زجاج النافذة وقد بدت النجوم تتلألأ في ظلمة السماء .. ثم أخذ يتمتم قائلا :

. أنت موجود يا الهى .. أنت ترى وتسمع .. لم فعلت بى هذا وأنا ما عصيتك مرة واحدة ؟ .. لم فعلت هذا .. لم .. لم .. ؟ لقد خدعت منك أربعين عاما .. فضيتها في عبادتك والتسبيح بحمدك .. ماذا كنت فاعلا بى لو أنى زنيت واركتبت الفاحشة وشربت الخمر ؟ .. لم تركتني أطمئن الى عدالتك وحكمتك .. ثم خذلتني في النهاية هذا الخذلان الشديد ؟ .

وعاد رأسه يتململ وعينه تدمع .. ثم اندفع مرة ثانية فى نوبة من البكاء .. نهض على أثرها من الفراش ووضع عباءته على جسده ودس قدميه فى الحذاء ثم غادر البيت متسللا فى سكون .

وخرج الرجل يهيم على وجهه فرارا من نفسه ومن تفكيره . وأمعن فى السير بين الطرقات المظلمة الضيقة ، حتى وجد نفسه أمام باب المسجد .

وتردد برهة .

أيدخل أم لا يدخل .. ان بوده أن يهتدى .. وأن يعيد روحه الضالة الهائمة الى رشادها وإيمانها .. ولكنه لا يستطيع .

أحق له أن يدخل بيت الله .. ونفسه كافرة بالله ؟

وماذا فى ذلك .. ألم تجعل بيوت الله للهداية ؟
ومد يده الى قدميه فخلع نعليه ثم تقدم الى المسجد متناقل الخطا مكروب النفس .. وتحرك حتى وصل قرب القبلة ووقف قبالتها .

ورفع يديه الى أذنيه مكبرا .. هاما بالصلاة .. ولكنه لم يستطع .

لقد كان ذهنه شاردا .. وروحه عاصية ..

وخر الى الارض راکعاً فى يأس ، ورفع رأسه الى اعلى وأخذ يتساءل فى عناد واصرار ... لو أعلم السبب .. ما حكمتك يارب .. كيف تأخذها هكذا على غرة .. وهى القوية السليمة التى لم تمرض قط .

وفجأة وصل الى سمعه صوت متممة . وتلفت الى ناحية الصوت فلمح فى ركن قصى من أركان المسجد فقيها متربعا على الأرض وقد أخذ يهز رأسه كأنما هو منهمك فى القراءة ، ثم علا صوته . يتلو ﴿ قل ان الأمر لله .. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ .

وأحس الرجل برجفة تسرى فى بدنه .. وأخذ يهز رأسه فى عناد ويتمتم قائلا .. كتب عليهم القتل ؟ ولم تكتب عليها القتل . ما حكمتك أريد أن أعلم .. لم .. لم ؟

وصمت الفقيه برهة .. ثم عاد يتلو قوله تعالى :

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ﴾ .

وهتف الرجل ساخرا .. علمه ! .. أى علم هذا ... لا أفقه منه شيئا ؟
ليعلمنى .. اذا شاء الآن ؟ متى يشاء ؟ ان لم يشأ الآن ؟

مرة أخرى عاد صوت الفقيه يردد :

﴿ لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

وهز الرجل رأسه فى يأس وأجاب :

- لن يسؤنى شيء اكثر مما فعلت بى لقد بلغ السيل الزبى لقد ضللت

نفسى .. قل عن حكمتكم فيما فعلت بى حتى أعود الى رشدى ، لم أخذت زوجتى وولدى ؟

وصمت الصوت برهة ثم عاد يردد :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نساتكم ﴾

وصرخ الرجل صائحا بصوت يائس مبحوح

- لا .. لا .. لا أريد أن أسمع .. هذا كذب ..

ووصل الى أذنيه الصوت يردد بقية القول ﴿ فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾ .

واندفع الحاج الى الفقيه هاجما عليه فى جنون وهو يصيح ..

- هذا كذب .. هذا كذب ..

ووصل الى مكان الرجل يعدو فى أنحاء الجامع كالمجنون ، ثم أصابه الكلال فخر على الأرض ، وبعد برهة أفاق الى نفسه ورفع رأسه الى السماء وقال بصوت باك ... الحمد لله . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

وفى اليوم التالى عاد الرجل الى حانوته ، منكس الرأس محدودب الظهر ، كسير القلب ، لقد استعاد ايمانه بالله ولكنه فقد ايمانه بالبشر ولم يعد له من قول يردده سوى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ﴾ .

٣٠ قصة

ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه فاوثقوه ومضوا به ودفعوه الى بيلاطس البنطى الوالى .

حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه انه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلا قد أخطأت اذ سلمت دما بريئا . فقالوا له ماذا علينا أنت ابصر فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف ثم مضى وخلق نفسه .

انجيل متى

وقفت أتأمل صورتين وأنا مشدوه مأخوذ . وقلت لصاحبى الفنان انهما أعجوبة .. انهما معجزة ..

كانت صورتان للعذراء ويهوذا ..

وعجبت في نفسى كيف استطاع صاحبي أن يبرز تلك المعاني فيجعلها شيئاً ناطقاً حياً .. ونظرت الى العذراء فوجدت الصورة تنطلق بمزيج من الكبرياء المتواضعة والايمان العميق .. وخيل الى أنني لست أمام صورة . بل أمام العذراء نفسها .

ونظرت الى يهوذا .. فراعنى منه ظلال داكنة عميقة يتجسد فيها الطمع والبخل وراعنى من عينيه احساس بوزر أنقض ظهره وبارقة يشع منها ندم عميق ولهفة الى التوبة والاعتراف بالجرم .. والى ازالة تلك الحثالة التي رسبت في قرارة النفس .. ومحو تلك الصدأ الذي شمل الروح في حلقة معتمة .

وشددت على يد صاحبي مهنتا وطاف بذهنى كيف حاولت أن أسخر منه عندما أنبأنى أنه سيتقدم الى المعرض بصورتى العذراء ويهوذا وكيف حاولت أن أنهيه عن عزمه ولا سيما عندما أعياه البحث عن نموذج ليهوذا . وتذكرت وقدذاك أن أول صورة عرضها منذ عشرات السنين كانت تمثل المسيح وهو صبى .. وقد نالت الجائزة الأولى .. وكانت هى السبب فى شهرته وذبوح صيته .

وغادرنا المعرض وسألت صاحبي كيف عثر على نموذج ليهوذا ورأيتَه يطرق برأسه وقد شرد منه الذهن . ثم أنبأنى أن لذلك قصة عجيبة وحاولت أن أعرفها منه فلاذ بالصمت .

وافترقتا بعد ذلك ومرت الأيام والشهور . وكنت أنسى ما كان من أمر صاحبي حتى حمل الى البريد الرسالة التالية :

عزيزى :

يخيل الى أنى أستطيع الآن أن أرضى لهفتك على معرفة شىء طالما

تقت الى استجلانه وأن أشبع رغبتك فى سماع قصة طال شوقك الى سماعها . لست أظنك الا ذاكرا كيف حاولت أن تنتزع منى سر صورتى الأخيرتين اللتين تمثلان العذراء ويهوذا ..

وكيف ألححت على بعد أن خرجنا من المعرض الأخير الذى عرضتهما فيه وفازتا بالجائزة الأولى ، فى أن أفضى اليك بقصة النموذجين اللذين نقلت عنهما صورتين ..

فلقد كنت تعلم منى أن لهما قصة .. وقصة عجيبة .

لقد تهربت منك وقدذاك .. ولم أستطع أن أرض فضولك .. اذ لم أكن فى حل من الحديث .. ولست أشك فى أن تهربى منك وقدذاك قد ساءك .. فأنا أعلم أنك مصاب بحب الاستطلاع .. فهل تسمح لى الآن أن أكثر عن اسألتى وأقص عليك القصة بعد أن أضحيت فى حل من الحديث .. وبعد أن أضحيت واثقا من أن حديثى لن يضير أحدا .

هل تذكر عندما أخبرتك أنني سأدخل مسابقة المعرض بصورتين هما صورتا العذراء ويهوذا .

وكيف سخرت منى وقدذاك ونصحتنى أن أدع تلك الصور الدينية .. فقد سبقتى اليها أساطين الرسم وأتى مهما فعلت فلن أتى بما لم يستطعه الأوائل . وقلت أنه خير لى أن أتقدم بشىء حديث مبتكر .

ولكنى ضربت بنصائحك عرض الحائط وأصررت على رأى وبدأت البحث عن نموذجين أنقل عنهما ولم يكن من العسير على أن أجد نموذجا للعذراء ولو أنه لم يرضنى ارضاء تاما .

ولكن المشكلة الكبرى كانت فى الحصول على نموذج ليهوذا . ولم تكن

بيصرى كافية لأن أجزم بأنه ضالتي المنشودة .

لم يصعب على العثور عليه بعد ذلك واستطعت بواسطة أولى الأمر أن أحصل على إذن للقاءه .. وأن يسهلوا لى مهمة اتخاذه نموذجا أنقل عنه صورتى .

• وذهبت إليه فى حجرته الرطبة المظلمة .. بعد أن قررت أن أنتقل أنا إليه .. فقد تخيلت أن جو الحجرة الموحش الكئيب الذي تفوح منه عفونه الجريمة سيكون أكثر الأجواء ملاءمة للصورة .. وأن غياب السجن التي يثقلها ضباب الذنوب ستكون خير عون لى على الاجادة والانتقان .

ودفع الحارس الباب فسمعت له صريرا موحشا ونفذت الى الحجرة الضيقة واستطعت أن أميز الرجل على ضوء تلك الخيوط التي تسللت من النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية .

وأخذت أتأمل وجهه الضامر وعينيه ..
والتقى بصرنا فأصابتنى اذ ذاك رجفة .

لقد أدهشنى من الرجل .. أكثر من أى شيء آخر .. بارقة تشع من عينيه المنبئين . بارقة تحاول أن تبدد ظلمات الذنوب التي أثقلتته .. ورغبة فى التكفير والتوبة والاستغفار والندم .

وأفهمه الحارس ما هو مطلوب منه .. فرفع الرجل رأسه الى فى شيء من الدهشة ولم يحرك ساكنا .. فألقيت عليه التحية فى رفق وأدب .

وتركنا الحارس وأخذت أجازبه أطراف الحديث متوددا ... حتى أفهمه ما أنوى أن أتخذه نموذجا له .. وتطرق بنا الحديث الى أن أسأله عما قاده الى السجن .. فأفضى الى بقصته فى اقتضاب .

هل تدرى ماذا كانت قصته ؟ أى حظ هذا الذى دفع به الى ؟

الصعوبة كائنة فى أن أجد النموذج الصالح .. بل كانت المسألة أعوص من ذلك .. فأنت تعلم انى قد تعودت دائما أن أفهم الأشخاص الذين أتخذهم نماجنا ، أية صورة أنوى أن أرسمها لهم وأية تعابير يهمنى أن أوضحها منهم .. وأى نوع من أنواع النماذج أريد أن أجعلهم ..

فالمراة التي اتخذها نموذجا لعاهرة أفهمها جيدا أننى سأرسم عنها عاهرة .. وانى سأوضح فيها تعابير العهر والفجور .

ولقد كان هذا هو ما جعل الحصول على نموذج ليهودا أمرا عسيرا .. فما من انسان - بالغا ما بلغ من السوء والحطة والذنائة - قد رضى أن يكون نموذجا ليهودا بعد أن شرحت له من يكون يهودا ..

ولا شك أنك تذكر دهشتك وقتذاك عندما أنبأتك بهذا .. وتذكر سؤالك اياى :

- ماذا يمنعهم من أن يكونوا نموذجا ليهودا أو لغيره ... ماداموا سيأخذون أجرهم فى النهاية .

وتذكر اجابتى لك :

- هذا هو ما فعله يهودا أيضا .. لقد أخذ أجره فى النهاية .. ولكنى مع ذلك لم أجد حتى من حثالة البشر من رضى أن يكونه .

ومرت الأيام وأنا لا أجد النموذج وكلما ازداد اقتراب الموعد المحدد لاقامة العرض ازداد بى الضيق واشتدت حيرتى .. حتى أتت بى الصدفة العجيبة فى طريق النموذج المطلوب .. أو على الأصح ألقته به فى طريقى .

رأيتة أول مرة مع سواه من المسجونين وقد حششوا فى احدى اللوريات فى طريقهم الى السجن .

وكانت للحظات الخاطفة التي لمجته فيها .. والتي التقى فيها بصره

لقد قال لى الرجل انه متهم فى قضية قتل ..
وأن المجنى عليه كان أحد تجار الأواني الفضية .

وأكد لى أنه لم يشترك مع اللصوص فى عملية القتل .. ولكن الذى زج
به فى التهمة هو تعدد سوابقه فى سرقة الفضيّات .

فلقد كان به تحرق دائم الى الفضة . ولم يكن يتورع فى سبيل الحصول
عليها عن أن يسلك أى الطرق ، سواء كانت شريفة أم غير شريفة .

وكان الحصول على الفضة هو العامل الأول الذى يتحكم فى حياته .

تصور يا صاحبي أن هذه هى قصته !

تصور دهشتى وقذآك وأنا أسمعها منه !

أنا الذى كنت أبحث عن نموذج ليهودا .. هل أستطيع أن أجد نموذجا
خيرا من هذا ؟

رجل مصاب بجنون الفضة .. رجل تحكمت الفضة فيه .. فهوت به
الى بشس القرار .

ونظرت اليه برهة .. وبدأت أخبره عما أود أن أتخذه نموذجا له ..
وقصصت عليه قصة يهودا والمسيح .. وكيف باعه بثلاثين من الفضة .. ثم
وخزه الندم فرد الفضة لأصحابها وخنق نفسه .

ورأيت الرجل يحملق فى بشدة فاغرا من الدهشة فاه ..

ثم أطرق برأسه وخيل لى أنني أبصر فى عينيه دمة تترقرق .

وتملكنى العطف عليه والرثاء له .. وكرهت أن أكون سبب ايلام
الرجل .. وأن أستغل فرصة كونه سجيناً فأجبره على أن يفعل ما لا يود فعله .

ووجدت أن خير ما أريح به ضميرى هو أن أترك له الخيار فى أن

يجلس أمامى أو لا يجلس .

وقلت له :

لا أريد أن أكرهك على شىء فلا شك أن لك مطلق الحرية فى أن
ترضى أن أتخذ منك النموذج الذى أريده . لقد رفض الكثيرون غيرك من
قبل .. فلن ألومك اذا ما رفضت .

ونظر الى الرجل نظرة طويلة ثم هز رأسه بشدة قائلاً :

- ابدأ ياسيدى أبداً .. انى سأجلس أمامك .. انى أرغب فى ذلك ..

هذه فرصة أذل بها نفسى وأهبط الى أسفل القرار .. حتى أستطيع بعد
ذلك أن دفع بها الى أعلى القمة .. هذه فرصة أظهر فيها روحى حتى تتخلص
من أدرانها وشوائبها .

ثم صمت الرجل برهة استغرق خلالها فى تفكير عميق حتى قال وكأنه
يحدث نفسه :

- ثم هناك أمر آخر .. أمر لاشك قد أتاحتها الظروف لى .. اذ يخيل
لى أنها قد أذنت بأن تضع خاتمة لهذه اللعنة .

أجل هذه الفرصة التى ألقى عن نفسى فيها ما أنقلها وحطمها .
ولم أفهم ما يعنى الرجل بقوله .. ولم أرد أن أستوضحه خشية أن أثير
فى نفسه ذكريات مريرة محزنة .

وأجلسته فى الوضع الذى أريده وفتحت الحقيبة وأخرجت منها بعض
الأدوات .. وبدأت أرسوم له تخطيطاً .

وانهمكت فى الرسم .. وخيل لى أن الرجل متمرن على الجلوس أمام
الأساسمين فقد كان من خير النماذج التى أجلستها أمامى .. اذ لم ينحرف عن
جلسته أو يحرك جسده طوال الساعتين اللتين استغرقتهما فى رسمه .

وكان أهم ما يسترعى اهتمامي في الرجل عينيه .. فقد ركزت في رسمهما كل جهدي .. اذ كنت ألمح فيهما وراء ذلك الاحساس بالجرم واليأس الظاهر لمحة عزم وبارقة أمل ، كنت ألمح في عينيه وراء تلك المنلة والانهياب شيئا لا يعبر عنه أكثر من قوله « حتى أستطيع بعد ذلك أن أدفع بها الى أعلا القمة ، هذه فرصة أطهر فيها روحى حتى تتخلص من أدرانها وشوائبها » .

أجل لقد كان ذلك هو ما أستطيع أن ألمحه وراء أفق نفسه ..

وكان ذلك هو ما حاولت جهدى أن أبرزه - وعندما انتهيت من الرسم .. أحسست أنى قد نجحت وانى استطعت كذلك أن أجسد ذلك الشيء الخفى الذى لمحتة فى قرارة نفسه وأيقنت كذلك أنى سأنجح فى نقله من التخطيط الى الصورة .

وضعت التخطيط جانبا وأمرته بأن يجلس على راحته شاكرا له فضله .. ثم وضعت يدي فى جيبى وأخرجت بضعة ورفات مالية وحاولت أن أعطيها اياه ولكنه أعادها الى قائلا فى شيء من المرارة .

لا ياسيدى استبقها لنفسك .

وأصابتنى دهشة وحيرة وقلت له :

- هذا أجرك فهو مال حلال لك .. لقد تعودت دائما أن أنقد النماذج التى تجلس أمامى فماذا يمنعك من أن تأخذ الأجر .

- لا ياسيدى اعفنى من الأجر .. أرجوك .. انى لا أود أن أخذ أجرا على ما فعلت .

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

- ولكن هناك أمرا بسيطا أسألك اياه . وبودى لو تفضلت بفعله من

أجلى .

وهنا أدركت أن الرجل ينوى أن يطلب منى شيئا يعوض به الأجر ، شيئا لاشك سيعتبره أكثر من الأجر ، وخشيت أن يبالغ فى مطلبه أو يطلب أمرا تحرمه قوانين السجين .

وقلت له فى شيء من التردد :

- لاشك انى فاعل لك ما تريد ما دام فى طاقتى .

- هو فى طاقتك ياسيدى ، أريد منك أن تذهب الى زوجتى ، انها هى التى وهبتنى القوة لأتماسك وأتجلد . وهى التى منحتنى الارادة لأبدأ من جديد .

انها تعيش على مقربة من السجن فلقد استأجرت دار فى القرية المجاورة حتى تكون بجوارى .

- وماذا تريد أن تبلغها .

- لو تفضلت ياسيدى بلفاتها وقلت لها كل ما حدث بيننا ، وطلبت منها أن تعطيك الكيس الصغير لكى توصله الى ، فلاشك أنك تكون قد أسنيت لى معروفا لن أنساه ، هل تستطيع أن تفعل هذا من أجلى ؟

وترددت برهة فقد خشيت أن يكون فى الكيس شيء يحرم دخوله الى السجن ، وبدا لى أن الرجل قرأ ما جال بخاطري فقد قال مؤكدا .

- ليس بالكيس شيء يخشى منه . أقسم لك ياسيدى .

واستطعت أن أميز فى صوت الرجل رنة صدق واخلاص فلم أتردد فى أن أقول له :

- سأفعل ما تريد ، سأذهب الى زوجتك وأنبئها بكل ما حدث وأحضر لك منها الكيس .

وشد الرجل على يدي شاكرا وتركته وانصرفت .

غادرت السجن وكان الوقت قبيل الغسق ولم يبق فى الأفق الا بقايا شفق

داكن الحمرة ، وقلوب النهار تترنح أمام طلائع الليل المعتمة ، ولم يصعب على أن أعثر على الدار التي وصفها لى الرجل وبعد لحظات كنت أطرق الباب ، وسمعت من الداخل صوتا يجيبنى فى ورقة ، ثم فتح الباب ووجدت نفسى أمام امرأة اتشحت بمنزور أسود ونظرت الى نظرة فاحصة ثم سألتنى :

- نعم ياسيدى .

وحبيتها فى رفق ... مساء الخير ياسيدتى .

مساء الخير ، أستطيع أن أودى لك خدمة .

انى قادم من عند زوجك .

وأخذت المرأة من قولى وردته فى دهشة :

- قادم من عند زوجى ؟ تقضل ياسيدى .

ثم أفسحت لى الطريق وقادتنى الى الداخل .

وجلست على مقعد خشبى وجلست أمامها على الأرائك وساد السكون برهة ثم رأيتها قد قامت وبدأت تتشاغل بأشغال المصباح الغازى ، فلقد أخذت الظلمة تشتد ثم عادت الى مقعدها .

وكنت أول من بدأ الحديث فقصصت عليها فى اسهاب ما دفعنى الى

لقاء زوجها وما حدث بينى وبينه .

وأخذت أرقبها وهى تستمع الى ، ووجدت فى وجهها نوعا من الجمال العجيب ، نوعا هائنا ساكنا ، يبعث فى نفسك الطمأنينة جمال لا يبهرك منه ضياء ولا بريق ، ولا تؤخذ منه لأول وهلة ، ولكنه يسحرك كلما أطلت النظر اليه ، وتحس منه أمنا وسلاما ، تشعر من النظر اليه براحة كالتى يحسها الانسان عندما يستلقى فى روضة غناء فى يوم صافى الأديم هادىء التسمات .

وانتهيت من الحديث ورفعت الى عينها الصافيتين وسألتنى فى شيء

من اللفظة :

- كيف وجدته ياسيدى ؟ هل يبدو فى تحسن .. أعنى نفسه وروحه .. هل تسميران فى طريق الشفاء .

وأجبتها على الفور :

- بالتأكيد ياسيدتى . انى أستطيع أن أجزم من حديثه ومن مظهره .. انه قد بدأ فعلا فى الصعود الى أعلى . وأن روحه قد أخذت تتخلص من شوائبها وأدرانها وان نفسه قد أخذ يزول عنها الصدا .

وبدأت المرأة تتحدث بدورها لتقص على قصته قائلة :

ان أمره عجيب - لولا هذا المرض النفسانى الذى به لكان خير الرجال ولكان له شأن آخر غير الذى صار اليه ، انى أذكر كيف التقينا منذ بضع سنوات .. وكيف شدنا الحب بوثاقه .. ووجد كل منا فى صاحبه أقصى ما يريد .

ثم تزوجنا وبدأنا حياة رغبة هائلة .. وكنت أرى المستقبل أمامه زاهرا متفتحا وكان كل ما حولنا يبعث على الرضا ويوحى بالأمل .. حتى بدأت أكتشف ذلك المرض الذى به ، وهو لهفته الى الفضة . وتحرقه الى جمعها ، وحرصه عليها حرص بخيل يتأجج فى جوفه الجشع والطمع .

ولم أكن أجد فى الأمر غضاضة عندما كانت لهفته لا تتعدى جمع كل ما تصل اليه يده من الفضة ومحاولته تخزينها .. ولكننى بدأت أحس قلقا عندما وجدته ذات مرة يغالل بانعا فى أحد الحوانيت فيسرق من كيسه ما وصلت اليه يده من القطع الفضية .

ولم تذق عيني النوم فى تلك الليلة فقد قضيتها باكية مسهدة وانتهى به الأمر الى أن أقسم لى أنها ستكون المرة الأخيرة التى يفعل فيها مثل تلك الفعل .

وكنت وقتذاك فى حالة لا أحسد عليها ، فقد أضناني التفكير دون أن

أهتدى الى حل لما أنا فيه .

لتخيل ياسيدى حال زوجة تحب زوجها . وترى فيه مثلا أعلا ونموجا بين الرجال ثم تراه ينزلق الى مثل تلك الدنيا التي لا موجب لها ولا سبب .. فنحن بحمد الله فى غير حاجة الى تلك السرقات المخزية التي يرتكبها .. وبدأت أتصور ماذا يكون حالنا لو ضبط مرة مثلبسا باحدى تلك الفضائح المشينة .. أية مصيبة وأى ضياع لمستقبله ؟

ولم أشك فى أن ما به مرض نفسانى ، قد يكون مرجعه الى عقدة نفسيه أصابته فى طفولته أو فى صباه ، ولكن كيف السبيل الى علاجه كيف أجرؤ أن أقول للناس أن زوجى مصاب بداء سرقة الفضة ، وأنه قد ارتكب عدة سرقات تافهة حقيرة .

وأخيرا حدث ما كنت أفتشاه فقد افترضح أمره وضبط عدة مرات وفقد سمعته ومركزه ، وتدهور حالنا وبذلت جهد الجبابة لانقاذه مما به ، حتى حدثت أخيرا تلك الكارثة التي قتل فيها تاجر الأوائى الفضية فكانت القاضية علينا .

وبالطبع ياسيدى لم يكن له أى دخل فى عملية القتل .. ولا كان يخطر على باله أنها ستنتهى بمثل ما انتهت عليه .. فهو لا يمكن أن يفكر فى ازهاق روح حشرة ، بلة انسان مثله .

ويخيل الى أن هذه الحادثة رغم فظاعتها ورغم ما حل به من جرائمها قد أفادته كل الفائدة .. فقد أصيب منها بصدمة عنيفة .. روعته وهزت مشاعره وأحدثت فى نفسه تحولا مفاجئا وأصابته بنفور من الشيء الذى طالما تلهف عليه .. وشفيت نفسه من الداء الذى أزمى بها .

أست ترى ذلك ياسيدى .

ألم تر أن نفسه على وشك الشفاء ؟

ورأيت فى سؤالها شبه رجاء واستعطاف فقلت لها فى ثقة :

- بالتأكيد ياسيدتى ، انه سيخرج اليك رجلا آخر . سيخرج اليك نفسا سليمة وروحا طاهرة وتستنيطعان أن تبدأ حياة جديدة مرة ثانية ، فالمستقبل مازال زاهرا متفتحا .

وفعل قولى فى نفسها فعل السحر ووجدت تعابير وجهها قد نمت عن شيء جديد وشع من عينيها بريق أصابنى منه رجفة .

وأخذت تحدثنى عن أملها فى المستقبل وعن أحلامها وأمانيتها وبهت لحظة ، ثم أقبلت على حقيبتى أفنحها وأخرج منها ورق الرسم وبدأت أرسم لها تخطيطا .

وانهمكت المرأة فى حديثها المليء بالثقة والايمان . ايمانها بالله وبالمستقبل وبزوجها وبنفسها وانهمكت فى الرسم بلهفة جنونية ، لقد كنت أرغب فى أن أجد ذلك الايمان الذى شع من عينيها وذلك الاخلاص الذى برق فى وجهها والثقة التي ملأت جوانحها .

وأخيرا كفت المرأة عن الحديث وكففت عن الرسم ..

لقد رسمت ما أبغى ..

لقد حصلت على ما كنت أتلهف عليه .

ولا شك أنك تذكر صورتها فلقد رأيتها وأبديت اعجابك بها هل تذكر ؟

لقد كانت صورة العنراء .

وعندما صممت ، مددت يدي اليها بالصورة التي رسمتها وابتسمت

وعلى وجهها احمرار خجل ، وأنبأتنى أن الصورة فيها كثير من التملق ،

وانتى أطريبتها أكثر من اللازم .

وصممت برهة ثم سألتنى فى حياء :

- هل يمكن أن تريها له ؟

- بالتأكيد ، لا شك أنى فاعل .

ووضعت الصورة فى الحقيقية ثم نهضت من مقعدى ماذا يدي لمصافحتها .

وقلت أذكراها بما أتيت من أجله .

- لا تنسى الكيس ياسيدتى الذى يطلبه زوجك .

وهزت المرأة رأسها بالموافقة ثم اختفت بضع لحظات وعادت تحمل كيسا جلديا صغيرا ودفعت به الى قائلة :

- عندما تعطيه له سيشرح لك كل شيء عنه .

لا تسخر منه ياسيدى اذا ما رأيت فيما يقول حديثا صيبانيا .

هل تعدنى ياسيدى ؟

- لا لزوم للوعد فانى ما سخرت من شيء فى هذه الحياة قط .

فقد نجد نحن أنفسنا فى نفس الموضع الذى سخرنا منه ، فليس علينا الا أن ندعو الله ألا يدخلنا تجربة .

- أشكرك ياسيدى .. انه يريد أن يتخلص مما يظنه لعنة حلت به أنه يريد أن يلقى عن نفسه ما أثقلها وأنهكها .

ووجدتني أسمع للمرة الثانية نفس ما سمعته من الرجل عن التخلص من لعنة وعن شيء أثقل نفسه وأنهكها ولم أجب بشيء فما استطعت أن أفهم بعد .

وغازدت المرأة وسلكت سبيلى مرة ثانية الى السجن ولم أجد مشقة فى الدخول الى الرجل .

ووصل الى أذنى صرير الباب مرة أخرى .. ووجدت الرجل ما زال جالسا حيث تركته .

وعندما أبصرنى وثب من مكانه وتقدم الى بلهفة شديدة وسألنى فى حدة .

- هل أحضرتة ياسيدى .

وأشرت برأسى - نعم - ثم مددت يدي اليه بالكيس .

ووضع الرجل الكيس على حافة الفراش ونظر الى مطرقا باستحياء ثم قال بصوت هامس :

- هل لم تتكرنى بعد ياسيدى ؟

هل نظن أن هذه هى المرة الأولى التى أجلس أمامك فيها لترسمنى ؟ ورفعت حاجبى فى دهشة بالغة وهزرت رأسى متسائلا عما يعنيه وعاد هو يقول :

هل تذكر صيبيا جالس أمامك منذ عشرات السنين لتتخذ منه نموذجا للسيد المسيح ؟

- بالطبع أنكر ، فلقد كانت أول صورة رفعتنى الى أوج الشهرة ولكن ، هل تعرف الصبى ؟

ثم ترددت برهة وبدأت أحمق فيه بشدة وقلت مترددا :

- لا أظنك تعنى أن هذا الصبى هو ...

- أنا ! أجل ياسيدى ، هذا هو ما أعنيه بالضبط ، لقد اتخذت منى فى

صبى نموذجا للمسيح ، وجعلت اليوم منى نموذجا ليهودا .

ثم ضحك ضحكة مريرة أصابتنى برجفة .

وحدثت نفسي في صوت هامس :

- ولكن هذا غير معقول .

- أجل انه يبدو فعلا غير معقول .

ثم صمت برهة وأردف :

- هل تذكر عندما أعطيتني أجرى وقتذاك أوراقا مالية فسألتك أن

تستبدله بفضة .

- لاشك انى أذكر ، وأنكر مبلغ فرحتك بالنقود الفضية لقد كانت فرحة

جنونية .

- أجل ياسيدى ، فقبل أن تعطيتها لى ببضع ساعات كان أبى قد ضربنى

ضربا مبرحا لأنى حاولت أن أخذ من درجه قطعة فضية أشترى بها لعبة كنت

أتلهف عليها ، وزادنى الضرب والحرمان لهفة على لهفة .

وكننت أتحرق شوقا الى القطعة الفضية وأحلم اننى قد عثرت على كنز

ملء بالفضة ، وبعد بضع ساعات حققت أنت لى الحلم وهيات لى ذلك الكنز

من الفضة .

ومرت الأيام بعد ذلك ، فاذا بى أحس بجشع دائم الى الفضة ولهفة على

الحصول عليها ، وفرحة فى تجميعها وتخزينها ، واشتد بى الأمر ، وتحكم

فى نفسى ذلك الشعور ، وتسلط على ارادتى وحياتى وأصبحت أشبه بمدمن

المخدرات . وأظلمت حياتى وانتهى بى الأمر الى حيث تجدنى الآن .

وأحسست برعدة فى بدنى وقلت لنفسى فى صوت هامس :

- يا للفتى المسكين ، هل يمكن أن أكون أنا السبب فى كل ما حدث له .

- لا ، لا ، ياسيدى ما ذنبك أنت ، الذنب أولا ذنب ذلك الذى أخذنى

بالشدة أول الأمر ، وأذاقتى الحرمان بلا سبب ، ثم ذنب هذه النفس الضعيفة

التي لم تستطع أن تقاوم العلة .

هل يدهشك ياسيدى اذا وجدتنى قد احتفظت بنقودك كما هي ؟

وانى اتخذت منها تعويذة ، أ جلب بواسطتها غيرها من الفضة ، انها

مازالت معى كما هي ، لم أصرف منها مليما واحدا ، وكم أتمنى لو أرداها

لك - اذا لم تجد فى هذا ما يسوءك - حتى أرفع عن نفسى اللعنة التى حلت

بى .

وأمسك الرجل بالكيس الفضى وفك رباطه وألقى ما فيه فوق الفراش

ونظرت الى الرجل فوجدت عينيه تبرقان بطبقة من النعم وأحسست بأن نفسه

غمرها شعور بالراحة والاطمئنان ، والتفكير عن الخطيئة ، ورأيت بارقة

الايمان التى كنت ألمحها بعيدة فى أقصى أفاق نفسه قد أشرقت حتى أضاءت

نفسه .

وأخذت أجمع النقود الملقاة فى الفراش .

وأعدت الى جيبى ، ما أعطيته للصبى منذ عشرات السنين .

ثلاثين من الفضة .

رُعْرُهَا يَأْرِبُ

﴿ وان يمسسك الله بضر فلا كاشف
له الا هو وان يمسسك بخير فهو على
كل شيء قدير ﴾ — ر .
« قرآن كريم »

دقت الساعة الثانية عشرة . وأنصتت العجوز الى الدقات تعدها واحدة
واحدة ، ثم أرسلت من صدرها زفرة حارة وأغمضت عينيها .

لم تنم العجوز فقد استعصى عليها النوم وأرقها الحزن ، وأخذت تهز
رأسها متململة . وانسابت من جفنيها المطبقين دمعان جرتا على وجهها
المغضن واستقرتا على الوسادة .

كان أكثر ما يحزنها هو احساسها بالعجز . فقد كانت تتمنى لو تستطيع
أن تفعل شيئاً ، أى شيء مهما بلغ من تفاهته يخفف من لوعتها ويهيبء لها
بعض السلوان .

لو أنها كانت تستطيع أن تغدو وتروح لتقضى بعض الحوائج أو تناول
هذا الدواء أو ذلك . وتضع الكمادات وترفعها . أو لو أنها كانت تستطيع حتى
أن تجلس بجوار المريضة العزيزة لتسرد عليها الأفاصيص والنوادر ، فتسليها

وتضحكها وتدفع عنها بعض الآلها .

لو أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئا من هذا لكانت بلا شك أحسن حالا ،
ولكان المصاب - على فداحته - يمكن احتماله .

أما أن ترفد هكذا في فراشها لا تملك الا الرأس المتململة ، والدمع
المنساب . والزفره تلو الزفره . فقد كان هذا شيئا لا يطاق .

وسمعت وقع أقدام تقترب من حجرتها ثم أضىء النور وأبصرت أم
عبده الخادم تفتح أحد الدواليب لتخرج منها بعض الملاءات البيضاء ، وعندما
أوشكت أن تهم بالخروج دون أن تلقى اليها بكلمة سألتها في صوت خافت :

- كيف الحال ؟

وكانما قد فوجئت المرأة بسؤال العجوز . فقد أصابتها رجفة بادية
وهتفت مجيبة :

- أما زلت مستيقظة ياسيدتى ؟ ظننتك نائمة .

- كيف حال عفت ؟

- كما هي . لقد استدعينا الدكتور عبد العزيز فأشار بوجوب عمل
كونسلتو . وقد حضر الأطباء وتشاوروا في أمرها ثم انصرفوا بعد أن قالوا
أنهم فعلوا كل ما يستطيعون وأن على الله الباقي .

رفعت العجوز يدها الى السماء داعية بصوت ملؤه الحرارة .

ربنا لا يرينى فيها مكروها .

وأطفأت الخادم النور . وغادرت الغرفة تاركة العجوز غارقة في
ظلمات أحزانها .

وشرد ذهن العجوز فانطلق الى حجرة المريضة العزيزة الجميلة ،

وتخيلتها مسجاة على فراشها مكروبة الصدر متلاحقة الأنفاس قد الهبتها الحمى
وأنهكها المرض ويجوارها رقد طفلها الصغير لا يتجاوز عمره أياما
معدودات .

عجبا للزمن ، ما أسرع مروره أهكذا أضحت الحفيدة الصغيرة أما ،
وهى مازالت تنكرها بالأمس تحبو على أربع ؟

لقد جمعت الدار أربعة أجيال وانها لسعيدة بذلك . فما كانت تلقى في
حياتها حفيدها الرابع .

تتمنى أقصى من أن تعيش لترى عفت قد أضحت زوجة وأما . وأن
يحقق القدر أمنيتها . ولكن بأى ثمن ؟

ان الثمن لو أخذه القدر حقا لكان فادحا ، أفدح من أن يحتمل .

لقد وضعت عفت ولدا ، حملوه اليها عقب ولادته مباشرة فبعث فيها
منظره فرحة شديدة . اذ كان أول ولد تنجبه العائلة . وسألتهم أن يسموه محمدا
كجده الكبير المرحوم زوجها .

ولم تطل فرحتها ، اذ ما لبثت أن أبصرت فى الوجوه تجهما . وأحست
فى الدار حركة قلق . ثم علمت أن حرارة الأم الصغيرة قد أرتفعت وأنها
محمومة متعبة .

وروعها النبأ ، وأحست كان مطرقة قد هوت على رأسها فدكتها دكا ،
ووجدت نفسها تتساءل كالمحمومة :

- أنرى القدر بنوى أن يكرر ضررته فيصيبها فى حفيدتها كما أصابها
فى ابنتها .

أى ذنب جنته لكى ينزل بها القدر ذلك القصاص العجيب ؟

فيحكم عليها بالحياة حتى تشاهد بعينيها مصرع أحب الناس إليها !

لا لا . ان القدر لا يجسر أن يعيد فعلته ، لئنه يؤخذها هي ، فما عاد بها رغبة في الحياة . وما أضحى لها نفع ولا فائدة ، ان من العجب أن ينرك عودها اندابل اليايس ليقطف هذه الزهرة النظرة الياينة .

لا لا ، هذا ليس معقولا .

ولكن ألم يفعلها القدر من قبل ؟ ألم يأخذ ابنتها بنفس الطريقة وفي نفس الظروف !

أجل أنها تذكر اليوم المشنوم تماما ، كان الوقت صيفا ، في مثل هذا الوقت ، أجل ، أجل انه كان شهر بؤونه ، والجو مسموم خانق والقيظ على أشده ، والنوافذ قد أغلقت انقاء لهبوب انشرد اللافح ، والدار قد خيمت عليها ظلمة وران عليها صمت لا يشوبه الا وقع أقدام تنسلل هنا وهناك ، وهمسات تنساب من الشفاء كالفحيح ، والأطباء قد احتشدوا في حجرة المريضة ، الحجرة المطللة على الناحية البحرية (نفس الحجرة التي ترقد فيها عفت الآن) وهي جالسة في حجرتها هذه ترتجف كريشة في مهب الريح وقد أخفت وجهها بين كفيها وانكشمت فوق الأريكة كأنها كوم حطام ، وبجوارها وقف زوجها يحاول أن يزيل مخاوفها ويبعث فيها الطمأنينة وهو أشد منها خوفا وأكثر انهيارا ، لا يكاد يتمم الا بجملة واحدة تتواتر على شفتيه :

- سليمة باذن الله ، سليمة ان شاء الله ، لطفك يارب ، رحمتك يارب .

ومن الصالة كان يصل اليها وقع أقدام زوج أبنتها ابراهيم وقد أخذ يغدو ويروح في قلق شديد وهو يهتف بحرارة داعيا من قبله بين آونة وأخرى « يارب » .

وأخيرا غادر الأطباء الغرفة وتحركوا مغادرين الدار وفي أعقابهم سار

ابراهيم ، وتحاملت هي على قدميها حتى حجرة ابنتها وجلست في سكون على حافة الفراش محاولة التجلد والتماسك .

كانت تحس بقلبيها يتفتت وهي ترى ابنتها وفلذة كبدها الشابة الجميلة القوية الصحيحة مسجاة على الفراش غائبة عن وعيها وقد انفرجت شفتاها وخرجت أنفاسها سريعة متلاحقة كأنها تعدو في سباق وعلى مقربة منها استقر فراش صغير كانت ترقد فيه المولودة الجديدة وقد راحت في سبات عميق .

وعاد ابراهيم بعد أن شبع الأطباء وقد بدأ مطرق الرأس مطاطيء الهامة . وأقبل زوجها عليه يسأله عما قال الأطباء . فهز رأسه ورفع كتفيه وأجاب في يأس .

- لقد قالوا انهم فعلوا كل ما في وسعهم ، وأن الباقي على الله .

ولم يصبها قوله بخيبة أو يأس ، فقد كانت تأمل في الله كثيرا وتعتقد جازمة أنه لن يخيب رجاءها .

ومضى اليوم والسكون مخيم وأهل الدار يتحركون كالأشباح وأقبل الليل فلم تترك فراش ابنتها بل استمرت جالسة بجوارها حانية عليها تتحسس وجهها الملهته بكفها وتدعو الله أن ينزل معجزته .

وغالبيتها النعاس فأسندت رأسها وهي جالسة على الوسادة ، ولم تشعر كم مر من الوقت وهي عطي حالتها تلك ؟ ولكنها استيقظت فجأة على نداء ابنتها وهي تهتف بها : « نينه .. نينه .. » .

وتملكها رجة وأجابت بصوت يذوب حنانا :

- نعم يا زينب .. نعم يا حبيبتى .

أريد أن أراها .. أريد أن أرى عفت .

- حاضر يا حبيبتى .. سأحضرها لك حالا .

وكانت الطفلة ترفد في الفراش الصغير فحملتها واقتربت منها بهدوء
ووضعتها بجوارها قائلة :

- بنت أمورة ، شبهك تمام .

- نيته . أريد أن تأخذى بالك منها جيدا يانينه ، سأذهب وأنا مطمئنة
لأنى سأتركها لك .

وأحست من قول ابنتها كأن يدا تعنصر قلبها ، وحاولت جهدها أن
تهدى عاصفة البكاء وتوقف سيل الدموع الذى يوشك أن ينهمر من مقلتيها ،
وقالت فى لهجة واثقة مطمئنة :

- لا تقولى هذا يازينب ، انك بخير ، وستشفين وتتمتعين بابنتك
وتربينها .

أنا أعلم بنفسى، قربيها منى ، دعنى أمسها بشفتى .

وكان هذا آخر ما فعلته ، لقد مست ابنتها بشفتيها ثم انطبقت شفتاها الى
الأبد .

وهكذا راحت البنية العزيزة ، لقد انسابت من بين يديها وتركتهما
حطاما ، لقد ذهبت أينع وأنضر ما تكون ، غير تاركة عزاء لهم سوى الطفلة
الصغيرة .

وتلقت الأم حفيدتها التى هبطت الى الحياة بلا أم ، فكانت لها خير أم .

ولم تكن تملك أن تكون غير ذلك ، فقد كان حبها للطفلة حبا غير
طبيعى ، اذ كانت تشعر أنها بقية حية من العزيزة الراحلة ، وكانت تذكر دائما
وصية ابنتها لها وقولها لها قبل أن ترحل « سأذهب مطمئنة لأنى سأتركها
لك » .

وكرست الجدة حياتها لخدمة حفيدتها ، فهى تذكرت كيف كانت تسهر

بها اللبالي ، ما حاولت مرة واحدة أن توكل أمرها لخادمة ، أو لقريبة من
الأقرباء .

كانت تشعر أن لحياتها قيمة من أجل الطفلة العزيزة ، كانت تكره لنفسها
المرض أو العجز خشية أن لاتجد عفت من يخدمها ، أو خشية أن يهمل الخدم
أمرها .

ومرت السنون ونمت الطفلة فأصبحت صبية يانعة ناضرة وكانت الجدة
تحس اذا ما رأتها بالرضا والغبطة ، وتشعر أنها قامت بواجبها نحوها خير
قيام .

وفى ذات يوم أصيبت العجوز بشلل أقعدها عن السير ، ووجدت نفسها
فجأة قعيدة الفراش لا تملك حراكا .

وتلقت المصاب بصبر جميل وحمدت الله لانها لم تصب به عندما كانت
عفت فى أشد الحاجة الى قوتها ورعايتها ، واستسلمت لقضاء الله راضية
ساكنة .

ومرت بها الأيام وهى قابعة فى فراشها ، عزأؤها الوحيد حب حفيدتها
لها وعطفها عليها ، كانت أحب الأوقات الى نفسها هى الأوقات التى تقضيها
عفت جالسة بجوارها على الفراش مرهفة سمعها لا قاصيصها الطريفة
ونوادرها المسلية ، وقد أسندت ذقنها الى كفاها ورننت اليها بعينها الصافيتين ،
وأخذت تستحثها من آن لآخر جملة التقليدية :

- وبعدين يانينية حصل ايه ؟

يا للعجب ! لقد كانت هى نفسها جملة أمها . حتى لقد كانت العجوز
تشعر فى كثير من الأحيان أن الجالسة أمامها هى الابنة وليست الحفيدة .

أجل . ان الزمن ما مر وما انقضى . وان زينب مازالت طفلة ترهف

أذنيها وترنو بعينيها . انها ما وضعت وما ماتت . لانها هي هي الجالسة أمامها .

لشدة ما كان الشبه شديدا بين الاثنتين . الابنة والحفيدة . حتى لقد كانت العجوز تخططيء في بعض الاحيان فتنادى الحفيدة باسم الابنة .

واستمرت السنون في كرها ونضجت الصبية وأصبحت فتاة رائعة الحسن مكتملة الأنوثة . ورحل زوجها الى ربه واكتهل ابراهيم وشاب ، وبدأت هي تشعر بالوهن والاضمحلال . وهد المرض قواها فأمست كومة عظام ملقاة في الفراش ، وأخذ يساورها الاحساس بقرب النهاية ، ولم تكن تتمنى شيئا قبل الرحيل أكثر من أن ترى حفيدتها عروسا تزف .

وفي ذات يوم أقبلت الفتاة عليها متهللة الأسارير مفرجة الثغر وأنبأتها في حياء مصطنع أنها قد خطبت .

وبعد بضع أسابيع تحققت أمنية العجوز ووقفت أمامها البنية الجميلة تختال في ثوب الزفاف رشيقة أنيقة مشرقة الوجه ممشوقة القد ، ووراءها عريسها يبسّم في هناء وغبطة وقد بدأ حلو التقاطيع فارغ القوام ، وأقبلا عليها يقبلان جبينها ويلتقيان تهنئتها ودعواتها .

وتم الزواج في هدوء وعاش العروسان في الدار ، ولم تشغل عفت بزوجها عن جدتها بل استمرت في رعايتها لها وعنايتها بها ، وكانت كثيرا ما تقضى الساعات الطويلة في مسامرتها وتسليتها .

ومر العام الأول من الزواج ، وحملت عفت وحن موعد الوضع ، ووقدت الطفلة العزيزة الحلوة استعدادا للولادة .

وساور العجوز وقتذاك خوف خفي حاولت جهدها أن تتخلص منه ، ولكن المشاعر كانت تضطرب في نفسها مختلطة متناقضة . كانت تذكر

برغمها ولادة ابنتها والجو الرهيب الذي أحاط بها والخاتمة المخيفة التي انتهت اليها ، وكانت لا تكاد تغفو حتى تصحو من نومها فزعة وهي تتوهم أن الحامل الراقدة هي ابنتها وأن ما يقع الآن ما هو الا تكرار لما حدث من قبل واعادة لنفس المأساة بنفاسيلها ودقائقها .

كان أكثر ما يخيفها هو فرط التشابه بين ما حدث وما يوشك أن يحدث . نفس الظروف ونفس الأمكنة ونفس الوقت ونفس الجو . لا فارق هناك بين الواقعتين الا أنها كانت في الأولى قوية نافعة تستطيع أن تشغل نفسها بالحركة والذهاب والاياب وتستطيع أن تجلس بجوار ابنتها فتمس جبينها بيدها أو تضمها اليها . كانت تستطيع على الأقل أن ترقب رحيل ابنتها وتسمع آخر كلماتها وتودعها الوداع الأخير ، أما الآن ، فماذا تستطيع أن تفعل سوى الرقود كالخرقة البالية ترقب السقف وتسكب الدمع وتهز الرأس في عجز ويأس .

ألا تستطيع حتى أن تراها وأن تودعها قبل الرحيل ؟

انها بالطبع لا تملك لها نفعا . وهي أعجز من أن تقوم لها بأتفه الخدمات . ومن الجنون أن تتخيل أنها تستطيع انقاذها من الموت . فهذه أشياء لا يملك الانسان لها ردا ، الانسان الصحيح القوى ، فما بالكم بانسان مثلها عاجز محطم .

ولكنها فقط تريد أن تراها ، ليتهم يرضون بأن يحملوها الى حجرة عفت .

حقيقة ان الطبيب الذي يعودها أمرها بالألا تتحرك من الفراش ولكن ألا يستطيعون أن يرفعوها بالفراش .

ثم ماذا يخشى عليها الطبيب ؟ ماذا يخشى على مشلولة عاجزة وهن العظم منها ؟ أيخشى عليها من الموت ؟

قاتله الله ، ألا يعلم أن في الموت خلاصها ، وأنها لو ماتت قبل الآن

لوفرت على نفسها مشقة مشاهدة موت حفيدتها .

ولكن لم لا تحاول هي الحركة ؟ ان المسألة تحتاج الى ارادة قوية وعزم

شديد .

أجل ، أجل ، يجب أن تجرب ، ولاشك أنها ستجيب .

ان الله سيعاوننا ، فهي لا تطلب شيئا كثيرا ، انها تريد أن تودع حفيدتها

قبل الرحيل .

وهكذا بدأت العجوز التجربة .

وشينا فشيئا ، أخذت تنزلق من الفراش حتى بلغت حافته ، وفجأة فقدت

توازنها وسقطت على الأرض سقطة شديدة أحست معها أن عظامها قد

تحطمت .

ومرت برهة قصيرة وهي راقدة في مكانها ككومة عظام ، ثم بدأت

تتمالك قواها وتعود الى وعيها ، وأخذت تحبو ببطء على يديها وركبتيها حتى

بلغت باب الحجرة وأخذت تعبر الصالة متجهة الى حجرة المريضة .

وأخيرا ، وبعد جهد شديد بلغت بابها ومدت رأسها في الحجرة أخذت

ترهف السمع وتطلع بعينيها كأنها كلب جريح .

وأحست بطمأنينة تفعم قلبها عندما بلغ مسامعها صوت أنفاس تتردد ،

لقد كانت تخشى أن تصل متأخرة ، ولكن حمداً لله أنها مازالت حية تنتفس .

واقتربت من الفراش ومدت يدها تتحسس حافته ، ثم أخذت تحاول

النهوض على ساقها حتى تقف بجوار الفراش .

وأحست بعجز شديد كأن جسدها يشد الى الأرض بأثقال لا قبل لها

برفعها ، وأخذت تنادى حفيدتها الراقدة بصوت ملؤه اللهفة والاستغاثة دون

أن تسمع منها سوى أنفاس تتردد بصعوبة .

واستمرت العجوز في ندادها المبحوح في اصرار والحاح كأنها مصممة
على أن تستعيد عفت من غيبوبتها وأن تسترجعها من الغياب التي توشك أن
تغيب وراءها .

أجل ، لا بد لها أن تودعها قبل الرحيل ، لقد قطعت كل هذه المسافة لكي
تسمع منها كلمة وداع ، فحرام أن تبخل بها عليها .

وتوقفت العجوز برهة عن النداء ثم رفعت وجهها الى أعلى وهتفت :

- يارب ، انى لا أطلب كثيرا ، أعدها لحظة واحدة ثم خذها ثانية .

وفجأة ارتجت عينا المريضة وارتعش جفناها ثم فتحا ببطء وبدت من
خلالها نظرة خابية لانكاد تميز من حولها شيئا .

وعادت العجوز نداءها الحار . فإذا بالغشاوة التي قد علت عيني
المريضة تنقشع وإذا بها توجه اليها بصرها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة
باهتة وأجابت بصوت خافت :

- نعم يائينة ؟

- ازيك يا حبيبتي ؟

- بخير يائينة .

- ان شاء الله بخير دائما .

- لم تجلسين على الأرض ؟ انهضى واجلسى بجوارى .

- لا أستطيع ، انى مشلولة عاجزة .

- بل تستطيعين ، سأمد يدي لمعاونتك ، اعتمدى عليها .

- انك مازلت ضعيفة ، كيف يمكنك معاونتى على النهوض ؟

- أنت أيضا كنت عاجزة ؟ ولكنك استطعت أن تستعيديني من الأغوار
السحيقة ، والدجاجير المعتمة التي كنت أهوى فيها ، ان القوة فى القلوب وفى

الرحمة الكبرى

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ .
« قرآن كريم »

كنت أعرف عنه شدة سخريته بالخرافات وعدم ايمانه بالخوارق والمعجزات ، فقد كان انسانا واقعيا لا يؤمن الا بالواقع والمنطق .
ضعني واياه مجلس ذات ليلة وجلسنا نتجادب أطراف الحديث ، فقال لي :

- كنت أعتقد أن العلم قد هزأ بالسحر وقضى عليه .. فلم يعد هناك ما يمكن أن يخفى على الذهن البشري ، حتى وقعت لي حادثة جعلتني أهز رأسي حيرة ودهشة .. وجعلت كل معلومات الطب التي حشوت بها رأسي تتضاءل وتتكمش .. وتهاوت تجاربي ، وخبرتي وقدرتي ، وحل محلها ايمان عميق أشبه بايمان العجايز ، بأنه اذا ألقى الطب سلاحه وسلم العقل بالهزيمة ، فذلك لا يمكن أن يعني اليأس .. لان هناك قوى خفية تستطيع أن تتدخل في النهاية ، فتقلب اليأس أملا ، وتفعل ما عجز عنه الذهن بطبه وعلاجه وأدويته

الايمان وفي العزائم وليست في العضلات أو الأذهان ، امسكى يدي وسأعاونك على النهوض كما عاونتني على العودة ، هيا اعتمدى علي .

ومدت العجوز يدها فوضعتها في يد المريضة ثم حاولت النهوض معتمدة عليها .

وفي هذه المرة أحست أن الأثقال قد فكت وأنها أصبحت خفيفة لا يشدها الي الأرض شيء .

وبمنتهى البساطة وجدت نفسها أخيرا واقفة على قدميها بجوار حفيدتها .

ووقف الأطباء في الصباح يقبلون البصر في المرأتين ، الحفيدة وقد هبطت حراراتها وعادت الي الحياة ، والعجوز ، وقد ذهب عنها الشلل بعد طول يأس .

وهز أحد الأطباء رأسه وقلب شفتيه وقال هامسا :
- كنت أومن بهذا دائما ، ان السماء مازالت بها أشياء تعجز أذهانتنا عن ادراك كنهها ، ان المعجزات لم تنته بعد .

وكل ما يملك من قوة مادية قوى وراء المادة ، قوى تكمن فى النفوس أو تشع من الأرواح أو تهبط من السماء أو ..

وتوقف عن الحديث ثم هز رأسه وهو ينظر الى ثم أردف يقول :

- لا تستطيع أن تصدق مثل هذا القول بسهولة .. حسنا .. خير لى أن أقص عليك القصة بحذافيرها .

ثم بدأ يروى قصته العجيبة قائلا :

- كنت أقطن فى مصر الجديدة ، وكانت تجاورنى فى المسكن أرملة تعيش وحيدة مع ابنها الكسيح المصاب بشلل الأطفال ، وقد تعودت أن أعوده من أن لآخر عبادة جار صديق ، ولم يكن هناك أمل فى شفائه .. فهو لم يقف على قدميه منذ أن ولد .. ولا أظن أنه كان يمكن أن يقف أو يسير حتى نهاية عمره . وكان هو وأمه يدركان ذلك .. فوطنا نفسيهما على الاستسلام للأمر الواقع ، وأخذا يقنعان على مر الأيام بحياتهما معا ، فهياً فيها ما استطاعا من متعة ، ويات كل منهما قريبا راضيا .. وضرب كلاهما مثلا على أن الحب والاخلاص والشجاعة والايامن يمكن أن تعين المرء على مواجهة أقصى ظروف الحياة وتحمل شدائدنا .

وكان الصبى - ويبلغ السادسة عشرة - مخلوقا هادئا لطيفا شديد الذكاء واسع الخيال .. ولم أكن أشك فى أنه يشعر فى كثير من الأحيان بالوحدة والحرمان .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل صبى من انطلاق فى الحياة ولعب مع الرفاق ومرح ولهو .. بل كنت واثقا كذلك ، أنه بعقله الراجح وذهنه المفكر يستطيع أن يحس مدى الحرمان الذى ينتظره فى غده .. الحرمان مما يمكن أن يتمتع به كل رجل من حب وزواج وأولاد .

وقد كان يحاول دائما أن يبدو أمامى مرحا سعيدا هائنا ، وأنه لا يابه اطلاقا لما هو فيه .. ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يكبت بين آونة وأخرى

بضع كلمات تتطلق من فمه لتفصح دخيلة نفسه .

قال لى الصبى وأنا أزوره ذات مرة :

- كان أقصى أمل لى يادكتور أن أصبح رحالة أجوب بقاع الأرض وأستكشف مجاهلها .

ولم أدر كيف أجيبه ، اذ كانت تلك آخر أمنية يجب أن تجول فى نفسه !

ورأيته يبتسم ويهز رأسه ويقول مستدركا :

- أنا أعرف أنها أمنية متعذرة وأن من المستحيل تحقيقها ، ولكنى مع ذلك أستعين على تحقيقها بالوهم . لقد أصبح لى ولع كبير بالخرائط .. أنظر ..

ثم مد يده الى منضدة بجواره عليها مجموعة من الكتب والأوراق ، وسحب ورقة مطوية أخذ فى نشرها أمامه قائلا :

- أنا لا أستطيع السير .. ولكنى أستطيع وأنا راقد فى فراشى أن أذهب حينما شئت فى غمضة عين أو فى لمح البرق كأنى أمتطى بساط الريح ، لقد بدأت أولى جولاتى فى القاهرة .. أنظر الخريطة .. انى هذا الآن ، هذه هى مصر الجديدة .

ووضع طرف قلم فى يده على نقطة فى الخريطة ، ثم استرسل يقول :

- هذا هو طريق الخليفة المأمون ، وهذا هو شارع المنكة المؤدى الى المحطة . لقد كانت أول رحلة لى فى القاهرة الى القلعة .. لقد سرت بعد ذلك الى الأوبرا بالعتبة فشارع محمد على حتى وصلت الى هذه المنطقة .. هذا هو جامع السلطان حسن وعلى الحائب الآخر يقوم جامع الرفاعى .. أنظر ، هذه هى صورتيهما ..

ثم مد يده الى المنضدة فأخرج بضع صور وأردف يقول .

- هذا هو جامع السلطان حسن ، أكبر جامع من نوعه ، بنى فى عهد المماليك وكان يستعمل مدرسة وجامعا .. لقد قرأت عنه فى بعض كتب التاريخ ، لم أمكث به كثيرا ثم عاودت السير فى طريقى صاعدا الى القلعة .. هذه هى صورة جامع محمد على ، ومن فوق القلعة وقفت أطل على القاهرة .. أنظر ، ما هو منظر القاهرة من القلعة .

ثم أخذ يعرض على الصور واحدة واحدة ويرينى طريق عودته وقد رسمه على الخريطة بالقلم الأحمر .

وهكذا بدأ الصبى رحلته الوهمية مسعينا بالخرائط والصور والكتب وسعة الخيال والقدرة العجيبة على العيش فى أحلام اليقظة .. وتعدت بعد ذلك فى كل مرة أزوره ، أن أجلس بجواره ليشرح لى آخر رحلاته التى يقوم بها على بساط الريح ، أو على بساط الوهم وأجنحة الخيال ..

ووتقت الأيام أواصر الصداقة بيننا ، وأصبح الصبى يركن الى ويمنحنى كل ثقته ولا يخفى عنى شيئا من مشاعره وأحاسيسه .. ولم أشك أنه سعيد برحلته وأنها قد بددت الكثير من الوحشة والسامة التى كانت تكتنفه فى وحدته .

وانتهت رحلاته فى القاهرة وبدأ بعد ذلك جولاته فى مختلف بلدان القطر . يوما فى الاسكندرية ويوما فى الأقصر وآخر فى الغردقة ورابعا فى أسوان .

وتعدت أن أبادله النكات والمزاح .

قلت له ذات يوم وقد دخلت عليه فوجدته منهمكا فى فحص احدى خرائط الواحات :

- كنت على الشاطئ ولا شك ، فقد لوحث الشمس وجهك ! أحمذر أن يسلمخ جلدك .. يوجد نوع من الكريم يغير الجلد .. سأكتب لك اسمه .

- لقد ذهبت الى عيون ، السخنة ، قرب السويس ، هل ذهبت الى هناك ؟ انها مدهشة ! تصور ماء ساخنا ينبع من باطن الأرض ، وعلى بعد خطوات يتراى البحر أمامك وتقوم الجبال الشاهقة خلفك .. لقد كان منظرا رائعا .. هل تصدق انى لم أشأ الرحيل عن الطريق المرصوف بل فضلت المدق الصحراوى بين الجبال ؟ انى أحب المغامرة .

- ترى أين ستكون رحلتك القادمة ؟

- جولة بين الواحات فى الصحراء الغربية .. هذه منطقة ما زال بها الكثير من المجاهل .

- اذن لا تنس أن تأخذنى معك فى احدى جولاتك فاننى فى حاجة الى تغيير الهواء .

- هذه رحلات تحتاج الى قوة تحمل .. خير لك أن تنتظر حتى أبدأ جولاتى الساحلية .

وفى الزيارة التالية بادرنى بصيحة فرح قائلا :

- هنئنى !

- علام ؟

- أوشكت أن أكتشف واحة جديدة .. لقد ذهبت الى الواحات البحرية كانت رحلة شاقفة متعبة وخاصة فى تلك المنطقة المسماة ببحر الرمال .. اسم على مسمى ، فرماله مغرفة خطيرة .. وقد حاولت الذهاب من البحرية الى سيوة ، ان المنفذ الوحيد هو النقب رقم ١٣ .. وهو معمر شديد الوعورة ، ولكن اجتيازه ليس بالأمر المستحيل ، ولقد اجتزته فعلا .. وبدأت سيرى بين الرمال على طريق القوافل القديم المؤدى الى سيوة ، ولكنى توقفت فى هذه البقعة .. أنظر .

ووضع طرف القلم على نقطة بالخريطة المنشورة أمامه ، ثم اردف

يقول :

- هذه النقطة هي تقاطع الطريق السائر شمالا الى المغرة ، انه طريق قديم لم يستعمل منذ مئات السنين .. هل تصدق اننى سرت فيه ؟ لقد كانت مخاطرة ، وخاصة انى أعتقد أن هذه الرمال المرسومة لابد قد انتقلت من محلها . وقد سرت فى الطريق حتى بلغت هذه النقطة .. انها تبدو منخفضة عما حولها .. وأنا واثق انى لو سرت الى اليسار قليلا فلا شك انى سأعثر على آثار ماء ، والا من أين كانت القوافل السائرة تستقى ؟

وهزرت رأسى فى حيرة ، ولم تكن لى أية فكرة عن القوافل أو الواحات ، وما كان يهمنى قط أن أعرف من أين كانت تستقى ، ولكن لم أجد بدا من الموافقة قائلا :

- أجل ، لابد أن يكون هناك ماء كما تقول ، والا كان من أين يستقى ؟ هذا اكتشاف لو تم فانك تستحق أن تخلد به اسمك ، تهاننى الحارة ! ..

ومددت يدى أشد بها على يده ، وبدت عليه أبلغ آيات السرور والفرح .

ولست أنكر كم مر على هذا الحادث ، ولكن أغلب الظن أنه لم يمض أكثر من أسبوع عندما سمعت طرقات على الباب ، وانطبيب كما تعرف عرضة لهذه الطرقات الطارئة فى أى وقت ، فهى تعنى دائما أحد أمرين : حياة نجل ، أو حياة ترحل ، انسان فى الطريق الى الدنيا أو آخر فى الطريق الى الآخرة .

وفتحت الباب فى عجلة فوجدت الطارق أم الصبى وقد بدا عليها اضطراب شديد وأمسكت بنراعى فى لهفة شديدة ثم أخذت تجذبني الى الخارج لاهة :

- أرجوك يادكتور ، أعثنى .

- ماذا حدث ؟ ماذا جرى له ؟ حادثة ؟ هل فعل بنفسه شيئا ؟

- لا أعرف انه ملقى فى فراشه كالخرقة البالية وقد احتقن وجهه وأخذ العرق يتصبب منه .

وسرعان ما ارتديت ملابسى وعدوت وراءها وأنا أسألها فى دهش شديد :

- لا أستطيع أن أفهم ، اشرح لى ما حدث .

- لقد كان على أن أترك الدار برهة لقضاء بعض الضروريات وغادرته فى مكانه بين خرائطه وكتبه قريرا هانئا صحيحا معافى ، وانى لآكره أن أتركه وحيدا ، ولكن لابد لى من أن لآخر من الخروج لشراء بعض اللوازم أو لكى أصرف المعاش فى أول كل شهر ، وقد تركت له قبل أن أخرج « ترمسا » مليئا بالشاى وعلبة من الشيكولاته وأخرى من البسكويت ، وعندما عدت ..

ثم اندفعت تتشج باكية ، وضاعت كلماتها وسط زوبعة البكاء التى عصفت بها ، وأخذت أهنئها قائلا .

- أرجوك أن تهئنى ، خبرينى ماذا وجدت عندما عدت ؟ ان أقوالك ستساعدنى كثيرا .

وتماكت المرأة بعض الشيء وعادت تقول فى صوت متهدج :

- عندما عدت ، ذهبت اليه رأسا فوجدته قد استلقى على ظهره كما تعود أن يفعل دائما عندما يرغب فى أن يستريح ، ولكن الذى استرعى انتباهى أمر غريب ، لقد وجدت علبتى الشيكولاته والبسكويت - وهما علبتان كبيرتان لم يؤخذ منهما شيء من قبل فارغتين ، ولم أجد بالترمس الملىء بالشاى قطرة واحدة . لقد أتى عليهما جميعا ، وهو الذى لم يعود أن يتناول أكثر من بضع قطع من البسكويت أو الشيكولاته تعد على الأصابع مع فنجان من الشاى ،

ووجدت كذلك أن بضعة ساندويتشات (كانت موضوعة على المنضدة) قد اختفت ، وتملكنى العجب وصحت به فى دهشة :
- كيف أكلت كل هذا ؟ لقد أصبحت غولا فجأة .

ولكنه لم يجب ، وأخذت أقترب من الفراش وقد ظننت أنه مستغرق فى النوم ونظرت إليه .

ومرة أخرى اندفعت فى بكاء عنيف ، وأخذ جسدها يهتز من قمة رأسها الى أخصص قدميها حتى بت أخشى أن يكون الصبى قد مات .

وبلغنا دارها ودلفت من الباب وسمعتها تهمس فى صوت مبجوح :
- لقد رأيت وجهه أحمر ملتها ، كأنما قد سار فى الشمس بضع ساعات .

غير معقول ، ان الصبى لا يمكنه السير فى الشمس ، ولا يمكن كذلك أن تكون الشمس قد أصابته من خلال النافذة . فقد كان اليوم كثير السحب لا تكاد الشمس تظهر من خلف سحابة الالنتوارى وراء أخرى . وأجبت المرأة فى صوت خافت :

- مستحيل ، انى له بالشمس لابد أن تكحونى واهمة .
- كلا ، أنا واثقة مما اقله .

لابأس ، سأفحصه الآن ، وأرجو أن تطمأنى ، فالمسألة لا يمكن أن تكون أكثر من انفلونزا بسيطة .

ورأيت الصبى ، وكانت أمه على حق .

هل تدرون ماذا يحدث للانسان عندما يتعرض مرة واحدة للشمس ويستمر معرضا لها مدة طويلة هل تدرون ما يحدث لجلودنا عادة فى البلاج من احمرار شديد والتهاب حتى تبدو كأنها محروقة .

لقد كان وجه الصبى ويدا وكل ما تعرض من جسده قد أصيب بضربة شمس شديدة خطيرة .

ترى كيف يصاب مثله « بلطشة شمس » .

ولم أجسر على اظهار دهشتى أمام الأم حتى لا أزيد فى فجيعتها وكان على أن أقول شيئا على سبيل الخداع وبعث الطمأنينة فقلت :

- المسألة بسيطة جدا ، هذه حالة طارئة سرعان ما تزول ، وهى كثيرا ما تحدث نتيجة لتقلبات الجو .

وكان هذا القول هو ما استطاع ذهنى أن يدبره فى ذلك الوقت الحرج .

وأخذت أعالج الصبى وأجرى نه الاسعافات اللازمة على اعتبار أنها « لطشة » شمس عنيفة . فقد كنت واثقا من أعراضها ، وان كنت واثقا كذلك من أن الصبى لا يمكن أن يصاب بضربة شمس لأن الشمس ليس لها سبيل إليه ، وليس له كذلك سبيل إليها .

ولم يفق الصبى من اغمائه فى ذلك اليوم ، ولكنه فى اليوم التالى تحسنت حاله ، وزالت الخطورة التى كانت تهدده ، وبدأ يتكلم :

وكان أول ما قاله هو أن قص على القصة بحذافيرها بمجرد أن اصبحنا على حدة .

فقال الصبى :

- لم أستطع أن أخبر أمى فهى لن تصدق ، ولكنك تعلم كل شىء وتستطيع أن تفهمنى جيدا .

ومد يده الى المنضدة فجذب احدى الخرائط ثم أمسك بالقلم وأخذ يحركه عليها برهة حتى وصل الى نقطة بها ، فثبت حرف القلم عليها وقال :

- هنا ، كنت أعلم أنهما هنا في هذه البقعة ، هل سمعت عن الرحالتين اللذين أعلنت الصحف عن فقدهما منذ بضعة أيام لقد كنت أقرأ أخبارهما أولاً بأول ، وكنت أتتبع رحلتهما في الصحراء على الخريطة ، ولا يمكنك أن تتصور الانزعاج الذي أصابني عندما قرأت أنهما ضللا طريقهما في الصحراء وأنهما قد باتا في عداد المفقودين ..

وهزرت رأسي ثم أمنت على حديث قائلا :

- أجل ، كان خبرا مزعجا حقا ، ولقد أسفنا كلنا لهما .
ورد على الصبي في حدة قائلا :

لم يكن ما أصابني مجرد أسف ، لقد كنت أحس أن مصابهما مصابي ، فهما زميلاي ، لقد روعني فقدهما وأحسست أن من الجبن أن أتركهما كذلك يترديان في هاوية الموت دون أن أحاول أن أمد اليهما يد المساعدة ، وعلى ذلك فقد صممت على أن ..

وتردد برهة ، وكان على أن أجاريه في كل ما يقول ، فقلت أستحثة :
استمر ، لقد كان هذا التفكير منك دليلا على المروءة والشجاعة .

- أجل ، صممت على انقاذهما ، فلم تكذ أمتي تغادر الدار حتى أمسكت الخريطة وأخذت أفحصها جيدا ، ثم عقدت النية على ألا أعود حتى أبغلهما .

- مدهش .

- لقد كنت دائما ياسيدي أشعر بالعجز وأنا جالس هنا في مكاني ، وكان أكثر ما يحز في نفسي شعوري أنني انسان بلا فائدة ، وعلى ذلك فقد تملكنتي النشوة عندما أحسست أنني أوشك أن أفعل شيئا وإن أكون انسانا ذا فائدة ، وأخذت أحرم علبتي الشيكولاتة والبسكويت والساندويتش والترمس ، وهو كل ما أمكن أن تصل إليه يدي . وما أمكنني كذلك أن أحمله في هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، وبدأت الرحلة ، متتبعا الطريق بقلمى في تأن وتؤدة خشية أن أضل

الطريق أنا الآخر ، فلا أستطيع أن أمد لهما يد المعونة وأخذت في السير ، رويدا رويدا .. بدأت أحس لسعة الشمس ، ووحشة الطريق ، ومع ذلك فلم يكن بي أثر الخوف أو رهبة ، فقد كنت أحس أنني مخلوق على قيد الحياة وأنتى رجل .

- لقد كنت دائما مخلوقا شجاعا وكنت رجلا على الدوام .

- أجل ، كنت أحاول أن أبدو كذلك ، ولكنك لم تكن تراني وأنا أرقد في الليل وحيدا ، أسكب الدمع في صمت على الوسادة ، فقد كنت أحس أنني رمة بالية ، أما بالأمس ، فقد كنت مخلوقا آخر ، كنت كتلة أعصاب حية متحفزة متوثبة ، كنت أريد أن أصل الى الزميلين الضالين وأنقذ حياتهما ، فلم يوقفني حر شمس ولا عصف ريح .

وأقول الحق أنني لم أكن أعرف كيف أحل حالة الصبي . لقد كان مخلصا في قوله كل الاخلاص ولقد رأيت بنفسى آثار الشمس على وجهه وجسده ، ومع ذلك فلم أحاول أن أتخلى عن منطق العلم ولم أدع لنفسي فرصة الاعتقاد بأشياء فوق طاقة الذهن البشرى ، ووجدتني أتشوق بيني وبين نفسي ببعض اصطلاحات علم النفس وأرجح حالة الصبي الى احدهما

أجل . أن الامر لا يعدو أن يكون احدي الحالتين : اما الايحاء الذاتي ، أو التنويم النفسى .

هذا ما قلته لنفسى ، أما الطفل فقد قلت له مبدئيا تصديق كل ما قاله :

- وهل وصلت اليهما ؟

فاطرق برأسه وأجاب :

- أجل ، بعد أن كدت أياس من الوصول وبعد أن أنهكتني السير وأحرقت الشمس وجهي وذراعي . ولقد وصلت في اللحظة الأخيرة اذ وجدتهما في الرمق الأخير ، وكذلك كنت . ولا أستطيع أن أنكر ما حدث بعد ذلك ...

وصمت صاحبي الطيب لحظة ، ثم أردف قائلا :

- هذا هو ما حدث للصبي .

وأجبت في دهشة شديدة :

- عجبا ! انه أمر خارق !

- لم يكن هذا وحده هو الشيء الخارق ، فقد أنقذ الرحالتين كما تعلم

مما نشرته الصحف ، إذ أرسلت حملة تفتيش للبحث عنهما ، وقد نجحت في العثور عليهما ووجدتهما في حالة اعياء بالغ وقد استلقيا في حالة أقرب الى الموت . وعندما تكلم أحدهما كان أول ما قاله لمن حوله : « أين الصبي الصغير ؟ » ودهش الجميع وسألوه عما يعنى ، فأجاب بأنهم لم يكونوا أول من أتى اليهما ، فقد سبقهم في الوصول الى مكانهما صبي يحمل علبتين من الشيكولاتة والبسكويت وبضعة سندويشات وترمس ملء بالشاي ، ولقد وجدتهما على وشك الهلاك فأعطاهما ما يحمل ثم اختفى ، ولولا ما حمله اليهما لما استطاعا العيش حتى هذه اللحظة .

- مدهش .. انه حقا أمر خارق ، انها معجزة !

- بقي أمر خارق آخر .. أو معجزة ثالثة .. لقد بدأت أرقب الصبي

جيدا خشية أن يتكرر ما حدث له ، أتذكر أني قلت لك انه لم يكن هناك أمل قط في أن يقف على قدميه . هذه مسألة لا تحتاج الى مناقشة ، فقد سلم الطب بعجزه فيها ، وكان شفاؤها مستحيلا الا بمعجزة من السماء ، أو بقوة خارقة . القوة التي قلت لك انها تكمن وراء الماديات . حسنا . لقد حدثت المعجزة ، وشفى الصبي ، فان اطرافه بدأت تتماسك بعد تلك الحادثة . كما سرت الحياة في أعضائه المسترخية رويدا رويدا ، وأخذت تقوى وتشدت وبدأ الصبي يسير في حجرته ثم أخذ يبرزه في الحديقة كأى سليم معافى .

عجبا ! كيف يمكن أن يحدث مثل هذا ؟ لو سمعته من انسان آخر غير

صاحبي لقلت حديث خرافة وقول هراء ! أما منه فلا أظن هناك شك في صحته .

وأخذت القصة تدور في ذهني . حتى وجدتنى أسأله فجأة على سبيل الاستطلاع :

- وماذا فعل الصبي بعد ذلك ؟ هل أصبح رحالة كما كان يود أن يكون ؟ هل قام بالرحلات التي كان يقوم بها على بساط الريح ؟

- رحلة واحدة فقط . كانت الأولى والأخيرة ، لقد ذهب ليركب المترو في أول مرة غادر فيها الدار ، فزلت قدمه وهوى تحت العجلات ، وذهب في رحلة طويلة لم يعد منها حتى الآن !

لقد كانت تلك هي رحلته الكبرى . في غمضة عين صعد الى السماء . بلا خريطة ولا قلم ولا بساط ريح .

عُرْوَةُ الشَّاهِدِ

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْواتٌ بل أحياء ولكن لا يشعرون ﴾
« قرآن كريم »

أنا يا أخى غريب بينكم ، غريب عن دارى ، غريب عن وطنى .
كم نقت إلى العودة اليكم ، وكم هفت نفسى إلى جلسة بينكم .
كم حننت إلى الدور المضيفة ، والطرفات الصاخبة ، والحوانيت
المزدحمة ، والعربات والمركبات ، والملاهى والمسارح .
كم نقت إلى أضواء المدينة ، وضجيجها وعجيبها .
بين رائحة البارود ، وثرات الغبار المثار ، كان أنفى يتلهف على رائحة
بتضوع عبيرها ويفوح . وبين حلقة الخنادق . وصفرة الرمال ، كانت عيني
تهفو إلى لون يزهو أو نور يضىء .
كانت بنا لهفة اذ نخوض المواقع على الأهل والأوطان ، وكان الحنين
بعاودنا بين الفنية والفنية ، يخبو بين جوانحنا برهة ثم يتأجج ، يخمده دوى
المدافع ، وزئير المعركة ، فاذا ما هدأ الدوى وخفت الزئير استيقظ الشوق فى
الحنايا ، واستعر الحنين .

وهكذا مرة أخرى عادت بي الطائرة .. وبى نفس اللهفة ونفس الشوق
بل أشد كثيرا .

كنت أريد أن أستبق الزمن . كنت أريد أن أصل اليكم واتخذ مكانى
بينهم وأشد أزهم وأعينهم فى قتالهم .

وهبطت الطائرة بنا ، وسارت العربة تحملنى الى مقر كنييتى فى
المواقع الأمامية ، وأنا أستحث السائق لكى نصل فى أقصر وقت مستطاع .

وأسرع السائق جهده ، ولكننا مع ذلك لم نصل !

ان القدر فوق الجهد ، ولقد أبى علينا الا أن نقف فى منتصف الطريق ،
بعد أن علمنا أن الطريق الى الكتيبة قد قطع ، وأنها قد حوصرت مع بقية قوات
الغالوجة وعراق المنشية .

وعدت أتراجى كسير النفس ، مهموم القلب ، واستقر بى المقام فى
مقر الرياسة ، وبدأت تتواتر علينا أنباء القوات المحاصرة ، فتثير فى نفوسنا
حماسا واطمئنانا ونشوة ، وأدركت أن نسور الطير لا خوف عليها من بغائه !

كانت الروح المعنوية لجنودنا هناك فى الذروة حتى لقد أحسست بالدمع
يترقق فى عيني تأثيرا بعزمهم الحديدى واستبسالهم فى القتال والاحتفاظ
بمواقعهم سليمة ، رغم توالى الهجمات عليهم من الأعداء ...

وكرهت لنفسى أن أبقي بعيدا عنهم وأن تحرمنى الظروف من مشاركة
جنودى خوض غمار معاركهم .

ومرت الأيام .. وفى كل يوم يقوى العزم ويشد الايمان .. وتزداد بى
اللهفة الى العودة الى مركز الأبطال ومأوى الصناديد .

كنت كالتائه الضال ، المنفى عن موطنه وأهله وخلانه . ولم يكن هناك

وسمحت الظروف بفترة راحة وحملتنى الطائرة اليكم فى أجازة
قصيرة . وكنت أحس من فرط الشوق أن الطائرة تتلكأ فى الجو وتتسكع بين
السحب ، ووددت لو استطعت أن أضاعف سرعتها .

وأخيرا لاحت لى القاهرة من الجو ، وبنت لى المزارع القائمة على
أطرافها منتظمة منمقة كأنها مرسومة بالمسطرة . والدور والطرق
والعريبات كأنها لعب الأطفال .

كانت المرة الأولى التى أعود فيها منذ بدأت الحرب وكان بى احساس
نهم يجلس الى مائدة حاكلة ، فهو فى حيرة بين أنواع الصحاف الشهية . وكانت
المدينة تبدو من حولى وكأن غيبتى عنها لم تكن شهورا معدودة ، بل أعواما .
ومضى يوم ، ثم يومان وأنا بينكم فى نشوة الغريب العائد . ثم تبدل
الحال فجأة فاذا بى قد أضحيت وأنا بينكم غريبا من جديد !

لقد نقضت الهدنة وبدأ اليهود هجومهم الغادر متسللين الى خطوطنا ،
وحاولوا قطع مواصلنا . واستعر أوار المعركة من جديد . كيف يغمض لى
جفن أو يهدأ لى مضجع وأنا بعيد عن جنودى وهم يقاتلون فى الميدان ؟
صدقنى يا أخى . لقد نسيت أضواءكم ، وعطوركم ، وضجيجكم ونسيت
شوقى اليكم وحنينى لكم . وبت أتوق الى رائحة البارود وحنكة الخنادق
وصفرة الرمال .

بى حنين الى القتال والدوى والضرب . بى رغبة جارفة فى أن أشارك
جنودى استبسالهم فى الهجوم ، وصلابتهم فى الدفاع . ان دراهم دارى ،
ومضجهم مضجعى . أنا يا أخى غريب بينكم ، فأهلى هناك فى حومة الوعى
رابضين كالأسود أو واثبين كالفهود !

أى جنودى الأعزاء : انى قائم اليكم !

من وسيلة للعودة . حتى دعت الحاجة ذات يوم الى اتصالنا المباشر بهم واستقر رأى القيادة على أن يقوم بهذه المهمة ضابطان منا يخترقان نطاق الحصار ويصلان الى القوات الباسلة المستميتة في الدفاع .

ولم تكن المهمة بالسهلة الهينة ، بل كانت مجازفة خطيرة . وسئل الضباط : من منهم يريد التطوع للقيام بها ، فتطوعوا جميعا . فاضطر القائد الى أن يجرى قرعة بينهم لاختيار اثنين منهم .

ونظرت الى القائد قبل أن يبدأ الاقتراع وقلت له في اصرار :

- لن اشترك في الاقتراع .

ورفع حاجبيه في دهشة وتساءل :

- ألا تريد الذهاب ؟

- بل أريد ، ولن ، اشترك في الاقتراع .. لأنى لا أطيق أن أحرَم من الذهاب . لقد كان يجب أن أكون معهم لولا تلك الاجازة المنحوسة التى أبعثتني عنهم . انى أشعر بأنى غريب بينكم ، فذهابى اليهم لن يكون سوى عودة غريب الى ذويه !

ونظر القائد الى من حوله مستشيرا ، ولكنى أردفت مؤكدا قبل أن ينبس أحدهم ببنت شفة :

- سيدى ، انى أريد الذهاب .

وضحك القائد ثم أجرى الاقتراع لاختيار ضابط يتولى القيام بتلك المهمة .

★ ★ ★

سكون سائد وصمت عميق ، وليل كموج البحر أرخى سدوله ، وسماء ترتجف فيها النجوم وجلة خائفة ، وصحراء امتدت فيها الربى والوهاد ، وبدأ

كل ما فيها قفرا فى قفر .. لا تسمع فيها لاغية ، ولا يسرى فيها من علامات الحياة الا بضعة أشباح تطوى الغلاة كأنها الذئاب .

كنت وصاحبى قد تسللنا من المعسكر تحت ستر الظلام وسرنا مطرقين . صامتين . تتبعنا دابتان تحملان الذخائر والمؤن ونطرقان الحصى بجوارها .

كنت فرحا بالعودة الى رفاقى ولكنها كانت فرحة كبتتها رهبة الليل والقفر والخطر المجهول الذى يمكن وراء كل ربوة ومن كل صوت وفى كل شبح .

كنت أدرك تماما المصير الذى سنتردى فيه لو وقعنا فى يد العدو .

وطال بنا السير ، وبدأ صقيع الليل ينفذ الى عظامنا ، وتوترت أعصابنا من طول الارهاق والانصات ، كنا نتوهم فى كل عشب كميننا ، ونخيل خلف كل ربوة ثلة من العدو تنتأهب للانقضاض علينا . وكنا نبصر فى الأفق المظلم أشباحا تروح وتغدو .

وتبادلنا بضع كلمات نقطع بها ذلك الصمت الطويل ونفرض بها عن نفسينا تلك الرهبة الجاثمة .

ولكن الكلمات خرجت من فمينا ثقيلة فاترة ، فيدها السكون المحيط قبل أن تبدد هى السكون ! وسرعان ما غرقنا فى الصمت مرة أخرى . وفجأة مزق السكون صوت رصاصة تدوى وتتر . وأعقبها صيحة أتت من قمة على بعد مسائلة .. ثم عاد السكون فطوى الدوى وأخمد الصباح .

وانطرحت وصاحبى أرضا مصويين مدفعى التومى الى مصدر الصوت وكتمنا أنفاسنا منتظرين .

ولم تمض لحظة حتى عادت صيحة العدو تشق السكون مرة أخرى ..

ثم أعقبها بعد ذلك وابل من الرصاص تناثر حولنا .

جرح في كنفه .. ولكن أنفاسه مازالت تتردد خافتة متقطعة .. لقد كان على قيد الحياة .

ولم نجد بدأ من أن نجابوب الطلقات للدفاع عن أنفسنا وأخذنا نرحف حتى وصلنا الى ثنية قريبة أخفينا الدابتين وراها وأخذنا نطلق النيران من وراء حافظها .

وسحبت جسده ببطء وسكون ، وأخذت أزحف به حتى توأرينا وراء كومة من الأعشاب .. وانتظرت فترة أخرى حتى آمن شر العدو ثم رفعت جسده فوضعت على ظهر احدى الدواب وبدأت السير فى حذر ، حتى ابتعدت عن المنطقة التى حدث فيها القتال .

واستمرت الطلقات تدوى وتترز ، تصوب فى حلقة الليل من مجهول الى مجهول . ثم سمعنا صرخة تحملها الريح الينا خافتة مكتومة ، وسكت أحد المدافع التى كانت تصلينا بنيرانها .

وهكذا عاودت السير وصاحبى الجريح ملقى على ظهر الدابة منهك القوى فاقد الوعي ، حتى وصلت أخيرا الى مواقعنا ، وصلت وحدى ، فلم يبقى من صاحبى الا حثة هامدة .

ولم تمض فترة قصيرة .. حتى سقطت قذيفة على مقربة منى ، وأحسست بقلبي ينعصر فى جوفى ، وبأصابعى تجمد على مقبض المدفع .

ولم يكن بى وقتذاك من الأحاسيس ، سوى احساس واحد . لقد تبدد من قلبي الفرج ، وتبددت الرهبة ، وكبت الحزن على صاحبى ، ولم يعد يصطخب فى نفسى سوى الرغبة فى الثأر !

لقد استشهد زميلى الوحيد !
وسرت فى جسدى رعدة وأنا أرى رأسه تتهاوى على الرمال على أتى ما لبثت بحركة غير ارادية أن مددت يدي اليسرى فقبضت على مدفعه .. وعاودت اطلاقه ، حتى لا يدرك العدو أنه أصابنا بأية خسارة .

كان جوفى يغل بالغضب ، وكنت أود أن أنطلق بين الأعداء فلا أتركهم سوى أشلاء مهشمة .

ووجدت ذهنى يفكر فى سرعة ماذا يحدث لو أصبت أنا الآخر ؟ ماذا أبغى من استمرارى فى القتال بعد أن أصيب صاحبى ؟

وتلقانى صوت حبيب الى نفسى يهتف بى :
قف ، « من أنت ؟ » .
وناديت الحارس باسمه ، ونكرت له اسمى ، فهتف مرحبا فى دهشة وذهول ، وسألنى التقدم .

ان مهمتنا ليست الاشتباك مع العدو ، ولكن مهمتنا الاولى هى أن نصل الى قواتنا . ورفعت يدي عن مدفع صاحبى ومضيت أطلق مدفعى برهة . ثم صحت فجأة صيحة مدوية .. كأنما قد أصابتنى احدى طلقات العدو ، وكففت عن اطلاق النار .

وأنزلت بينهم جثة صاحبى لأوسدها الثرى ورأيت وجهه تشيع فيه علامات الرضا والهدوء ، وأحسست أتى فعلت من أجله شيئا ، انه يستطيع أن يرقد بيننا ، وأن يوسد مثواه الأخير بأيدينا .

ومضت فترة من الوقت .. ورصاص العدو يدوى من حولى نون أن يجد ما يجاوبه .. فاعتقد أنه قد قضى علينا وكف عن الضرب .

ووقفت بين رجالى وقد أحسست بالطمأنينة والأمن ، وشعرت بالثقة

وكان أول ما فعنته أن فحصت صاحبى ، فوجدت الدماء تنزف من

ملء نفسي ، وكأنى قد ملكت أقوى أسلحة العالم وأشدّها فتكا .

وشاع بين الرجال نبأ مجيئى فسرت فيهم موجة فرح ، وكان الوقت حينئذ قبيل الفجر . وتوجهت الى رياسة الكتيبة لأبلغ قائدها نبأ مجيئى ، ولأنلقى منه التعليمات .

ووصلت اليه وقد انتهى من صلاة الفجر ، فتلقانى بترحيب تشوبه الدهشة واللهفة والشوق ، ورويت له ما حدث .. فأمرنى بأن أذهب لأخذ نصيبي من النوم والراحة .

وغادرت القائد متجها الى مقر سريتى ، ولكنى لم أكد أتقدم خطوة حتى سمعت دويبا شديدا وانهاى على مواقعنا سيل من قذائف الهاون المدفعية . ان العدو لا شك قد نوى هجوما . وهو يمهّد له بقذائفه .

وتسمرت فى مكانى برهة ، ثم وجدتنى أضغط على أضراسى فى غيظ شديد ، ثم عدوت الى موقع سريتى .

لا ضرورة الآن للنوم أو الراحة .

واتخذت موقعى بين الرجال فى أحد الخنادق ، واستمرت القذائف تنهال من حولنا ، وأحسست فى نفسى برغبة وحشية فى القتال . تلك هى فرصة الثأر لصاحبى الذى لم يهدأ بعد فى مرقده .

وأخذنا ننتظر . وأنا أدعو الله أن يكون العدو ينوى الهجوم فعلا ، وألا تكون قذائفه لمحض الازعاج .

وفجأة أحسست بفرحة شديدة تسرى فى جوانحى .
حمدا لله ، لقد بدأ الهجوم !

وكان أول ما فعلت . أن أعطيت أمرا للجنود ألا يطلق أحدهم طلقة

واحدة مهما اقترب العدو منهم . حتى أمرهم بذلك .

ثم بدأت أرقب وأنتظر .. أخذ العدو يقترب ، وجنوده يتسللون الى مانع الأسلاك الشائكة المحيط بمواقعنا . ثم أخذوا يعملون فى احداث ثغرة به لكى ينفذوا من خلاله .

وأتم العدو فتح الثغرة وجنودنا رابضون فى مواقعهم لا يتبدو منهم أقل حركة . وساد الربى السكون كأنها خاوية على عروشها حتى خيل الى أنى أكاد أسمع صوت أنفاسهم .

وازدادت أعصابى توترا ، ووجدتى أقرأ الفاتحة وأدعو الله أن يلهم جنودى الصبر والثبات ، فقد كنت أعلم أن المسألة لم تكن هينة . بل تحتاج الى أعصاب من حديد ، اذ من العسير على الجندى أن يرى عدوه قد أضحي منه على مرمى حجر دون أن يحرك ساكنا وظهرت دبابات العدو الثقيلة تتبعها موجات من المشاة ، وأخذوا فى الاقتراب من الثغرة ونحن جاثمون فى صمت عميق .

ولست أشك فى أن العدو قد تملكته النشوة ، وظن أنه أخذنا على غرة واجتازت القوات الهاجمة الثغرة وأخذت فى التدفق نحو مواقعنا محاولة تطويقنا والوصول الى الطريق الواقع خلفنا .

وزاد اقترابهم منا شيئا فشيئا . وأحسست أن أعصاب الأسود الرابضة تزداد توترا وأنهم ينظرون الى فى قلق ، كأنما خشوا أن أكون قد نسييتهم ونسيت المعركة !

وأخيرا أضحت المسافة بيننا لا تزيد على خمسة وعشرين ياردة وقد تعرض لنا العدو بجانيه وهو يحاول الالتفاف حولنا .

وهنا أصدرت الأمر بالضرب . وأخذت أرقب المعركة فى هدوء .

اللهم لا شماته ، ولو انى كنت وقتذاك نموذجاً للشماتة .

ان الثأر لذيد ، ولا سيما اذا كان موجها الى من يستحق الثأر الى خائن
لنيم غدار ! انطلقت النيران منهالة كالغيث مندفعة كالسيل . تحصد العدو
حصدا ، ولم يكن الجنود فى حاجة الى تصويب فقد كانت أجساد العدو أمامهم ،
لا يمكن أن تخطئها الطلقات !

ونساقطت الجثث مكدسة بعضها فوق بعض ، فى حين دوت طلقات
المدافع المضادة للدبابات فكانت كل طلقة منها تسقط دبابية .

وتوالت موجات العدو . وهى تتكسر على مواقعنا كما تتكسر موجات
البحر على الشاطئ . فتصير الى العدم .

وأخيرا ارتدوا على أعقابهم مهزومين بعد أن فرشوا الأرض بجثثهم ،
وهم الذين لا يتركون وراءهم قتيلا الا حملوه معهم ..

ولكن أنى لهم الوقت لئكى يحملوا تلك الأجداث من القتلى ..

وساد الهدوء مرة أخرى ، ولكنه لم يطل فقد أعاد العدو الكرة . رغبة
منه فى مفاجئتنا لاعتقاده أننا قد أخذنا الى الراحة بعد المعركة ، ولكننا أذفناه
من الكأس نفسها !

★ ★ ★

وانتهت المعركة أخيرا وأحسست أن التعب قد أخذ منى مأخذه ، ولكنى
علمت أنه مازال على واجب يجب أن أؤديه قبل ان أستريح .

كان على أن أشيع صاحبى الراحل ، ثم أواريه القراب .

وذهبت الى الجسد المسجى . وأعجبا . لقد زاد وجهه هدوءا وغيطة ،
وزابت علامت البهجة والرضا .. وأحسست وأنا أراه يتوى فى مقره أنه لا يدفن
فى الأرض بل يوضع على هام السحب .

نور منار

﴿ وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله
يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى
الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف
يرضى ﴾ .
« قرآن كريم »

تعالى معى نتبع أحمد أفندى الصراف الى مقر عمله . لقد تناول الرجل
افطاره من بيضتين مقليتين وقطعة جبن وألقى تحية الصباح على أم أحمد
الخادمة ثم هبط بضع الدرجات التى تفصل طابقه عن أرض الطريق ، وتمهل
برهة أمام بائع الجرائد حتى ناوله الأهرام ثم حث الخطأ فى طريقه الى
المكتب .

ان المسافة بين البيت والمكتب قصيرة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق
سيرا على الأقدام ، كان البيت فى شارع والى بكوبرى القبة ، وقد دلف أحمد
أفندى منه الى شارع ابن سندر وسار بحذاء سور المترو حتى وصل الى
المثلث الصغير الذى تلتقى فيه الشوارع المفضية الى القبة وكوبرى القبة
والخليفة المأمون وعبر أحمد أفندى الجزيرة وسط الميدان واتجه فى شارع

سكة حديد السويس وبعد هنيهة توقف أمام باب يتوسط سوراً ضخماً كتب عليه وزارة الأوقاف - تفتيش القبة .

لندع أحمد أفندي يحيى الخفير الواقف على الباب ثم يصعد إلى مكتبه ولنتربث برهة لنتجول حول البناء جولة عابرة .

عجيب هذا المكان ، إذ لا تكاد تبدو عليه سيماء المكاتب . فهو سراى عتيقة « أحنى عليها الذى أحنى على ليد ، أول ما يخالعنا فيها سورها الحجرى المرتفع وبابها الخشبي الضخم ، فإذا جاوزناه وجدنا الحديقة الواسعة جرداء مهملة مترية مشعثة قد بذل فيها جهد ضائع لتشييدها وسقيها ورسم بعض أحواض الزهور المتناثرة فيها ، ولكن الجهد قد أضال من أن يصل إلى أطرافها النائية ويكشف غمة مجالها ويزيح عنها أكوام الأتربة والقمامة المتركمة غير أن الأشجار العتيقة القائمة هنا وهناك من نخيل وجازورينا واستراكوليا والنافورة الحجرية المحطمة تعطى الدليل القاطع على الحديقة كانت فيما مضى غناء فيحاء .

لنترك السلامك على يميننا فلا أظن سلمه بمفض الا إلى حجرتين عاديتين كانتا فيما مضى تستعملان للضيوف ولا شك أنهما يستعملان الآن كحجرات للموظفين ، ولنتقدم إلى البناء الأصلي فنصعد درجة الرخامى المستدير ذى الفرعين حتى نصل إلى الشرفة القائمة فى صدر البناء والتي تؤدى إلى صالة الدور الأول القائم فوق البدروم .

السقف عال ملىء بالنقوش والخاروف والنقوش . والأبواب تعلوها شراعات زجاجية كبيرة المساحة ، تشعر الناظر إليها بالكارثة التي يمكن أن تحل إذا ما كسرت احداها ، والواقف فى الصالة لا يملك الا أن يتساءل عن طول قامة أهل الجيل الماضى ، وهل كانوا يسرون فرادى أما كانوا لا يسرون الا وقد حمل أحدهم الآخر على كتفيه ، والا فعلام كان كل هذا الارتفاع فى الأسقف .

فإذا عبرنا الصالة تاركين الحجرات التي على الأجناب مشغولة بأصحابها من مأمور ووكيل وغيرهما واتجهنا إلى الباب المواجه لنا والمؤدى إلى السلم الداخلى للبناء لم يصعب علينا بعد ذلك أن نعتز على حجرة أحمد أفندي الصراف .

إنها الحجرة التي على اليسار فى الطرقة القائمة على السلم الداخلى أو بطريقة أوضح . دورة المياه فى سالف الزمن عندما كانت السراى فى أوج مجدها .

لنتقحم الحجرة ، أو دورة المياه السابقة ، لانتأفوا فالمكان نظيف جاف ، لا مياه ولا روائح كريهة ، فقد كف عن استعماله منذ زمن ، والمكان فى حد ذاته مكان ذو فخامة سابقة ومجد قديم .

ألدكم فكرة عن حمامات البيوت القديمة . باب أول . وباب ثان هنا باب أول يؤدى إلى حجرة مظلمة صغيرة ملاصقة للحمام الأصيلي وتستعمل فى الراحة والاستحمام والهدوء بعد الحمام وقبل الخروج إلى الهواء الطلق ، إنها الآن فارغة خاوية لا إيوان بها ولا أرائك غير صندوق خشبي عتيق مغلق ، أغلب الظن أنه يحوى دوسيهات قديمة وأوراق بالية . ويصل الحجرة بالحمام باب ونافذة صغيرة فإذا كنت تنوى الصرف وقفت أمام النافذة حيث يطل عليك وجه أحمد أفندي وهو جالس فى الحمام أمام الخزانة ، وإذا كان بينك وبين أحمد أفندي معرفة أم كنت من ذى المكانة فلنتفضل بالدخول من الباب لنتخذ مكانك على أحد المقاعد أمام أحمد أفندي ، فقط ، كن حذرا ، واحرص على الا تصطم رأسك بحافة الباب العليا فالإبواب منخفضة وأرض الحمام عالية ، إذ وضع عليها أحمد أفندي مصطبة خشبية تقيه رطوبة الحمام ، على أية حال . سيحذرك أحمد أفندي عند الدخول ، ولكن عند الخروج ، ستشج رأسك ، لأنك ستسمى وسينسى أحمد أفندي .

نحن الآن ، فى الحمام باعتبار ما كان وفى حجرة خزانة وزارة الأوقاف قسم القبة باعتبار ما هو كائن .

الحجرة لطيفة ، ألطف ما بها سقفها المحذب الشبيه بالقباب والمقسم الى فجوات بكل منها طاقة صغيرة مغطاة بقطعة مستديرة من الزجاج الملون ، ولذا فقد ندهشك - اذا لم تكن لديك فكرة عن الحمامات القديمة - تلك الأضواء المنبعثة من السقف المختلفة ألوانها كأنها قوس قزح .

والمكان قد اختلط فيه عز تالد بذل حاضر ، فالى جانب السقف ذى الأضواء الملونة ترى الضوء الأبيض ينبعث من بضعة فتحات تحطم زجاجها ، يعلم الله ما يعانىه أحمد أفندى منها فى يوم مطير ، والى جانب رخام الأرض ترى الجدران وقد عبثت بها فرشاة الجير وترى بقايا حوض ركبت عليه طرف ماسورة نزع عنها الصنبور وأغلقت بطابة حديدية .

أما محتويات المكان فلا تزيد عن الخزانة الحديدية التى لا ينسى أحمد أفندى أن يغلقها اذا خطا خارج الحجرة خطوة واحدة . ويجوارها دولا ب وضعت فيه زجاجات حبر وشمع أحمر وأوراق وسجلات ونماذج وأمام الخزانة مكتب أحمد أفندى ومقعد أحمد أفندى ، وأحمد أفندى نفسه .

لنتأمل أحمد أفندى برهة وهو مكب على رصد بعض الأرقام فى احدى الاستثمارات ، ان عمره - من مظهره - يتراوح بين الأربعين والخمسين وان كان فعلا لم يتجاوز الأربعين وهو شديد تحول الجسد نحولا من درجة :

أن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت لو توكأت عليه لانهدم
أو

كفى بجسم نحولا اننى رجل لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

بارز عظام الوجنتين . مطبق الأصداع ، لايفتا بين آن وآخر بحرك

فكبه متحسسا طقم الأسنان الجديد ، وفوق عينيه ثبت منظاره السميك ذا الاطار الذهبى ، وهو أفخم ممتلكاته الظاهرة ، اذ تبدو الرثاثة والاهمال جلوية فى بقية ثيابه من أول طربوشه حتى حذائه رغم الياقة القطيفة التى وضعها لمعطفه والجتر الذى غطى به قدميه .

ولم يكن أحمد أفندى بالرجل الفقير . بل هو رجل ، مبسوط ، يستمد بسطته من ناحيتين أولاهما غنى النفس وقناعتها وزهدا وحمدها الدائم لنعمة الله وثانيها أن الفقر لا يقاس بضالة المرتب بل بالفارق بين الدخل والمنصرف ، وقد يكون دخله قليلا ضئيلا ولكن مصروفاته أقل وأضال ولذلك فان ميزانيته دائمة التوازن ، لم تختل مرة واحدة بل ان لديه احتياطا منخرا مستمر الزيادة .. زيادة قد تكون ضئيلة ولكنها ثابتة ومستمرة .

ان أبواب الصرف لديه لا تتعدى المأكل والمسكن ، فليس لديه أسرة يعولها ، بل هو كما يقولون مقطوع من شجرة ، لم يقدم على الزواج ، لأنه لا يستطيع أن يقدم على شىء أبدا بل هو من نوع منتظر ، مستسلم ، يعتقد أن ما كتب سيكون .

وإذا كان الله يريد له الزواج فسيرزقه بابنة الحلال وليس عليه سوى الصبر والانتظار وزيادة الاحتياطى الذى يدخره لمهمة الزواج .

أما باب النزهة والشبرقة - فقد كان ضمن الأبواب المجانية ، التى لم يرصد لها مليما واحدا فقد كانت نزهته الدائمة هى ، الشلة ، أو الجمعية . وهى رهط من أترابه يجتمعون كل يوم فى منزل أحدهم ليشرّبوا القهوة ويقرأوا بعض الكتب الدينية .

ووضع أحمد أفندى الريشة وجفف الحبر بالمنشفة الخشبية العتيقة ثم مد يده بالاستمارة الى الفراش وقال له :

- امضها من على أفندى ومن زكى بك وأحضرها ثانية . وغادر

الفرش الحجرية وأخذ هو يقرب بضع أوراق أمامه ويرصها بانتظام حتى وقع بصره على النتيجة المعلقة على الحائط ، فتوقف برهة ، وأخرج الساعة من صدريته ونظر فيها ، ثم أعادها وعاد يقرب الأوراق وقد بدأ عليه شيء من الاضطراب وشرود الذهن . بقي ربع الساعة ، فاللوم هو السادس والعشرون ، والساعة الثانية عشرة الا ربعا ، ان موعدها مضبوط لم يختلف مرة واحدة حتى ليستطيع أن يضبط عليها ساعته .

أمرها عجيب ! .. أم ترى أمره هو العجيب .. بل ان أمرها معا لعجيب .

أما عن أمرها ، فعجيب فيه ، تلك الدقة وتلك الانتظام ، الساعة الثانية عشرة في اليوم السادس والعشرين من كل شهر ، تدق الساعة مع دقائق قدميها ، ولكن أى عجب فى ذلك ؟

أى عجب فى أن تحضر لتقبض المبلغ الممنوح لها من خيرات الأوقاف فى موعد بذاته وأن تواظب على ذلك الموعد .

لا ، لا ، ليس هذا هو العجيب فى أمرها ، ولكن العجيب ، فيها نفسها وفى ذلك الجو الذى يحيط بها .

تلك القوام الطويل المبتشح بالسواد من قمة رأسه الى أخصص قدميه والوجه المحجوب باليشمك الأبيض وقد بدأ منه الحاجبان الأسودان المقرونان والعينان اللتان مازالتا يشع منهما البريق رغم تلك الخيوط الحمراء الرفيعة التى جرت بها يد الزمن ورغم تلك الغضون التى خطها الكبر حول جفنيها .

كانت تدخل الحجرية المتواضعة لتتخذ مكانها أمام النافذة الصغيرة حتى تتسلم بضعة جنبيات - كأي فقير ألجأته الحاجة ودفعه العوز الى مد يده لتلقى بعض الاحسان - فاذا الحجرية قد ملأها جو عجيب من العظمة والارستقراطية ، واذا بالسيدة السائلة تبدو وكأنها سلطنة كريمة تفرق على

من حولها من المعوزين البؤساء .

كانت تمد يدها من النافذة بالسركى ، فكان ينعم النظر فى يدها ويأخذ فى كل مرة بدقة تركيبها وجمال صنعها وصفاء بشرتها ، انت اليد طويلة مسحوبة والأصابع دقيقة منتظمة .

وكان يتناول السركى ، فيمر عليه ببصره مرا سريعا ، ويتوقف برهة أمام اسم صاحب المرتب ، نور مثال عصمت جمال الدين ، .

ثم يرفع اليها عينيه فتحنى رأسها بتؤدة وتقول له فى صوت خفيض هادى :

- نهارك سعيد يا بك ،
- نهارك سعيد يا هانم .

اذا كانت قد منحته « بك » أكثر عليه أن يمنحها « هانم » وهى الجديرة بلقب أميرة أو سلطنة .

ويسألها ثلاثة قروش ثم يمد يده بالأربعة جنبيات وبالاستمارة حتى توقع عليها ، فلا تكاد توقع حتى تحيى وتنصرف .

ويظل ذهنه يتبعها بعد أن تختفى ، فيراها تهبط الدرج الرخامى ومن حولها الأتباع وتسير وسط الحديقة البانعة الباسقة وتتقدم الى الباب حيث العربية المطهمة قد وقفت فى الانتظار ، وتستقر مكانها وتنطلق بها العربية يعدو أمامها الخواص .

أجل ، لا أقل من ذلك ، انه لا يستطيع أن يتصور الا كذلك .

انه لا يستطيع أن يتصورها تجر ساقها على الأرض وتثير الغبار بحذائها البالى وطرف ثوبها الممزق المرتوق ، وقد أخذت تتوكأ على مظلتها العتيقة .

وغاد احمد أفندى ينظر الى ساعته ، « بقى خمس دقائق ، لقد بات على مر الأيام ، ينتظر حضورها ، اذا أضحت تهبىء له نوعا من الاحساس ، يشبه الى حد كبير ذلك الاحساس الذى كان يتملكه عندما يجلس فى ليالى الزفاف وهو ما زال صغيرا فيرقب العرائس فى أبهى حللهن وأكمل زينتهن . أو عندما كان يقف على قارعة الطريق فيرقب احدى عربات الأميرات تمر أمامه ولمح من وراء الزجاج الوجه المحجوب باليشمك

ودقت الثانية عشرة ، وانتظر أن يسمع وقع أقدامها ، ولكن الدقائق أخذت تمر حتى بلغت النصف بعد الثانية عشرة دون أن تحضر . وعاد الى داره ، وهو يحس بضيق لم يتعوده ، وأخذ يتناول الغداء بلا شهية ، ثم جلس على الأريكة يستريح وأخذ يرقب أم احمد ترفع بقايا الطعام ، وشعر برغبة شديدة فى أن يحدثها عن « نور مثال » لقد كان يود بطريقة ما أن يفرغ بعض ذلك القلق الذى يملأ صدره ولم يدر كيف يبدأ الحديث ، ولا سيما أنه يخشى أن تظن المرأه به سواء ، أو أن تتوهمه يكن لهذه السيدة أحساسا خاصا .

ولكنه - رغم خشيته - لم يستطع الصمت ، فقال بطريقة عابرة :
- أتذكرين هذه السيدة التى حدثتك عنها ذات مرة .
- أية سيدة ؟
- التى قلت لك أنها تحضر دائما فى ساعة مخصوصة فى يوم

مخصوص

ما لها ؟

انها لم تأت فى موعدها اليوم .

- ربما عاقها عائق .

- مثل ؟

- المرض .

- مسكينة ، من تظنين يرهاها اذا مرضت ؟

- أهلها وأقاربها .
- لا أظنها بذات أهل أو اقارب .
- من ادراك .
- لو كان لها لما لجأت الى الأوقاف .
- لها ربنا يا أحمد أفندى ، لا تشغل نفسك بهموم الناس .

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وكان هذا أقصى ما استطاع أحمد أفندى أن يفعل لتخفيف قلقه على السيدة الغائبة ، وكل ما كان عليه أن يفعل بعد ذلك هو أن ينتظر شهرا آخر .

ومرة أخرى جلس ينتظر عقربى الساعة ليلتقيا عند الثانية عشرة ولكنه فى هذه المرة لم يخذل ، فقد وصل الى أذنيه وقع أقدامها ، بطيئا متناقلا ولكنه جميل فى أذنيه لا يخطئه قط .

ووقف أمام النافذة ومدت يدها بالمركبى فتاوله أحمد أفندى وقال بمنتهى الأدب .

- حمدا لله على السلامة ، انك لن تأخذى شهر يناير ، لقد اضطرنا الى أن نضعه فى الأمانات أظن أنك ستضطرين الى الانتظار بعض الوقت حتى تصرفه من الأمانات ، تفضلى اخفضى رأسك قليلا حتى لا تصدم بالباب ، أجل هكذا ، اجلسى ، استريحى على هذا المقعد حتى أنهى لك المسألة ، لا تؤاخذينا على ضيق المكان ، انه كان فيما مضى حماما ، أتشربين قهوة .

- كتر خيرك . لا داعى للتعب .

- يا محمود ، محمود ، هات قهوة للهانم ، أهلا وسهلا .

وانهمك أحمد أفندى فى الكتابة حتى يعجل بصرف مبلغ الشهر السابق

وان كان انهماكه في الكتابة لم يمنعه من أن يسترق النظر اليها من آن لآخر .
لقد كانت المرة الأولى التي يراها في الضوء على مقربة ، واستطاع
أن يكشف بسهولة عن رثانة ثوبها وأثار البلى والرتوق التي به وبنظرة سفلية
كشف حذاءها البالي العتيق ... واستطاع كذلك بسهولة أن يبصر غضون
وجهها وعروق يديها .

ومع ذلك ، لم يقلل ما أبصره من قيمتها في نفسه ، لقد ظلت كما هي
الأميرة الكريمة ، والسلطانة العريقة الأصل الرفيعة الشأن .

وانتهى من اجراءاته ، ووقعت بامضائها على ما أراد وتسلمت النقود
وهمت بالرحيل ، ولكنها قبل أن تغادر الحجرة ، ترددت برهة ، وبدا كأنها
تود أن تقول شيئا .

ووقف أحمد أفندى ينتظر ما تريد ، وبعد برهة صمت قالت في تردد
مشوب بكثير من حياء :

- هل أستطيع أن أشاهد الدار . وأجول جولة في الحديقة .

ونظر الرجل اليها في دهشة ولكنه أجاب بلا تفكير :

- أجل ، أجل ، تستطيعين بالطبع ، وان كنت لا أرى شيئا بها يستحق
الرؤية .

وخرجا الى الصالة فوقفت تتأملها برهة ثم أشار هو الى الحجرات
قائلا : هذه حجرة المأمور ، وهذه حجرة الباشكاتب ، وهذه حجرة الكتبة ،
هل ترغبين في رؤيتها .

- لا ، لا ، لا داعي لازعاجهم ، اني أريد أن ألقى نظرة عابرة هل
أستطيع الآن أن أجول في الحديقة .

- الحديقة . انك ستلوثين نفسك بالقمامات والأتربة وهبط معها فجالا
وسط أكوام الأتربة والأخشاب والحجارة ثم ودعها الى الباب . ولم ير بالطبع
التهربة المطهمة ولا الخيل الأصيل ومع ذلك فقد استمرت هي ، هي الأميرة
العريقة .

وفي تلك الليلة ، رأى لأول مرة ذلك الحلم العجيب ، لقد وجد نفسه بباب
البيت ذات صباح وهو يسير في طريقه الى المكتب ، ولكنه لم يكذب يتعد عن
البيت حتى وجد نفسه لا يسير على قدميه بل يمتطي صهوة جواد أصيل ،
يملاً المكان سهيلاً ونهضة ، ووصل به الى شارع المترو ولكنه لم يجد هناك
أثراً !! مترو بل وجد في المنحدر العميق الذي يجري فيه المترو أسفل الكوبرى
نهرًا منبسطة عريضا تجرى فيه المياه هادئة صافية ، وسار كعادته بجوار
النهر متجها الى الميدان ، ولكنه أحس بوطأة الشمس تشتد وأصابه العطش
فهبط من فوق الجواد ليشرّب من ماء النهر .

ووقف برهة يعجب من نفسه ، لقد كانت ملابسه ثقيل عليه ، كان يلبس
حذاء طويلا ودرعا كفرسان العصور الوسطى وكان يضع على رأسه خوذة
من الصلب .

وأخذ يهبط فوق المنحدر حتى وصل الى حافة الماء فانحنى فوقه وأخذ
يعب بفمه حتى ارتوى . وهم بالصعود ولكنه تذكر أن هناك وعاء جلديا للماء
مثبتا بسرج الجواد وخطر له أن يملأه بالماء ليستعين به وقت الحاجة . وملأ
خونقه بالماء حتى يفرغها في الوعاء الجلدي ولكنه لم يكذب يصعد الى الطريق
حتى كان معظمه قد سكب ولم يكن قد بقي منه سوى قطرات ، ولم ييأس بل
أعاد الكرة . واستمر يهبط ويصعد عائدا في كل مرة ببضعة قطرات حتى ملأ
الوعاء ثم ركب الجواد وواصل السير .

وطال به السير حتى وصل الى الميدان فاذا به قد اتسع حتى أضحي

- أضغاث أحلام ، لا تعد بعد ذلك الى أكل المدمس فى العشاء انه هو الذى أثقل على معدتك .

ولم يعد فعلا الى أكل المدمس فى العشاء . ولكن الحلم عاد فلق عليه فرآه فى الليلة التالية تماما كما رأى فى الأولى .

واستمر يراه الليلة بعد الليلة حتى حل اليوم السادس والعشرين من الشهر ودقت الساعة الثانية عشر وأبصر « نور مثال » تقف أمامه وفتحتها فى كل شهر ، ونظر الى وجهها فوجد به بعض الشحوب والهزال وعندما سلمها النقود سألته :

- أستطيع أن آخذ بضعة شهور مقدما . انى أحس ببعض التعب وقد لا أتمكن من الحضور فى الأشهر التالية . وأنا فى حاجة الى نقود . وبغير أن يفكر وجد نفسه يجيب :

- بالطبع . تستطيعين أن تأخذى مقدما ما تشائين .

كان أبله . عندما أجاب تلك الاجابة . فأى صراف مهما بلغ به الجهل يعرف أنه لا يملك أن يصرف مقدما مليما واحدا . ولكنه مع ذلك مد يده الى الخزينة وسلمها عشرة شهور مقدما . أى سلمها كل ما كان بالخبزينة وقتذاك .

وتناولت النقود وأحنت رأسها شاكرة . وقيل أن تنصرف وجدها تتوقف . ويعطو وجهها شحوب مفاجيء ثم سألته بصوت مبحوح :

- ماء . جرة ماء .

وأحس بقشعريرة تسرى فى جسده . ووجد نفسه نون أن يدرى ينظر الى ملابسه ويدق بقنمه على الأرض .

لا ، لا ، انه مازال يرتدى البدلة ويجلس على المكتب ... بلا جواد ولا

صحراء واسعة مقفرة ولم يعد هناك أثر للنهر ، وأحس بالقيظ يشتد ، وتلفت حوله فلم يجد شيئا يستظل به فأمعن فى السير ، حتى لاحت له فى الأفق واحة مليئة بالنخيل والأشجار . فاستحثت الجواد اليها . وأحس بريفة يجف وبظمنه يشتد ، فهم بأن يبل ريقه من وعاء الماء ، ولكنه خشى أن يجد الواحة سرايا ، وصمم أن يحتفظ بالماء حتى يتبين حقيقتها .

واستمر فى السير ، ممسكا الوعاء بحرص ، وقد ضن على نفسه بقطرة ماء منه ، حتى يبلغ هدفه .

وفجأة وجد جواده يجفل ، وتلفت حوله فاذا بجسد امرأة يجثو فوق الرمال ، ولم تكذ تحس اقتزابه حتى رفعت اليه رأسا أشعث وعينين غائرتين ومدت اليه ذراعيها وهنتت به :

- ماء ، جرة ماء .

وببساطة ، وبلا أقل تفكير ، مد يده اليها بالوعاء ، وأخذ ينظر اليها وهى ترفعه الى شفيتها وتفرغه فى جوفها ، وقد ملأه احساس بالسعادة والهناء ، وكأنه هو نفسه قد ارتوى .

ونظر الى الأفق فاذا بالواحة قد اختفت ولم يعد هو يحس أنه فى حاجة اليها ، لقد بلغ مأربه ووصل الى هدفه وليس لديه من حاجة الى السير أبعد من ذلك ؟

ومد يده الى المرأة فرفعها بجواره على الجواد ، وضمها اليه برفق وحنان وأدار جواده وعاد من حيث أتى .

واستيقظ من نومه . ووجد نفسه يذكر الحلم بكل تفاصيله وحذاقيره وقد تملكته منه دهشة شديدة ، وأخذ يقصه على أم أحمد فى أثناء افطاره ، وهزت المرأة رأسها فى استخفاف وقالت :

صحراء . ومد يده الى كوب أمامه فناولها اياه ورفعته الى شفيتها وأفرغته في جوفها ثم نظرت شاكرة وأولته ظهرها وانصرفت ، ولم تكذ تنصرف حتى أسرع يغلق الخزينة . وانطلق الى البيت . لقد كان عليه أن يرد المبلغ الذى أخذه . وبعد برهة رجع الى المكتب وأعاد الى الخزينة كل ما يملك من احتياطي كان يدخره لوقت الحاجة .

وغادر المكتب مرة أخرى ، وهو يحس أنه قد بات قرير النفس ناعم البال شيئا واحدا كان يجب أن يرده الى السيدة . وهو السركى الذى نسيته فى مكتبه . ولم يصعب عليه العثور على عنوانها . وقبل أن يتناول الغداء كان يطرق باب الغرفة التى تقطن بها فى حمامات القبة .

وفتحت له خادم صغيرة ، وقتت تسأله عن يكون ، فلما علمت أفسحت له الطريق وأنبأته أن السيدة أصابها اغماء عقب عودتها من الأوقاف فى الظهيرة ، وهى راقدة فى الفراش ولكنه مع ذلك يستطيع رؤيتها فهى تتوقع مجيئه ، وتقدم اليها وقد تملكته رهبة شديدة . فاذا بها مسجاة على فراشها شاحبة الوجه واهنة القوى ، ولم تكذ تحس وقع أقدامه حتى فتحت عينيهما وأشارت له بالجلوس .

وجلس بجوارها ، ومد يده اليها بالسركى فأشار له أن يضعه على المائدة وقالت فى صوت خافت ، لا أظن بى حاجة إليه بعد ذلك ، لقد تركته لكى تحضره ، ان لا يبد لى من ذلك ، حتى أراك مرة أخرى قبل أن أرحل ، ولم ينبس ببنت شفة ، لقد بدأ له كأنه فى حلم ، نفس الحلم الذى يراه كل ليلة ، لقد استطاع الآن أن يميز ذلك الوجه الذى كان يسأله الماء ، وعادت المرأة الراقدة تهمس :

- انك تبدو غريبا فى هذه الثياب .. وفى هذا المنظار والطربوش . لقد تعودت أن أراك دائما فوق جوادك بالخوذة والدرع كأنك أحد فرسان العصور

الوسطى ، كنت دائما تأتى لانقاذى ، تبل حرارتى وتندى شفتى ثم ترفعنى اليك وتحملنى على جوادك وتضمنى الى صدرك ، ما أحسست قط فى حياتى بنعمة الاستقرار الا بين ذراعيك ، فقد قضيت كل هذه السنين الطوال فى اليوس والمسغبة . كنت أكاد أنصوّر جوعا ، حتى من الله على ببضع جنبيها من الأوقاف ، من كان يصدق هذا ، من كان يصدق انى سأعود مرة أخرى الى قصرنا لأتسلم حسنة ، هل تعرف ان تلك المكاتب التى تجلسون فيها كانت مرتع صباى فى زمن مضى ، أتذكر عندما سألتك أن تمنحنى فيه جولة ، لقد كنت أبصر بعين الماضى ، ما وراء أكوام القمامة والحجارة والأترية ، كنت أبصر الحديقة الغناء التى طالما لهوت فيها ، والنافورة التى طالما عيشت بمياهها انى أحس بقرب النهاية ويبدو لى أن من الخير أن أعيد اليك النقود التى أخذتها منك . لقد كنت أتمنى أن أسدد بها بعض الديون ، وأن أهيبء لنفسى ميتة كريمة ، ولكنى أخشى أن أضعك فى مأزق وأسبب لك حرجا ، فخذ النقود ، انها تحت الوسادة .

وأغمضت عينيهما مرة ثانية ، فرفع يدها الى فمه ومسها بشفتيه وعادت تفتح عينيهما ، فهمس فى رفق : لا عليك من بأس ، دعى الأمر لى .

وماتت نور مثال .. وبكاها الرجل بأحر ما بكى .. وهيا لها ميتة كريمة ، قدر ما استطاع .. ولم يكف عن زيارة قبرها .. ولا عاد ينتظر بعد ذلك زاجا .

بين الحى والميت

﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن
يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم
العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .
قرآن كريم ،

هل تسمعنى .

تسمعنى أو لا تسمعنى .. لا بد لى من الحديث اليك .. انه حديث
شمامة .. وليس أحب الى نفس من الشمامة فيك .

أى باعث على الشمامة أكثر من رقنك وأنت لا شىء .. ووقفتى
الموحشة بين الرمم البالية والعظام النخرة والجيف التنتنة بلا حراك ولا قوة
ولا حول ولا طول ولا جاه ولا سلطان .. ولا .. ولا .. شىء أبداً .

كيف يكون بك شينا ، وأنت نفسك أصبحت لا شىء .

أى باعث على الشمامة أكثر من رقنك وأنت لا شىء .. ووقفتى وأنا
كل شىء .. أنا حى ، وأنت ميت .

وبين الحى والميت كثير ، كثير ، أكثر مما يمكن حصره .

أقف منك على قيد خطوات ، وبينى وبينك من المسافة شيء قليل ، أما من حيث الوقت ، ومن حيث القدرة ، فبيننا مالا يحصى ولا يقدر ، بينى وبينك ، حياة ، مديدة ، طويلة ، حافلة زاخرة ، مورقة ناضرة ، بينى وبينك ، ما بين العيش والفاء ، والخلق والعدم .

انك لا تستطيع حتى أن تتألم أو تتوجع ، انك لا تملك الا الرفود والاستسلام ، أريق عليك نعمتي فلا تستطيع لها ردا ، وأصب عليك جام غضبي فلا تملك له دفعا ، أيها العاني الجبار ، أية شماعة أحس بها وأنا انظر اليك ، تتمرغ في الذلة والعجز والمسكنة وترقد وكلاب الأرض سواء بسواء .

هل تسمعي ؟ .. لا بد أن تسمعي ، فلست أريد أن يذهب حديثي بددا ، لن تتم شماتتي فيك وسخريتي منك الا اذا اطلعتك على خبيثة صدرى وأوصلت الى مسامعك حقيقة أمرى وأمرى ، كنت تتصامم فيما مضى عن أنيني وشكواي وأنت العلى القدير ، أما الآن فلتنصت الى شماتتي وأنت الدليل الحقير .

اذا لم تكن تسمعي وأنت حى ، فلتسمعي وأنت ميت .

اسمعي : أيها الجسد الفاني والرمة البالية .

اسمعي : لا أسمعك الله صوت رحمته ، ولا أسكنك الا سعير جحيمه .

اسمعي . فلطالما تافقت نفسى الى أن تقضى بما سوف أفضى به اليك .

اسمعي : صاغرا مطيعا ، بلا احتجاج ولا شكوى .

اسمعي : أنا الحاكم بأمرى فيك ، وفى كل سلطانك وجاهك ومالك الذى كددت فى جمعه ، وشقيت فى تقديمه .

اسمعي : انا الأمر بطردك من الحياة .

اسمعي : أنا قاتلك ، ومعمدك ومفنيك .

★ ★ ★

أدهش أنت من قولى هذا ؟ ساخر أنت منه منكر له ؟

يبدو لى أنك تود الاحتجاج والتكذيب وأنك تستكثر على ، أنا العاجز الأبله ، أن أضع بيدى هذه نهايتك وأن أنهى مصيرك وأقرر خاتمتك ، انك تستكثر من جريمة قتل ، وقتل من ؟ قتلك أنت ، سيد الأشرار ، وشيخ الفجار .

انها مذلة جديدة لك . وعار آخر يلحقك . ان تعلم أنك مت بيدى أنا . وانى أنا طاردك من الحياة . حارمك من نعيمها .

ولكن ألم يسبق لك طردى وحرمانى ؟ . لقد رددت لك الكيل على غير انتظار منك ولا توقع ، واحدة بواحدة ، والبادى أظلم ، والمنتهى أربح ، وأنت البادى وأنا المنتهى ، أنت أكثر ظلما ، وأنا أكثر ربحا .. ما رأيك يا أبتاه ؟ ..

أبتاه ؟ . ها .. ها .. ها ..

دعنى أضحك يا أبتاه ، فما أظن هناك نكتة أروع من أن تكون أنت أبتاه .

ها .. ها .. ها .. يا أبتاه .. يا أبتاه .

أنت أبتاه ؟ والله ما أظن قولى لك يا أبتاه ، الا من باب تسمية الشيء

بضده كما نقول على الزفت بياض وعلى الفارغ العليان .

أتذكر عندما كنت أرقد في حجرتي في الغرفة ذات الشرفة المطلة على الحديقة ، وكنت تأمرني بأن أرقد وحدي وأنا طفل حتى لا أتعود الجبن ، ولقد تحملت النوم وحدي وقتذاك رغم ما كنت أشعر به من خوف شديد ، ورغم ما كنت أتوهمه من سماع أصوات مخيفة تطرق أرض الشارع وتسير فوق السطوح .

كل هذا كنت أحتمله . ولكن الشيء الذى كنت أعجز عن احتماله هو أن أذهب وحدي الى دورة المياه الكائنة فى الركن الآخر من المنزل عندما أحس برغبة شديدة فى قضاء حاجتى خلال الليل ، ولذلك فقد كنت أذهب الى أم أحمد الخادمة فأوقظها لتصحبنى الى هناك . ولكن حدث ذات مرة أن أيقظك صوت ايقاظى لأم أحمد فهببت من نومك وصحت نسأل عما هناك ، وعندما أنبأتك بجلية الأمر ثارت ثورتك ونهرتني نهرا شديدا وأمرت أم أحمد بالأ تذهب معي وأنبأتني بأنه يجب على أن أذهب وحدي حتى لا أكون جباناً .. ولم أذهب وحدي بالطبع ، فقد كان هذا فوق استطاعتي ، وفضلت أن أبقى فى الفراش ، وفى الصباح وجدت الفراش مبتلا .

وتعودتها ليلة بعد ليلة ، أكبت حاجتى ليلا ، حتى أفقد السيطرة على نفسى ولم أستطع التخلص من العادة أو قل الداء . حتى نموت ونمت العلة معي واتهمت بالبله .

ذلك وغيره من سوء معاملة وزجر واتهام بالغباء والبله هو بداية ما أنزلت بي فى الصغر وما أهلنى لان أكون بين الصبية ناقصا شادا ، فلما بلغت سن المراهقة ، وبدأت أدخل فى دور الرجال .. سدنت الى ضربة لو أن أشد أعداء صبى مراهق فى مثل سننى رغب فى القضاء عليه لما سددها اليها مثلها .

لقد بدأتها بزواجك ..

وحاشاى أن أنكر حقاك فى الزواج .. وحاشاى أيضا أن أزعم انى كنت

أنت أبى من باب الزفت والفارغ ، بل ان قلبك لأشد من الزفت سوادا ، ومن الفارغ فراغا . كيف كنت ، وكانت حياتى معك ؟ كيف كانت أبوتك ؟ وكيف كان عطفك وحنانك ، دعنا نتذكرها سويا ، على سبيل التندر والتسلية .

الديك مانع ؟ لا أظن ، وحتى لو كان لديك ، فما أظنك تستطيع اعلانه فأنت هنا كما ترى ، سميع مطيع ، راضخ نليل .

أما أنا فلست بمتعجل فراقك . فالوقت أمامى فسيح والحياة طويلة ، ولا بأس من بضع لحظات نتسامر فيها سويا ، أنعم فيها بمناقشتك الحساب ، وأنت الذى طالما ناقشتنى الحساب . وأبيت على الجواب ، انى لأذكرك منذ طفولتى ، ومنذ بدأت الوعي والادراك ، شبح مخيف وظل سمج ثقيل ، بينى وبينك حجاب كثيف من الخوف والرغبة ، اذا حلت بالدار لم أجروا على اللعب والحراك ، خشية ازعاجك ، واذا نمت فلايد لى من الانطواء فى الفراش والتناوم حتى لا تفلتك حركتى ، وما أظننى أنكر انك حملتني بين يديك مرة واحدة ، أو ربت على ، أو لاطفتني بما يلاطف الآباء بنبيهم بل كنت تعتبرني كقطعة من أثاث الدار .

ولو كانت لى أم ، لما أحسست بمبلغ جفانك وقسوتك ، ولعوضتني عن اهمالك وهجرك ، ولما نشأت كما نشأت نفورا مستوحشا ، ولما أصيبت بذلك الانطواء والخوف من الناس حتى أضحييت بينهم أبلها شادا .

أجل ، أجل ، انك السبب فى كل ما أصابنى ، وما جعلنى أبدو مخلوقا ، ناقص العقل ، أو نصف آدمى .

انك السبب فى علنى الأولى ، التى جعلتني أتهم بالبله ، ذلك البله الذى يجعلنى لا أتحمك فى قضاء حاجتى .

أتوقع من امرأتك عطفًا أو حنانًا أو حسن معاملة .. حاشاى أن أكون حسن الظن الى هذا الحد .. لقد تقبلت زواجك كضرب لابد منه .. واعتبرته حلقة من سلسلة حياتى المثقلة بالهموم .

ولكنى لم أكد أتوقع قط .. أن يكون ضربة قاصمة لى .. أو أن تكون الضربة من مثل هذا النوع السخيف المشين .

ترى بأى شيء أعلل تصرفك .. أو تصرفكما أنت وزوجتك معى ؟

أكنت مجنونًا .. أم جاهلًا .. أم أحمق .. أم خبيثًا .. أم شيطانًا رجيما ؟

أن كل سوء ارتكبته معى يمكن تعليله وارجاعه الى ناحية معينة من سوء خلقك .. فحرماتك لى وأنت الغنى المقندر .. يرجع الى بخلك .. وقسوتك على وزجرك لى .. قد يمكن تعليله بصرامة طبيعتك وشدة قسوتك .. واهانتك وضربك اياى قد يعلل برغبتك فى اصلاحى وبسوء فهمك لأصول التربية والاصلاح .. وكل شيء .. كل شيء .. يمكن ارجاعه الى علة معينة .. مهما كانت خاطئة .. ولكن أية علة يمكنك أن ترجع اليها .. اغرائى بزواجك .. واغرائها لى ..

ألم يكفك ذلك الاغراء الصارخ .. فى جسدها .. حتى تفتعل معها أوضاع الاغراء .. وأنت الرجل الجاد الصارم .

ألم يكفك انك تزوجتها هى بالذات .. وهى أبعد ما تكون عن ملاءمتك سنا وطبعًا . أنت الكهل الصارم الجاد .. وهى الشابة المتعطشة الفائرة التى تنفجر أنوثة ورغبة ..

ألم يكفك أن تسلط على سطوة اغرائها الطبيعى .. حتى تتعاون معها على الايقاع بى وتحطيمى ، انى عندما أفكر فى هدوء .. يبدو لى أنك كنت أعبوة فى يدها .. ولكن أين عقلك .. وكيف يصل بك البله الى الحد الذى

تغمض عينيك عن تأثير ذلك الاغراء فى .. فتساق معها وتجاربيها ؟

لقد كانت خطة محكمة موضوعة لاثارتى واغرائى وتمزيق أعصابى وتحطيم قواى واطاشة صوابى ، وقيادتى الى الجنون ، ولقد أفلحت الخطة ، أو كادت ، لولا أن أنقذت نفسى وأوديت بك .

بدأت الخطة .. بعرض منها لفتنة جسدها .. عرضًا يبدو غير مقصود .. وان كنت أقسم أنها كانت تعنى منه كل حركة .

كان لا يحلو لها الانحناء الا أمامى .. وهى ترتدى قميصًا متسع فتحة الصدر .. وأنت تعرف صدرها المكتنز وتديبها الممثلتين .. فلا تكاد تتحنى حتى تتسع فتحة القميص ويسقط ثدياها الثقيلان ككرائتين من العجين . وأحس بريقى يجف وبالدم يتصاعد الى وجهى ولا أملك الا الفرار وأنا ألتهت اضطرابًا ونشوة .

أما جلستها فقد كانت تحكمها فوق الأريكة ، ثانية احدى ساقبها تحت ردفها ، ثانية الساق الأخرى وركبتها الى أعلى بحيث أستطيع أن أبصر بسهولة باطن فخذيها حتى حافة السرورال المشغول بالنتننة .

وهكذا بدأ الهجوم بعرض الأوضاع .. الفاتنة الفاتكة .. ثم أخذ يتدرج .. باشتراكك معها .. فى فتنتى واغرائى ..

كنت أستيقظ فى الصباح فأسمعك تناديني من حجرتك طالبًا كوب ماء .. تناديني أنا وحدى .. نون سائر الخدم .. فلا أكاد أدخل عليك بالكوب حتى أفلجًا بك فى الفراش وهى فى أحضانك وقد تبعثرت ثيابها الداخلية على الأرض .. مفسرة قطعة قطعة ، فلا أكاد أغادر الحجرة .. حتى أخذ فى تصور كل شيء . أكنت تظننى طفلًا .. أم أبله .. أم كنت تعنى تدميرى ؟

لقد كانت تدخل الحمام لتستحم .. فلا تكاد تمضى بضع دقائق حتى

تصفق بيديها في طلب حاجة .. لوفة .. أو صابونة أو قطعة من الملابس ..
فإذا لم تجبها الخادمة .. أمرتني زجرا بأن أذهب لأعطيها ما تطلب . وأقف
على باب الحمام أطرقه وجلا ، فإذا بها تأمرني بالدخول ، فأدخل لأجدها
عارية تماما وقد جلست على كرسي الحمام وأخذت تصب الماء على جسدها
البض المتكزز ، وتمديدها فتأخذ الثياب ، وأخرج بعد ذلك ملوما محسورا ..
تلك هي سلسلة التعذيب التي كانت تحطم أعصابي وتطيش لبي ..

ولم يكن أمامي سوى مسلك واحد أندفع فيه .. وهو المسلك الذي يندفع
إليه الصبية في دور المراهقة .. وكان اندفاعا جنونيا ، لا يخطر على عقل
بشر .. حتى صرت كما أنا الآن .. حطام ذهن وبقايا جسد ..

وكان الشيطان كثيرا ما يهيبني لى أن أقدم عليها .. وأن أندفع فأقضى
منها بغيتي .. ولم يكن يبدو لى أن ذلك يغضبها أو أنها تمنع في ذلك .. ولكنني
كنت أخشاك .. كنت أخافك جدا .. فقد كنت أراك عاتيا جبارا .

وهكذا وجدتك حائلا بيني وبينها ، بل بيني وبين كل شيء ، وكلما ازداد
الاغراء ، ازدادت الرغبة ، وازداد كرهى لك ، حتى استقر بى ذهنى المجنون
على أن أزيحك من طريقي ..

ولم أكن أعرف كيف أدير الأمر .. بحيث لا تحوم حولى شبهة وبحيث
أستطيع أن أمتع بحباتي وحريرتي وبمالك وامراتك .

ومر بذهنى خاطر خيل الى أنه قد ينيلنى بغيتى وصممت على أن
أجربه .. وكنت فى حاجة الى مساعدة الأقدار .. فقدمت الى المساعدة وليس
أسهل على الأقدار من المساعدة فى الشر والجرم .

كانت الخطة غاية البساطة ، فقد كنت تعود الى المنزل ليلا وكان عليك
دائما أن تعبر الممر الكائن بين باب الحديقة وباب المنزل . وكان يتوسط هذا

الممر فتحة ، بكابورت ، ولم يكن على الا أن ارفع غطاء الفتحة وأنزل
المصباح الكهربائى الذى يضيء الممر ، وأترك الباقي للأقدار .. فقد
تساعدنى .. على التخلص منك .

وأنت أدرى بما حدث .. أدرى بعودتك ومحاولتك اضاعة المصباح
وبسيرك وسقوطك فى الفتحة ومساعدة الأقدار لى بتهشيم رأسك وموتك فى
التو والحين ..

أدرى بحملك وتغسيلك وتكفينك ..
أدرى بوضعك فى النعش والصلاة عليك ..
أدرى بوقوفى مطلق السراح أتقبل عزاء الناس فيك .

وسرت وراء النعش حتى المقبرة ورأيت اللحد يزيح الأتربة ويرفع
الحجارة عن مدخل القبر وأخذ يرش المياه حوله بقربة وراء ظهره .. ووقفت
أرقب المقرنين يهتزون بمنة وبسره وهم يستمطرون عليك شأبيب الرحمة .

وأخيرا .. انتهى كل هذا .. وهبطوا بجسديك الى قرار القبر ورسوا
على فتحة الحجارة المستطيلة وهالوا عليها الثرى .

ورحل الجميع ورحلت معهم .. ولكنى تسللت من بينهم وعدت اليك ..
ووسط الظلمة ووقت أرفع الثرى وأزيح الحجارة ثم أدلى بجسدى فى المقبرة
وأهبط اليك .. لأقضى اليك بخبيثة صدرى وأشرح لك ما خفى من أمرك
وأمرى .

أيها الجبار العاتى .. ما عاد جبروتك يخيفنى .. سأصعد الآن ..
وأذهب آنا مطمئنا .. أتدري الى من ؟

الى امرأتك .. الغضة البيضاء .. الطرية اللدنة .. انى أصبحت صاحب
العمال والحوول والطول .. صاحب كل ما تركت ..

وفى تلك اللحظة .. كان اللحد يرقد على فراشه العتيق فى كوخه البالى
وسط المقابر .. وكان صبيه يرقد بجواره وهمس الفتى فى تكاسل :

بخيل لى أنى أسمع صوت صراخ ألا تسمع شيئا .

- نم .. نم لست أسمع شيئا ؟

- لقد وجدت المقبرة التى وضعنا فيها الميت اليوم مفتوحة فأعدت
الحجر الذى نزع الى مكانه .

- قد يكون أحد اللصوص فتحها ليسرق الكفن .. نم .. نم .. كفى
ثرثرة .

وأغمض اللحد عينيه وأخذ الصوت يتضاءل شيئا فشيئا حتى خفت
تماما . وهكذا لحق الابن بأبيه .. وسوى العاجز مع القدير .. وصاحب الرمة
مع صاحب العمر الطويل .

باللوقت ويا للقدر ..

باللوقت الذاهب فى غمضة عين .. وبالقدرة الضائعة بين عظام نخرة
فى قبر بفقرة .

سأنام معها فى نفس فراشك .. وسأتمتع بمنظر ثيابها الداخلية .. مبعثرة
فى أرض الحجر .. اتسمعنى .. انها قد أضحت ملكى ..

لتذهب الى الجحيم .. أما أنا فانى صاعد الى ظهر الأرض صاعد الى
الحياة والنعيم .

ولكن ما هذه الظلمة التى تحيط بى .. انى لا أستطيع أن أتلمس
طريقي .. لقد كان ثمة ضوء ينفذ الى من الفتحة التى دخلت منها .

ويحى .. انى لا أجد الفتحة .. لقد كانت هنا .. كنت أرى منها السماء
وضوء النجوم .

أين ذهبت .. لقد سدت ..

أجل سدت .. لقد عادت الحجارة الى مكانها وانهاى عليها التراب ..
افتحوا .. أيها السفلة .. المجرمين .. افتحوا انى أريد أن أذهب الى الحياة ..
والى النعيم .

آه .. أيها الشرير .. انك أنت الذى أغلقت القبر على لأشاركك
نومتك .. ولكن لا .. لا .. لا يلد أن أصعد .. والا لأمزقن جسدك شر ممزق .

أجل .. انك عاجز .. وأنا صاحب قدرة ان بيننا فارقا كبيرا .. بيننا حياة
طويلة مديدة . انك تحت رحمتى وتحت سطوتى .

افتحوا هذا القبر .. افتحوا فأنا حى .. افتحوا .. افتحوا .. فبينى وبين
هذا الميت فرق شاسع من الوقت والقدرة ..

افتحوا .. افتحوا .. أيها المجانين .. أنا حى .. أنا حى .. لا تتركونى
له .. أخرجونى .. أخرجونى ..

★ ★ ★

بِاللَّعِينَةِ

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطَى
الْدَّارَ ﴾ .

« قرآن كريم »

هذه قصة حياة امرأة وقعت خاتمتها في أيامنا هذه ، أما البداية فحدثت
في زمن غير وعهد مضى .

ولشد ما أنا حائر في سرد قصتها ، كيف أحشرها في بضع صفحات ،
وهي تاريخ كامل لجيل بأسره ؟

لنبدأ من البداية الأولى . منذ مولدها في عام ١٨٨٠ ، نعود القهقرى
سبعين عاما الى حي المغربلين حيث كانت تقوم قصور الأعيان والتجار
وأثرياء الأتراك ، فندلف في أحد القصور لنشهد مولدها من أب مصري وأم
تركية ..

كان أبوها الحاج محمود العطار ، رجلا من كبار تجار العطاراة ،

وكانت أمها امرأة جميلة من عائلة تركية عريقة النسب .

ولدت « أميرة » .. لتجد نفسها محاطة بكل مظاهر العز والثراء ، وريثة جاه عريض ومال وفير من الأب ووريثة جمال وكبرياء ودم أرستقراطي وأصل عريق من الأم .

ولا أظن الوقت يتسع لكى نتتبع طفولتها وصباها ، على مقل ولكى نخوض فى تفاصيل حياتها ، ولكن كل ما يمينا نكره هو وفاة أبيها بعد بضعة سنوات من ولادتها وقبل أن تفهم هى ماهو الموت وما هو الحزن ..

وشبت الفتاة تتطلع الى المستقبل وملء نفسها الثقة والأمل ، وقد زودتها الحياة بأمضى أسلحتها : الفطنة والجمال والثراء الوفير .
ولاح فى الأفق الزوج المنشود ، وتوأم النفس وشريك الحياة ، توأم مثالى ، وشريك نموذجى ، يلائم ما حف بالفتاة من جمال وامارة وسلطان ، وما حبتها به الدنيا من حظ سعيد .

وتقدم لخطبتها السيد محمود صديق ابن المرحوم صديق باشا صاحب أبيها الوفى وصديقه الحميم ، ولم يكن الفتى ليقبل عنها حظا من الحياة ، فقد كان وحيد أبيه الراحل ، ووارث جاهه وماله وطيب أصله وكرم محتده ، وكان الفتى نبيل الخلق جميل المظهر فطنا ذكيا ، وكان - بغير مال أبيه - شخصية لها مكانتها واحترامها فى المجتمع المحيط . وتمت الخطبة وتوثقت عرى الحب بين العروسين وأخذوا يستعدان للزفاف .. وسار الزورق ينساب فى هدوء واسترسال بلا أنواء ولا موج ولا رياح هوج ، ولا يشتم فى الجو رائحة غبار ولا يبدو فى الأفق أثر سحب .. بل كان ما هنالك صحو فى صحو وصفاء فى صفاء ..

وحدد موعد الزفاف .. وكان القدر أوشك أن يفرغ من نقش أبدع لوحاته ، وينتهى من تسطير أهدأ أقاصيصه ، ويختمها أسعد خاتمة .. ووقفت أميرة (هانم) فى غرفة نومها وسط الحانكات تقيس ثوب الزفاف الدانتلا

- يجب أن تتعلم كيف تتحدث عن سادة القوم .
وهكذا كانت تحس دائما أنها من السادة ، وأن لها كرامتها التى يجب ألا تمس ، وكبريائها التى يجب ألا تخدش .

الأبيض وتدور بكبرياء أمام المرأة ، وعلى أحد الأرائك جلست أمها ترقبها
فى عطف وحنان وأغرورقت عيناها وهى تقول لها .. مبروك يا أميرة .

وتتمنى بينها وبين نفسها لو كان أبوها حيا لير أميرته الرائعة .

ولا تكاد الفتاة ترد تهنئة أمها حتى يسمع صوت وقوف عربة وصهيل
جياذ وطرق على الباب الخارجى ..

وتتحرك أميرة وعليها ثوب الزفاف فتقف وراء المشربية لترقب
الطارق من خلال الثقوب الخشبية ، ثم تقول وهى تتجه الى باب الغرفة ..
انه « عم على » خادم محمود ، ماذا أتى به يا ترى ؟

وأقبلت احدى الخادميات لتقول ان « عم على » يريد رؤية الست
الكبيرة ، فنصيح بها أميرة فى لهجتها الأمرة .. دعيه يصعد .

ويصعد عم على بجسده المنحنى وذقنه البيضاء المسترسلة ، وقد تناقلت
خطواته وتلاحقت أنفاسه ..

ووقف أمام السيدتين كأنه كلب يلهث ثم همس بصوت مبجوح :

أريد أن أقول شيئا للسيدة الكبيرة .

ويلوح فى عينيه احمرار وارغوراق ، ويسود الجو سكون مخيف
يقطعه صوت أميرة حادا قاطعا :

- قل ما تريد قوله ، انى لا أخشى سماعه ، ماذا حدث لسيدك ؟

وينطق الرجل :

سيدى محمود بك .. الله يرحمه ..

ثم يخر متهاويا على الأرض وهكذا ينهى القدر لوحته فجأة .. فيجرى
عليها بفرشاته فى عبث الأطفال .. مفسدا كل ما رسم ، ويختم أقصوصته

ساكبا المحبرة على كل ما كتب .

ويندفع القوم فى بكاء ونحيب وولولة ، الا مخلوقة واحده لم تجد عينها
بدمعة واحده ولم يختلج وجهها ببادرة حزن .. وهى أميرة فقد وقفت شاحبة
الوجه جامدة العينين شاردة البصر ، كأن الأمر لا يعينها ، لم تقبل أميرة تعزية
ولا رثاء ، وصرفت عنها القلوب الواجفة والنفوس المليئة بالحزن الفياضة
بالعطف والحنان وأمرتهم أن ينصرفوا الى أعمالهم ، وأن يدعوها وشأنها ،
حتى أمها أبت أن تتلقى منها كلمة عزاء وانصرف الجميع ولم يبق فى الحجرة
الا هى والخادم العجوز الذى حطمته الفاجعة ، ووقفت تسأله فى لهجة هادئة
عن التفاصيل .

ولم يكن هناك تفاصيل ، فقد حدث كل شيء بغنة على غير ترقب ولا
انتظار ، كما قال الخادم بصوته المتهدج المنقطع :

- لقد عاد قبل الظهر وكانت تبدو عليه آيات الصحة والهناء وأنبأنى
أن الليلة هى ليلة الزفاف وأنه أعد كل شيء حتى تذكرتى السفر الى الأقصر -
حيث تنويان أن تقضيا شهر العسل - قد ابناعهما وحجز ديوانا خاصا ، وطلب
منى أن أشرف على الاصلاحات التى تجرى بقصر الحلمية ، الذى سنقطنان
به بعد عودتكما من الأقصر وقال لى انه يريد أن يجد القصر معدا عند عودته ،
وأنتى مسئول أمامه عن أى تقصير ، ثم ذهب الى حجرة نومه ليسريخ وفى
الساعة الرابعة سمعت تأوها يصل الى أذنى من حجرته ، وتملكنى العجب !
وأسرعت الى الحجرة فوجدته منسجما على احدى الأرائك وقد شحب وجهه
وبردت أطرافه ، وتلاحقت أنفاسه ، كأنه مكروب الصدر أو كأن هناك من
يطبق على عنقه .. وسألته عما به .. وهممت بالخروج كى استدعى طبيبا ،
ولكنه أمرنى بصوته انخافت أن أبقى ، وهز رأسه قائلا : « لا فائدة » . ثم طلب
منى أن أحمل اليك هذا الخاتم وهاتين التذكريتين اللتين ابناعهما للذهاب الى
الأقصر ، وأنبأنى أن أستمر فى اعداد بيت الحلمية لأنه سيتبركه لك بكل ما

فيه .. لقد كان يعده لك .. وسيظل لك وبعد لحظات أسلم الروح بين يدي ، وانتهى كل شيء .

وانصرف الخادم ، وآوت العروس الى حجرتها أخيرا .

لقد كانت الضربة قاصمة ، والمصاب فادحا ألينا ، وبدا لها أن الأمر كله لا يعدو حلما مروعا ، أو وهما مخيفا .

لقد هزأ بها القدر وسخر منها ، وجعلها تأسى له ثم طعنها طعنة نجلاء لكي يذل كبرياءها ، ويمرغ أنفها في الترى .

ولكنها لن ترضخ ولن تذلل ولن تهون ..

لقد جلست في حجرتها وأخرجت من قمطر بها صورة لعريسها الراحل ، وأخذت تتأملها في صمت .

لقد كانت في طفولتها تخجل من البكاء أمام الناس ، وكانت تعدو الى حجرتها وتخلو الى نفسها ثم تندفع في البكاء منفسة عن كربها .. والآن وقد أصيبت في الصميم ، وحرمت من رفيق العمر وتوأم النفس . وبعد أن حاولت جهدها أن تتماسك أمام الناس وتتجدد ، ألا تبيح لنفسها فترة بكاء تطفىء بها حرقة الفؤاد وتهديء بها لوعة النفس ، وهي وحيدة في غرفتها ، لا يرقبها أحد .

أم أن القدر ، الشامت الساخر ، يرقبها مثلها ليرى كبرياءها تذلل ، ويراهما تترنح كالذبيحة .

لا ، لا .. يجب ألا تستسلم أو تخفض الرأس يجب أن تقاوم وتظل مرفوعة الهامة ، ولا تدع شيئا يحطم كبرياءها .

وأمسكت بالصورة تحديق فيها وقد شرد بها الذهن وأخذت تهمس ..

سأتصبر على فراقك وأتجدد ، لا أظننى سأجد صعوبة في ذلك ، فأننى لا أشعر قط أن هناك من يستطيع التفرقة بيننا ، حتى ولا الموت ، انى لن أشعر بفقدك أو غيابك ، فأنت دائما معى ، فى قلبى وفى ذهنى .. ستبقى أنت كما أنت ، لن تغيب عنى لحظة واحدة ، ولكنى أحس بالحزن يفتت قلبى من أجلك أنت ، لا من أجلى .. من أجل هذا الشباب النضير والحياة المتدفقة .. من أجل آمالك الحلوة ، وأمانيك التى لا حد لها .. كيف يطوى كل هذا فى حفرة مظلمة ؟ كيف يغلق القبر على ضحكائك الرنانة وصوتك المرح ؟ كيف تحرم من الحياة ومن النعيم ؟ كيف تصم أذنك عن الألحان العذبة والأنغام الجميلة ؟ وكيف تغلق عينيك عن خضرة الروض ونضرة الزهر وصفو السماء وضوء القمر ؟ ما قيمة كل هذا ان لم تسمعه أذنك وتبصره عينك ؟ ذلك هو ما روعنى ، وحطم قلبى ، ذلك هو ما ملأ نفسى لوعة وأسى ، من أجلك أنت ، لا من أجل نفسى .. أود أن أبكى ، ولكنى لن أبكى ، لن أذرف دمعاً واحدة .. سأتجدد على فراقك حتى نلتقى ثانية .

وكانت الفتاة عن وعدها ، فما صاحت وما ناحت ، وما ابتلت مآقيها ، بل كانت كعود يابس أو جلمود صخر .

ودهش أهل الدار عندما أنبأتهم بعد بضعة أيام برغبتها فى الانتقال - وحدها - الى بيت الحلمية ، الذى خلفه لها زوجها الراحل .. وذهلت أمها ، وقالت لها وكأنها تخاطب انسانا به جنة :

- كيف تفعلين هذا ؟ ما ا يقول الناس عنك ؟ فتاة مثلك تعيش وحدها فى قصر متسع كهذا ، وقصر من .. ؟ قصر زوجك الذى ما زال جسده دافنا فى قبره ، كيف تحتملين البقاء فيه ؟

ومع ذلك فلم يجد معها نقاش ولم يفد معها نصيح .. فقد انتقلت الى البيت الذى كان مفروضا أن تعيش فيه مع زوجها ، وجعلت كل شيء فيه كما كان

يجب أن يكون ، كأن صاحبه وصاحبها لم يفارق الحياة ولم يطوه باطن الأرض .

وفتح البيت على مصراعيه وهيبء بما يلزمه من خدم وحشم وعربات وسياس ، ولم تنطو أميرة في داخله ، بل ملأته بالحركة والحياة ، والولائم والاجتماعات والدعوات .. وأخذت تصرف عن بذخ .. وتبرز في المجتمع .

وأحاطتها الاشاعات والتقولات .. ولدغتها السنة السوء .. فمن قائل أنها تستغل القصر والمظاهر للحصول على زوج من الأمراء ، ومن قائل أنها تهدف الى مطامع سياسية ، ومن قائل أن بينها وبين فلان أو إعلان علاقات خفية ، الى غير ذلك مما كان لا بد أن تتعرض له وقد فعلت ما فعلت .

ومع ذلك ما لبثت الاشاعات أن تأكلت وانقرضت عندما قرعتها الحقائق الجليلة ، وعندما تقدم لخطبتها بعض الراغبين في ثراء جاهز ، وقصر معد ، وحياة هيئة لينة ، ولكنها صدتهم الواحد بعد الآخر ، وأفهمتهم أنها لن تتزوج أبدا .

وخرست ألسنة السوء ، عندما وجدوا أن نشاط المرأة قد بدأ يغزو نواحي الخير والاصلاح ، وأنها أخذت تكرر جهودها وأموالها وتستغل اجتماعاتها وولائمها وصلاتها بكبار القوم في انشاء الملاجيء وعمل المنشآت الخيرية لمعاونة الفقراء .

وأخذت بعد ذلك تصدر مجلة تطالب فيها بحق المرأة ورفع الحجاب ، وأخذت جهودها تبرز في المجتمع .

وهكذا شغلت المرأة بحياتها العامة الحاقلة . ولكن اندماجها بين الناس ونزولها الى ميدان الكفاح والجهاد لم يستطيعا أن يخففا من حدة كبريائها وأنفتها وميلها الى مظاهر الارستقراطية والسيطرة والعظمة ، واستمرت في حياتها في البيت أميرة ، تحافظ على المظاهر والتقاليد ، وتجبر الخدم على خفض

الرؤوس وحنى الظهور والتقهقر أمامها بوجوههم .

ومرت السنون ، وأميرة هانم ممعنة في حياتها المجاهدة ، ولست أنوى أن أسرد تاريخها الحافل في خمسين عاما ، فهو تاريخ أمة ، ومن العبث أن أحاول - كما سبق القول - حشره في بضعة صفحات .

لندعها تحيا حياتها ، بين الجمعيات الخيرية ومشروعات البر وعمل المستشفيات والملاجيء ، ولندعها تخوض غمار الثورة المصرية وتشترك في كل جهاد ، ولندع السنين تعدو حثيثات سراعا بحروبها وسلامها ، وثوراتها وتقلباتها ، حتى نقف أخيرا في عام خلا لنبحث فيه عن أميرة هانم ..

انها الآن في العام السبعين ، مازالت تقطن في قصرها في حى الحلمية .. حياتها كما هي ، كأن الزمن ما مر بها وكأن السنين ما ولت . تعيش في قصرها القديم كأنها من أهل الكهف ، لم تحس بتغير الدنيا بل يخيل لها أنها لم تلبث بها سوى يوم أو بعض يوم ..

« وكلبها باسط ذراعيه بالوصيد ، ولم يكن كلبها سوى عم على خادم محمود العتيد وقد بلغ نيفا ومائة عام ، وما زال يتخذ مجلسه بجوار الباب كالكلب الأمين .

أما بقية الخدم فهم هم . لم يتغير منهم واحد ، تقدم بهم الزمن وهم في الدار كأنهم أشجار في الحديقة ، وقد أحبوا سيدتهم رغم امارتها وقسوة كلامها .. لم يشذ منهم أحد ، كانوا كلهم سواسية من أهل الكهف نموا معا دون أن يشعروا بالزمن ، ودون أن يشعر أحد منهم بتغير صاحبه .

عم بخيت الطاهي ، وجرمون سائق الحنطور ، وبخيت السانس وسعيد البستاني ، وهانم وأم نجية وزهرة والجارية وعديلة هؤلاء كانوا طقم الخدم الذي يتولى العناية بربة الكهف ، وأضحى القصر بأهله الارستقراطيين نشازا في حى الحلمية الذي انحدر به الزمن فلم يعد أهلا لتلك الارستقراطية .. وقام

بجوار القصر بيوت متواضعة وحوانيت كان بينها مبيض النحاس والطعمجي وياتع اللب وعصير القصب ، التي لم تكن تتناسب قط مع أميرة هانم وعربتها المطهمة وجرمون وثيابه الأثرية المزركشة .

وخف نشاط السيدة في المجتمع ، فقد تبدد مالها وضاع جهدها ، ولم تعد تقوى على الخروج الا لماما ، وقصرت نشاطها داخل الدار .

وشكت أم نجية ، وهي خادمتها الخاصة من ألم في الظهر فأمرتها السيدة بأن ترقد في فراشها ، ولكن أم نجية التي لم تتخلف قط عن سيدتها منذ خمسين عاما أبت الرقاد .. فصاحت بها السيدة غاضبة ان أوامرها يجب أن تنفذ .. رقدت أم نجية . وعلم الخدم في الصباح أنها هي التي سهرت على خدمة أم نجية في تلك الليلة .

وأبليت الخادم بعد بضعة أيام ، ولاحظ الخدم شحوبا على وجه السيدة ، وأخذ يقلقهم منها نوبات سعال شديد تصيبها بين أونة وأخرى .

واستمرت السيدة في حركتها الدائبة داخل الدار وخارجها ، واستمر الشحوب والسعال في الازدياد حتى تشاور الخدم فيما بينهم وصمموا على أن يطلبوا من السيدة الرقاد .. ويعلنوها بعزمهم على احضار طبيب ..

وتطوعت أم نجية لتبليغ القرار ، وقالت لسيدتها وقد انهمكت في عمل بعض صديريات من الصوف لاحدى المبرات :

- يجب أن ترقدي ياسيدتي ، فأنت في حاجة الى الراحة ..

- من قال هذا ؟ اني في تمام صحتي .

- ولكن ..

- ليس هناك ، لكن ، اذهبي لعملك .

- ولكن رقدت في الفراش عندما امرتني بالرقاد ..

- لأن الخادمة يجب أن تستمع لأمر سيدتها .

وانصرفت أم نجية بخيبة رجائها ، وأخذ الخدم يهزون رؤوسهم اسفا ويأسا .

وفي المساء دخلت السيدة الى حجرتها ، وقبل أن تأوى الى فراشها فتحت قمترا ، وأخرجت منه صورة عتيقة صفراء وأخذت تحديق فيها برهة ثم نظرت الى المرأة ، وأخذت تقلب البصر بين الصورتين ، صورة الشاب المليء بالقوة والحياة ، وصورتها التي تبدو في المرأة بيضاء الشعر مجعدة الوجه معروفته ، وقد أودى الزمن بكل ما كان بها من نضارة وازدهار فبدت كالورق الجاف . وهمست المرأة قائلة :

- آه لو كنت أعلم ، ما حزننت من أجلك قط ، لقد نجوت بنفسك من سلطان الزمن ، وخرجت عن دائرة نفوذه ، انه لم يعد له عليك سيطرة ولا تأثير .

ما أجهلني وقد ظننت انك حرمت متع الحياة .. أفي الحياة متع أم « تعب كلها الحياة » وشقاء وتعاسة وجهد ضائع ؟

انك ما حرمت الا من التعب ، لقد وفرت على نفسك مشقة عدو السنين وعدوها وراءك ، بعد حين سأخرج كما خرجت ، سنتساوي في النهاية ، وان لم نتساو في طريقة الوصول . لقد خرجت سليما معافى .. وسأخرج محطمة مهتمة مكدودة منهوكة .. آه لو علمت لحسدتك على الموت .

وروضت شفتيها على الصورة ثم همست :

- أسمع لشفتي الجافتين أن تمسا شفتيك النضرتين ، أيمكن ان تحتمل

تجاعيد وجهي ، أيمكن أن تغفر لي ما فعل بي الزمن وما جلبته السنون . ثم

أعادت الصورة الى القمطر وأوت الى فراشها .

وفي الصباح ذهل الخدم عندما أنبأتهم سيدتهم بأنها مسافرة ، وطلبت

الصمت .. واقتربت من عربة الدرجة الأولى ، ورفعت قدمها لتضعها على درج الباب .

وفجأة ترزحت السيدة ثم تهاوت على الأرض جثة لا حراك بها . واندفع اليها الخدم باكين مولولين ، وحمل أحدهم حقيبة يدها التي سقطت منها، وقد فتحت وتناثرت محتوياتها . وأخذ في جمعها لاعادتها الى الحقيبة وكان ضمنها صورة لشاب في مقتبل العمر ، وخاتم ، وتذكريتين للذهاب الى الأقصر بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٠٥ .

لقد دفع السيدة الى الرحيل حنين لا يقاوم .. وهى لم تنس التذاكر ، وان كانت رحلتها تعدت الأقصر ، الى السماء ، رحلة ذهاب بلا اياب ، حيث لقاء التوأم الراحل مؤكد مضمون - ترى كيف يكون اللقاء أترى الزمن سيمحو عنها آثاره فيلتقيان على قدم المساواة . أم أن الكاسب هو السابق الى الرحيل .. ؟

من أم نجية أن تعد لها الحقائب لسفر طويل .

وانهمر الدمع من عيني أم نجية وقالت متوسلة :
- انك لا تستطيعين السفر يجب أن ترفدى ياسيدتى .

وصاحت بها السيدة فى لهجة أمرة :

- عجبا ، منذ متى ترفضين اطاعة الأمر ؟ انبئى جرمون بأن يعد العربة للذهاب ، وأن يسأل لى عن موعد القطار الذاهب الى الصعيد ولم تجد الخادمة بدا من تنفيذ الأمر ، وعادت تسألها عن تريد أن يسافر معها من الخدم فأجابت باقتضاب :

- سأسافر وحدى .

ولم يكن هناك فائدة فى المناقشة ، وفى الساعة الثالثة شاهد أهل الحوانيت المجاورة للقصر ، جرمون يرتدى حلته الرسمية ، وتحركت العربة تحمل السيدة العجوز ووراءها عربة أخرى تحمل الحقائب وبعض الخدم . ووصل الموكب الى المحطة ، وكان منظره غريبا على روادها ، وأخذ الناس يحملقون فى السيدة العجوز المنيدة القائمة المرفوعة الرأس ووراءها السائق العجوز بحلته المزركشة بالقصب وبضعة خدم عجائز يهرولون حولها ويفسحون لها الطريق .

ودلقت السيدة من الباب الحديدى المؤدى الى القطار وحولها الموكب العجيب والحارس الذى يرى التذاكر مأخوذ مشنوه ، وعندما ابتعدوا عن الباب التفتت اليه جرمون ثم همس فى أذن السيدة منكرا .

- سيدتى : انك لم تبتاعى تذكرة .

ونظرت اليه السيدة نظرة زجر وتأنيب جعلته يطرق برأسه ويخلد الى

جرّيمة

﴿ انا من المجرمين منتقمون ﴾
« قرآن كريم »

كانت لى به صلة وثيقة فقد كان تسلّيتى الوحيدة فى البلدة المقفرة ..
وعندما كانت تجبرنى دواعى العمل على قضاء بضع ليال فيها أنجز خلالها
ما أود انجازه .. كنت أنجأ اليه كلما وجدت من وقتى فسحة فنقضى هزيعا
من الليل نسمر أمام الركية التى أشعلها داخل كوخه المتواضع .

وكان محدثا ماهرا وقاصا ممتازا .. بلغ من العمر عتيا ، ومع ذلك فما
زال محتفظا بمتانة بنيانه ، ومازال يقوم بعمله كشيخ للخبراء على أتم وجه .

وعندما ذهبت الى البلدة آخر مرة بدا لى كأن هناك شيئا قد تبدل فيها ..
ولم يكن لى فى بادئ الأمر فرصة للتفكير فى كنه ذلك الشيء المتبدل ..
أو الذى أحسست بنقصه من البلدة .. حتى ضمنى المجلس المعتاد بالشيخ
ابراهيم .. وهنا تذكرت فجأة ذلك الشيء الذى افتقدته فتساءلت فى دهمش :

- أين « لهلوبه » ياعم ابراهيم ، لعلها تكون قد هربت كعادتها .
- لهلوبه .. تعيش أنت يا سيننا اليه .. حياتك الباقية .
- ماتت ؟ عجيبة ، كيف ؟

- محروقة ، حرقت نفسها الله يرحمها ويرحمنا جميعا . الفاتحة على أمواتنا .

ومضت ثوان ونحن نتمتم بهمسات خافتة ثم رفع الرجل كفيه ومسح بهما وجهه ، ثم أطرق محققا فى النيران التى انبعث ضوءها من أسفل فغمر لحيته المسترسلة وأبرز تجاعيد وجهه . ثم انطلقت من صدره زفرة طويلة وقال بصوت عميق خافت : دنيا !

ووجدتني أحدى أنا الآخر فى النيران ، فأتصور لهلوبة بعينيها الزائغتين ونظراتها الشاردة ، وشعرها الأشعث المتطاير ووجهها الدائم الفزع وقسماتها المرشحة الوجلة وثيابها المتهدلة الممزقة التى تكشف عن صدرها وكنتفها وقد تكأكا حولها الصبية يسخرون منها ويهزؤون بها ، متخذين منها أضحوكة وتسلية مستثيرين غضبها بكل ما لديهم من وسائل السخرية والسباب فلا تكاد تنهجم عليهم حتى يضحوا بها فى صوت واحد .

« اوعى النار يا لهلوبة ، فلا تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تصرخ صرخة مدوية وتبدو فزعة كأنما توشك حقا أن تقذف الى جحيم مستعر ، ثم تولى الصبية ظهرها وتنطلق تسابق الريح ، كأن الجن فى أثرها .

ويصفق الصبية طربا ، ينطلقون فى أثرها صائحين مهللين حتى تختفى عن أعينهم هاربة بين المزارع وهى تعود ككلب مذعور .

وكنت أعلم أن الشيخ ابراهيم من أكثر أهل البلدة عطفها عليها وبرها بها ، وأنه كان يهىء لها المأوى ويطعمها من جوع ويؤمئها من خوف فى الفترات المتقطعة التى تظهر خلالها فى البلدة عائدة من المزارع بعد أن تحس قارصة الجوع ويزول عنها أثر الذعر الذى سبه لها الصبية العابثون .

وهزرت رأسى فى أسى وقلت :

- مسكينة .. أبعد كل هذا الذعر من النار والهرب من الحريق .. تموت محروقة .. يبدو لى أن حياتها لها قصة فهل تعرف عن ماضيها شيئا يا شيخ ابراهيم ؟

- لقد كانت امرأة مجنونة .

- أعنى قبل أن تجن .. أما كنت تعرفها قبل ذلك ؟

ومضت فترة صمت تملك الرجل خلالها شرود شديد ، ثم سمعته يقول بصوت خافت كأنما يحدث نفسه :

- أعرفها ؟ أعرفها تماما ، عندما كانت أرجح النساء عقلا وقلقا وعندما كانت أسعد أهل الأرض طرا .

كانت زوجة هائلة قريرة النفس ناعمة البال .. ليس هناك ما ينغص حياتها الا أمر واحدة .. هو « ضررتها » أو زوجة زوجها الأولى فقد كانت زهرة .. الزوجة القديمة امرأة سليطة اللسان خبيثة النفس ، وكانت تبغض حسنية (وهو الاسم الحقيقى للهلوبة) بغضا شديدا ، رغم أن الأخيرة لم تتسبب فى ايدائها قط ، بل ان الرجل قد هجرها من فرط مرارتها ، ولأنه وجد أن حياته معها قد أصبحت جحيما لا يطاق .

وهكذا لم يكن هناك ما اقترفته حسنية سوى أنها أعجبت الزوج فأقدم على زواجها ، ورأى فيها طيبة نفس وجمال خلق ، فاستراح اليها ، وهذأت نفسه الى جوارها ، ولم يعد يرى الا راضيا هانئا مسرورا .

ونهبشت الغيرة قلب زهرة الأسود ، وبانت تفيض بالحقد والموجدة ، وأخذت تنتهز الفرصة لتوقع بها وتكيد لها ، وكانت حسنية تصبر على أذاها ، ولا ترد لها الكيد ، متوهمة أنها تستطيع كسبها بالحسنى والمعروف .

ومرت الأيام والزواج يزداد من زهرة نفورا ، ولم يعد يذهب الى داره

المرأة وهم شديد . وأحست بجوفها يغنى بمزيج من الفزع والحزن والتحفز والانتقام .

وسقطت الشمس وادلم الليل . وحل موعد عودة الزوج وبدأت تعد الدقائق والثواني . وترهف السمع لكل أقدام تطرق فأرعة الطريق وكل أصوات تقرب من الباب .

وتسلط الوهم عليها ، وبدأ يراود ذهنها خليط من التخيلات المنكرة ، فتصورت زوجها أعضاء محطمة وأشلاء مهشمة .

وانتصف الليل ، ولما لم يعد زوجها ، فأحست أنها توشك أن تجن . وتركت ولدها فى الدار وخرجت تهيم على وجهها ، تسأل الناس متهدجة الصوت متحشجة الأنفاس ، حتى عادت الى الدار قبيل الفجر دون أن تعثر له على أثر .

وارتمت على الأرض تنتشج باكياً .

أين غاب زوجها ؟ وهو الذى لم يعودها الغيبه ؟ ولا سيما بعد أن طلق امرأته القديمة ؟

أيحتمل أن تكون المرأة الشريرة قد نفنت وعيدها ؟

أيمكن أن تقدم على هذا الفعل المنكر ؟

لم لا ؟ انها هى نفسها تشعر أنها تستطيع أن تقدم عليه .

أجل ، ان الحقد والكراهية والرغبة فى النأر تهون كل شر ، انها قد باتت تتلف على أن تطبق على المرأة المجرمة ، القاتلة ، فتقرض زورها بأسنانها وتنهش قلبها ، بل أنه ليس هناك ما يرضيها ويهدى تأثيرتها ويبل حرارتها أقل من هذا الفعل .

ومضى اليوم أغبر منلهما ، وهى جالسة تمسك قلبها بيديها ، انها ما

القديمة الالماماً ، فقد وجد الراحة والاستقرار فى داره الجديدة ، وزاد من ميله اليها وحبه فيها أن وضعت له الزوجة الجديدة ولدا ، ووجدت زهرة أن الأيام تمنع فى التكنيل بها ففرزق ضررتها البنين وتصيبها بالعم . فزادت من حقدها على الحياة ، وكرهها للناس ، وبانت نفسها تجيش بالثورة وأضحت كالجمرة الكاوية ، وضاق بها الرجل ، وبمرارتها وسونها ، حتى كان ذات يوم بلغ يوم السيل الزبى ، فطلقها ثلاثاً .

ولست أدري كيف كان وقع الطلاق فى نفس حسنية ، ولكنها كانت امرأة هادئة عاقلة ، فلم تبد عليها شماته ولا فرحة ، بل على النقيض حاولت أن تهدىء من ثائرة زوجها أو تثنيه عن فعلته ، ولكن الرجل أمرها بالألا تتدخل فيما لا يعنيتها .

وكانت حسنية توجس فى نفسها خيفة ، وتخشى انتقام المرأة الجريحة المكلومة ، وتتمنى لو استطاعت أن تهرب بولدها وزوجها من البلدة ، حتى لا يصيبها منها أذى ، فقد كانت تعلم أنها قادرة على الشر لا تتورع عن أى منكر أو جرم ..

والنقت المرأتان ذات يوم عقب الطلاق ، وتصدت لها المرأة المطلقة ، وقالت لها والحقد يأكل قلبها :

- لقد خلا لك الجو الآن ، فاهنتى وافرحى .

- أنا ما تمنيت لك الا كل خير .

- أنت ، سأعرف كيف أريك ، الأيام نبينا ، سأحرمك منه كما حرمتنى منه ، وسأحرمه من حياته كما حرمتنى من هنائى وسود عيشى ، سأشرب من دمه وأمزق لحمه وأفرى عظامه ، سأريه من منا أقدر من الآخر ، سأيتم ابنك ، وأجعلك تبكين بدل الدمع بما ، أنا وأنت يا حسنية والزمان طويل .

وعادت حسنية الى دارها وقد أفعم الخوف قلبها . وتملكها من تهديد

زالت ترجو ، ما زال لديها بقية أمل فى عودة زوجها ، وفى أنه مازال على قيد الحياة .

وانتهى اليوم أو كاد ، وقبل الغسق سمعت على الباب دقات قفقت من مكانها ، وقلبا يكاد يثب من بين ضلوعها .

ترى من يكون الطارق ؟ لعله هو ! أو لعله .. ولم تجسر على التفكير .. وفتحت الباب فإذا بأحد الخفراء يقف بالباب وقد بدا فى وجهه ما روعها ، وافقدها القدرة على النطق ..

وتحدث الطارق فأنبأها أنهم عثروا على جثة طافية على سطح النهر ، وأنهم لم يستطيعوا تبين حقيقة صاحبها فقد كانت ممزقة الأوصال مشوهة الوجه ، وان كانوا يرجحون كثيرا أنها جثة زوجها .. ولم تنبس المرأة ببنت شفة ، ولم تصرخ ولم تولول ، بل علت وجهها ظلمة قاتمة وهزت رأسها ببطء وأنبأت الرجل أنها كانت تعلم ثم أطرقت ببصرها الزائغ الى الأرض ، وغمغمت قائلة :

- لقد عملتها ، سأعرف كيف أريها ..

ثم أغلقت الباب عليها وجلست برهة ذاهلة شاردة ، ثم نهضت وكأنها اعتزمت أمرا .

وأقبلت على طفلها فأمرته الا يترك الدار حتى تعود ، وأنبأته أنها لن تغيب ، فستذهب الى بيت خالته زهرة وستعود بعد دقائق .

وغادرت المرأة البيت تندب فى الظلام كالشبح ، وقد جمدت قسامتها وجحظت عينها ولم تتجه الى بيت زهرة بل اتجهت الى الناحية المضادة ، ناحية الدكاكين والبسوق ، وتوقفت أمام الببدال فابتاعت صفيحة جاز وعلبة تقاب ثم ميمت وجهها صوب الناحية الأخرى من البلدة ، ساعية الى بيت زهرة .

وكان البيت يقوم فى ناحية منعزلة ، لا يكاد يحيط به سوى بضعة عيdan من الغاب وجنوع النخل ، وكانت الظلمة سائدة وأنجو قد سكنت ربحه ، والدار قد بدت صامتة ساكنة وتلفتت المرأة حولها ثم أنزلت الصفيحة من على كتفها ووضعتها فى وسط الغاب وأخذت تجوس حول الدار موزعة الحطب والغاب وجنوع النخل ، ثم عادت الى الصفيحة ، وبدأت تسكب ما فيها خارج الدار على الجدر والأعشاب والحطب فلم تترك منفذا لهارب ، وأشعلت الثقاب وألقت به على الهشيم .

ولم تمض لحظة حتى سرت النار كلمح البرق ، وارتفع اللهب الى عنان السماء .. وأحاطت النار بالبيت ، ثم انتقلت اليه ووقفت المرأة تبتسم راضية ، وأحست أن قلبها قد ردتته النار ، وهدأ اللهب ، وعادت الى البيت مسرعة لتطمئن على ولدها .

★ ★ ★

وصمت الرجل ووجدته يمد يده بماشة يقلب بها نار الركبة ، فعلا لهيبتها ، وهبت الريح من الخارج تصفر وتعول ، وطال ضمته حتى عدت أستحته : وبعد ذلك ؟

ورفع كتفيه وهز رأسه وقلب شفته السفلى ، وبدا لى أن صوته قد تحشرج وأنه لا يستطيع الكلام ، وكأنه يعانى ألما دقينا ، ولكن زفرة من صدره أعادته الى حالته الأولى ، وسمعته يتمتم :

- لا شىء هناك أكثر من هذا .

- كيف ؟ انك لم تقل لى بعد كيف جنت ..؟

- آه .. لقد عادت لتطمئن على ولدها ، فلم تجده .

- لم تجده ! وأين ذهب ؟

- لقد خشى البقاء وحده فى الدار ، فلحق بها عند خالته زهرة لقد كان

قَوِيلُ الرِّيَامِ

﴿ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا الا
 ماشاء الله لكل أمة أجل اذا جاء
 أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا
 يستقدمون ﴾
 « قرآن كريم »

- لا ، لا . أنا لست مجنونا . حتى اضيع يوما بأكمله من أجل
 « غدوة » .
- ليست المسألة مسألة « غدوة » ، انه واجب لا بد أن تؤديه ، انه
 عمك و ..
- ليس بمعنى
- عم أبيك
- ابن عم أبي
- ليكن ما يكون .. عمل أو عم أمك أو عم أبيك . انه قريبك وليس
 له غيرك ، ولا أظن زيارته كل بضعة أعوام بالشئ الذي يشق عليك .. لا
 سيما أن الرجل قد أرسل يدعونا لزيارته .. وليس من النوق أن نخيب رجاءه .

- داخل الدار ، عندما اشتعلت النار ، لقد احرقته أمه ، هل عرفت كيف جنت ؟
- وتملكني ذهول شديد ، وأخذت أهدق في الكهل وهو يحدق في النيران
 وبنت لى تجاعيد وجهه رهيبه مخيفة ورأيت عبارات تنهاوى من مقتلبيه الى
 أخاديد وجهه .. وعاد يتساءل بصوته المتحشرج :
- هل علمت كيف جنت ؟ ليس هناك فى جنونها أى عجب أما العجب
 حقا . فهو أنتى الآن لم أجن ؟
- أنت ؟ أنت تجن ؟؟ وما شأنك أنت بها ؟
- انى زوجها ، أبو الطفل المحروق ، وزوج المرأه المجنونه ، غبت
 عنهما يومين فعدت لأراه رمادا ، وأراها مخبولة هائمة ، لا تعرف من أكون .
- ولكن ، جثة من كانت اذن تلك التى عثروا عليها طافية فوق النهر ؟
- جثة قتيل آخر .
- وأنت ؟ أين كنت فى غيبتك ؟
- كنت أقتل القتيل .. كنت أكبر الجريمة وأحكم صنعها واخفائها . غبت
 بضعة أيام قتلت فيها غريم لى كنت أبغضه وأحقد عليه . لقد استدرجته الى
 كمين ثم أطبقت عليه فأخمدت أنفاسه ونزعت روحه ومثلت بجسده شر تمثيل
 حتى شوهدت معالمه . ولم يعد أحد يستطيع تمييزه ثم ألقيت بجثته الى النهر ..
- ونفضت يدى من الجريمة والثقة تملأ نفسى فى أن احدا لن يكشف
 أمرها . كانت جريمة محكمة عرفت كيف أخفى منها كل أثر وعرفت كيف
 أحبك الأطراف وأحكم التدبير وأخفى المعالم . ولم يستطع احد من أهل البلدة
 أن يعرف الجانى أو يدل على المجرم ولم يكتشف أحد جريمتى ، ولم ينزل
 بى أحد أى عقاب ، إلا واحد يرمقنى من عال : اكتشف جريمتى وأنزل بى
 العقاب وأى عقاب .

وانتهى محمود وليلى من ارتداء ملابسهما وبدءا رحلتها بالعربة فى الطريق الزراعى . وفى الطريق تساءلت لىلى ضاحكة :

- ترى أما زال بيت عمك مسكونا ؟

- أتصدقين تلك الخرافات ؟

- ألم يقل لنا عندما ابتاعه أن الشائعات تجزم بأنه مسكون وأنه لهذا اشترى البيت والأرض التى حولها - كما قال - بالتراب ؟

- لعل العفاريت تساعد فى العمل فى الأرض .. ان أجر العامل اليوم مرتفع فلهذا يستعيب العفاريت عن العمال .

قال محمود جملته ساخرا ثم استغرق الأثنان فى الصمت مرة أخرى . وأخذت العربة تنهب الطريق وهى تقفز بين أن وآخر اذا ما صادفها مطب .

لندع العربة فى الطريق ولنسبقها الى البيت ، فتجد العجوز قد استلقى فى أحد المقاعد المستطيلة المريحة وقد ارتدى جلبابا أبيض ووضع على كتفه عباءة ثقيلة من الصوف ، وغطى رأسه بطاقيية استقرت حافتها على أذنيه وأخفت كل جبينه وجزءا من حاجبيه ، وبدأ وجهه نحىلا مجددا قد تناثرت فيه الشعيرات البيضاء .. واستقر المنظر على مقدمة أنفه وتهدل شاربته الأشيب على شفتيه ، ومن أسفل الجلباب بدت ساقاه النحيلتان وقد غطتها ساقا التروال الطويلتان .. ودست قدماء فى البنتوفلى الصوف ، وأمسك بيديه إحدى الصحف يقاب عينيه بين أعمدتها ثم أخذ ينظر الى الساعة المعلقة على الحائط بين أن وآخر . وبدت بباب الصالة التى استقرت فيها العجوز أم أحمد الطباخة بجسدها السمين ورأسها المربوط بالمنديل « أبو أوبه » وقالت متسائلة :

- ألم يأت محمود بك ؟

- أنت تعرفين رداءة الطريق وطوله وكثرة المطبات التى به ، قلت لك أنه يجب أن نعتبره واجبا . والواجب ليس دائما بالأمر الممتع السهل .

- ثم أن السماء مليدة بالغيوم والرياح تهب قليلة باردة . ولا أظن النهار سينقضى دون أن تمطر السماء . فماذا تفعل اذا انهمرت علينا سيولا فى الطريق وانقلبت أتربة الطريق أوحالا ، وأصبحت العودة ..

- أرجوك ، كفى تخميننا وتشاؤما . ان السماء لن تمطر والجو عادى . ثم هب أنها أمطرت فلن تمطر الا بضع قطرات لن تغلق الطريق ولن تجعل السير مستحيلا . اننا لم نسمع من قبل فى مصر عن السيول التى تتحدث عنها . أرجوك ، لا تكن مكسالا . انه عمك أنت وليس عمى أنا .. قم وارتي ملابسك حتى لا تتأخر .

- أمصرة أنت على الذهاب .

- قم ، قم . اننا سنتسلى بالسفر كثيرا .

وهكذا أقتعت لىلى زوجها محمود بالسفر لقضاء يوم الجمعة فى عزبة عمه عبد الفتاح بك شلى المسنشار السابق .

والواقع أن كلمة « عزبة » بها شىء من التخميم والمبالغة ، فقد كانت الأرض كلها لا تتجاوز العشرين فدانا زرعت معظمها أشجارا للفاكهة وتوسطها البيت الذى يقطن فيه الرجل ، وهو يعتبر من أفخم البيوت الريفية . وقد ابتاع عبد الفتاح بك الأرض والبيت منذ بضع سنوات عقب حالته الى المعاش .

- وكان الرجل يرغب فى تمضية ما تبقى من حياته فى هدوء وسكينه .. لا سيما وأنه كان وحيدا عاش أعزب بلا زوج ولا بنين لا يؤنس وحدته غير أم أحمد الطباخة التى ظلت فى خدمته منذ ما يقرب من الثلاثين عاما .

- لم يأت بعد ، لعله فى الطريق .

- أو لعله لن يأت .

- لا أظن ، فلا بد أن يكون خطابى قد وصل اليه ، وقد تحدثت عليه

فى الحضور ، فانى أريد أن أثبت فى هذه المسألة التى تشغل رأسى .

- أية مسألة ؟

- أنت تعلمين أنه وارثى الوحيد . ولا بد أن يؤول اليه البيت . وقد

يبدو البيت والأرض ارتثا محترما يستحق أن يشكرنى عليه . ولكنى فى الواقع

عندما أدخلت الى نفسى أحس بشيء من تأنيب الضمير عندما أفكر أنى سأفرض

عليه هذا البيت المشؤوم ، وأن هذه الشائعات التى تحيط به قد تصدق فيصيبه

شؤمه وتلحق به لعنته .

- إذا كنت تخشى عليه منه فلم لا تبيعه ؟

- اننى لا أريد أن أبيعته وأنا حى ، فأنا لا أخشى على نفسى منه ، بل

انى فى الواقع شغوف بأن أرى التجربة بنفسى .. وأرى ما اذا كان هذا الشؤم

المزعوم سيصيبنى ، أم هو لا يزيد عن حديث خرافة وشائعة مرجف ، انى

لأرى نفسى خير محل للتجربة فقد شارفت على السبعين ولا أظن نهايتى

ستتأخر كثيرا . ولذا فلمت أهتم كثيرا بالطريقة التى سأنتهى بها ، ولا

يزعجنى بتاتا أن أموت على الفراش فى هدوء وسكينة أو أموت - كما هو

مفروض على كل مالك لهذا البيت - موته عنيفة .. فسواء عندى الموت

العنيف أو الطبيعى ، كلها موته ستنتهى بنا الى نفس المآل ولست أخشى النهاية

لأنى قد شارفتها ولكن الذى أخشى عليه ، هو المسكين الذى سيؤول اليه هذا

البيت ، انه ما زال شابا .

- اذن فليبعه هو .

- لا أظنه سيرضى ، حتى لو صدقت الشائعة على .. وانتهيت الى

مصير أسلافى من ملاك البيت ، فالانسان عندما يكون فى مثل شبابه وفى

مثل حيويته يصعب عليه أن يصدق هذه الظنون ، ولا يملك الا أن يسخر بكل

ما هو غير كائن ولا ملموس من أشباح وأرواح ولعنات وشؤم . ان تفكيره

الواقعى يدحر أمامه كل تلك الأوهام ، ولا أظن جمال البيت الا بمغزيرة

بأسئفاته ، وأغلب الظن أنه حتى لو حاول بيعه فلن يجد له مشتريا بسهولة .

- على أية حال انه أدرى بنفسه ، وهو المسئول عما يملك ..

- ولذا قد دعوته حتى يكون على بينة من أمره .

★ ★ ★

فى تلك اللحظة كان محمود يقترب بعربته من قنطرة على احدى

الترع ، وعندما شارف حافة الترعة وجد حبلا يصل بين حافتى القنطرة ويشد

عليه الطريق ، وأنباه أحد الفلاحين أن القنطرة بها خلل وأن المرور محول

الى طريق جانبى متفرع من الطريق الأسمى حيث وضعت قنطرة مؤقتة

تستعمل لعبور الترعة حتى يتم اجراء الاصلاح بالقنطرة الأصلية ..

وأشار الرجل لمحمود على الطريق الذى يتبعه ، فأخذ محمود فى

تحويل اتجاه العربته ثم عاد أدراجه ليتبع الطريق الآخر .

وكان الطريق ضيقا شديدا الوعورة اذا لم يكن يستعمل لغير الدواب .

ولكن السير لم يطل به فيه حتى وصل الى حافة الترعة ووقف أمام القنطرة

الثانية ..

وتردد محمود برهة قبل أن يعبر القنطرة ، فقد كان منظرها لا يشجع

كثيرا على عبورها بل كان عبورها يعد مغامرة كبرى ، ومع ذلك فلم يطل

تردده كثيرا ، وسرعان ما ضغط على محرك البنزين (الاكسلاتير) وسمع

قرقعة الألواح تحت عجلات السيارة وفى ثانية عبرت السيارة بسلام ..

وضحك محمود قائلا :

- ربنا يستر فى المودة ..

ثم أخذ يخوض فى الطريق الضيق مرة أخرى حتى وصل الى الطريق
الأصلى ..

ولم يطل بهما السير كثيرا حتى أشرفا على الدار ولاحت لهما الصفوف
المتكاثفة من أشجار الجازورينا التى تحيط بأشجار الفاكهة والتى تحدد الأرض
من الخارج وتشققها فى صفوف متقاطعة لتحجب عنها الريح .. ودارت العربة
يمينا لتدخل فى بوابة كتب عليها ، طريق خاص ، وسارت بين أشجار
الجازورينا الكثيفة العالية .

وكانت السماء مليئة بالسحب السوداء الداكنة .. والريح تهب وقتذاك
صرصرا عاتية .. فتنفذ بين أوراق الجازورينا الرفيعة لتحديث بها صوتا عجيبا
أشبه بالنواح والأنين .

وأنتصت ليلى فى دهش ونساءلت :

- محمود ، أسمع هذا ؟

- ماذا تقصدين ؟

- هذا الصوت العجيب الشبيه بصوت امرأة تولول وتنوح .

- أنتعنين صوت الرياح تنفذ خلال أشجار الجازورينا ؟

- أجل .. انى ما سمعت الريح تولول يمثل هذا الصوت الحزين .

وأخيرا وصلت العربة .. ووقفت أمام الباب الخشبى للحديقة التى تحيط
بالدار ، والتى تكاثفت فيها الأشجار حتى حجبت كل ما حولها .. فاستقبلهما
بستانى كان يعمل بالحديقة وقادهما الى الباب الداخلى حيث وقف العم يحييهما
مرحبا .

وعند الانتهاء من الغداء والبدء فى احتساء القهوة بدأ الحديث فى

موضوع البيت والشائعات التى تحيط به .

قال العجوز مجيبا على سؤال وجهته ليلى :

- الواقع انه ليس مسكونا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة وأظننى أدرى
الناس بذلك . فانى أستطيع أن أؤكد إننى خلال كل هذه السنين التى قضيتها
فيه لم أر به شيئا يثير الوسوس أو يبعث على الشك . لا أصوات ولا أشباح
ولا أى شىء من هذا القبيل . وأستطيع أن أجزم أن كل ما يلصق به من هذا
القبيل لا يعدو الخرافات أو الاشاعات الكاذبة التى لا أصل لها والتى يتناقلها
الناس بعضهم عن بعض .

وصمت الرجل برهة حتى بدأ كأن حديثه قد انتهى .. ولكنه جذب من
سيجارته نفسا طويلا نفخه فى الهواء ثم عاد يقول :

- ولكن ذلك لا يمنع من أن ثمة شىء آخر يلصق بالبيت . قد يكون
حقيقة أو مصادفة .. وهو أنه بيت مشؤوم ما من انسان تملكه الا وانتهى
بفاجعة ومات قتيلا .

وتساءلت ليلى فى دهشة :

- أو حدث ذلك حقا ؟

- الى حد ما أعلم ، نعم ، فأنا أعرف ثلاث فواجع حدثت لثلاثة من
ملاكه .

- أمر عجيب !

- الأول على بك هاشم .. والثانى رجل ثرى ايطالى يدعى مسيو
سكارابى ، أما الثالث فكان رشاد بك زكى .. ولقد كانت الاصابة - اصابة
الشؤم - فى وئديه وليس فيه .

وعادت ليلى تسأل فى صوت خائف ولهجة وجلة :

- يقولون ان المايونيز كثيرا ما يسبب التسمم ولكن منظر السمكة - مع ذلك - يغرينى بالانتحار .

ثم دفع ملعقته فى السمكة وهو يقهقه قائلا :

- آل يا روحى ما بعدك روح ، أقرأ الفاتحة على روحى يا هاشم بك واكتب على قبرى ، مات شهيد المايونيز .

وجاوبه هاشم على قهقهته بقهقهة أعلى منها وقال وهو يغترف من المايونيز فى طبقه . والله لن أعيش بعدك ثانية .

وصمت عبد الفتاح بك برهة ثم أطلق من صدره تنهيدة حارة وأردف قائلا :

- وفعلا لم يعيش بعده ثانية ، لقد مات الأربعة ، الرجلان وزوجتهما ماتوا جميعا متسممين من طبق المايونيز .

وقد تبدو لنا الحادثة طبيعية ولكن أهل الناحية أبوا الا أن يلصقوا النحس بالبيت فقد استكثروا على طبق المايونيز أن يصرع أربعة . ولو كان التسمم قد اقتصر على صاحب البيت وزوجته لكان أمرا معقولا ، اما أن يصرع الأربعة مرة واحدة فهذا لم يكن فى نظرهم بالأمر الطبيعى .

ومرت الأيام بعد ذلك والدار خاوية على عروشها ، اذ لم يجسر أحد من الورثة على أن يغامر بسكنائها ، حتى هيا الله لها مالكا جديدا ، هو مسيو سكارابى ، أقدم على شرائها ساخرا من تلك الشائعات التى يثيرونها حولها ، فأقسم أن أول أكلة يتناولها فى البيت لابد وأن تكون طبقا من المايونيز .

وفعلا افتتح البيت بأكلة مايونيز ، ولم يمض بالطلع ، رغم أن أهل الناحية ظلوا يتوقعون موته بين آونة وأخرى .

لم يمض الرجل بالمايونيز ، اذ لم يكن الشؤم يحل بنفس الطريقة ومع

- كل هؤلاء تظهر عفاريتهم فى البيت ؟

- لم أقل ذلك ، ان ذكر العفاريت لم يجر على لسانى . كل ما قتله هو أنهم قتلوا !

وهز محمود رأسه متسائلا :

- وكيف قتلوا ؟

ووضع الرجل كفه على جبينه كأنما يعتصر ذهنه أو كأنه يجمع شتاته ليقص القصة . وبعد فترة من الصمت بدأ حديثه قائلا :

- الأول ، على بك هاشم ، هو الذى شيد البيت وزرع كل هذه الأشجار المتكاثفة حوله . ويبدو لى أنه كان مخلوقا مقتدرا وأنه لم يكن يبغى من هذه الأرض ربحا وانه شيد البيت لمزاجه الخاص فقد أنفق عليه مبلغا طائلا ، حتى لم يعد البيت بيتا ريفيا بل قصرا منيفا . كما تفتن فى عمل حديثه .

وكان الرجل يعيش مع زوجته وحدهما ، ولم يكونا قد أنجبا أبناء ، وكانا يقضيان معظم وقتهما فى هذا البيت رغم أنهما كانا يملكان بيتا فى القاهرة ، وقد تعود الرجل خلال نزوله فى البيت أن يدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب لزيارته ، وكان كثيرا ما يقيم الولائم والحفلات ، فقد كان مخلوقا كريما محبوبا .

وفى ذات يوم دعا أحد أصدقائه وزوجته لقضاء بضعة أيام فى البيت ليتمتعوا بالمناظر الريفية ، وعندما جلس الأربعة للغذاء فى أول يوم وجدوا الطباخ قد أعد لهم مائدة حافلة بأشهى الأطعمة ، وكان أهمها قارب طويل به سمكة أعدت بالمايونيز .

وقبل أن يبدأ الطعام قال الصديق ضاحكا وهو يشير الى السمكة :

ذلك فان نهايته سرعان ما حانت ولقى الرجل مصرعه بطريقة جديدة .

كان مسيو سكارابي من أثرياء الأجانب الذين يقطنون مصر ، وأظنه كان يمتلك مصنعا للسجائر ، وكانت هوايته المحببة هي ركوب الخيل ، وقد تتوهمون من مجرد قولى انه كان يهوى ركوب الخيل ، انه لابد قد سقط من فوق جواده وبق عنقه ، وهذا ما كان يتوقعه فعلا كل من حوله ، ولكنه مع ذلك لقي مصرعه بطريقة مبتكرة لا تخطر على بال .

كان الرجل يخرج لتدريب جواده على القفز ، وقد رغب فى أن يهوىء فى الحديقة ساحة للتدريب يقيم فيها بضعة حواجز . وكانت توجد فى ركن الحديقة ، الساحة التى ينشدها ولكن احدى شجيرات الكافور الضخمة كانت تقف عقبة فى سبيل اعدادها ، فأمر رجاله من الفلاحين بازالة الشجرة .

وقد تكون لديكم فكرة عن كيفية قطع الشجرة . ان أول ما يفعلونه هو ازالة الفروع العالية حتى يبقى الجذع وحده ثم يحفرون حول الجذع ويقطعونه من جانب واحد ويربطونه من أعلاه بالحبال ثم يجذبونه تجاه الجانب المقطوع فيهوى الى الأرض .

ولقد قام الرجال بقطع الفروع كلها تقريبا فلم يبق سوى فرع كبير لم يكد يضربه الرجال بضع ضربات حتى هوى ، ولكنه لم يسقط الى الأرض بل ظل طرفه الأعلى مسندا الى شجرة مجاورة وظل الفرع معلقا بين جذعه الأصلي والشجرة الأخرى ، وترك الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية حتى يهوى ، وأخذوا يضربون الجذع الأصلي من أسفله .

ولكن سكارابي كان من نوع عجول حامى الطبع لا يعرف الصبر ، وساءه أن يظل الفرع معلقا ، فسرعان ما أخذ من أحد الرجال الفرع المعلق ، فقد كان من العسير أن يقطعونه للنهاية .

وكان الرجل خفيف الحركة مفتول العضل ، وسرعان ما كان يقف عند

أول الفرع وأخذ يضرب ببطلته الجزء الذى لم يتم قطعه وبعد بضع ضربات أوشك الجزع أن يهوى ، ورفع سكارابي يده بالضربة الأخيرة ولكن توازنه اختل فهوى الى الأرض .

ولكى يتم المنظر ، هوى الفرع المعلق فوقه ، فهشمه تهشيعا ومزق جسمه اربا .

وأخذ العجوز الى الصمت برهة ريثما يتمالك أنفاسه ويستعيد فى ذهنه الجزء الثالث من القصة .

وبدأ على ليلى القلق والخوف مما يوشك أن يقص ، فقد كانت تعرف أنه سيقص مصرع الطفلين ، وليس أشق على النفس من حواث الأطفال .

وأخيرا عاود الرجل حديثه قائلا :

— أما رشاد بك زكى وهو المالك الثالث فقد كان من كبار التجار ، ويبدو لى أنه لم تكن لديه فكرة عن الشوم الذى يلزم البيت ، فقد تمت الصفقة بسرعة ، وكانت قد مضت مدة طويلة على الحادثة الأخيرة ، وظل البيت خاليا حتى نسى الناس أمره .

وكان رشاد بك من كبار تجار القطن ، رجلا مقتدرا ثريا ، وقد ابتاع البيت لزوجته وأولاده ، وأخذ فى تهذيب الحديقة وتقليم الأشجار ، وسرعان ما عاد الى البيت منظره ورونقه وبهجته .

وكان أول تجديد قام به هو بناء حوض للسباحة لولديه خالد وابراهيم اللذان لم يتجاوزا التاسعة .

وكان حوض السباحة هو السبب فى هذه المرة .

لم يغرق الطفلان ، لان الغرق مينة معقولة . فضلا عن أنه لم يكن هناك

مبرر للغرق والطفلان يجيدان السباحة .

ولكنهما مع ذلك ماتا فى حمام السباحة .

وقعت الحادثة فى احدى الليالى ، وقد خطر لأحد الطفلين أن يذهب للسباحة ليلا ، فعرض على أخيه الفكرة وتسلا الاثنين من البيت دون أن يشعر بهما أحد ، وذهبا الى الحوض فى الظلمة المدلهمة ووقفا على سلم القفز ، وقفزا .

وكان الحمام فارغا ، وهبط الطفلان على رأسيهما الى أرض الحمام ، ولم يكتشف أحد الحادث حتى الصباح عندما ذهبت الأمم تبحث عن طفليها فلم تجد سوى الجثتين ويقع الدماء وفتات المخ المتطاير .

ولم يكد الرجل ينتهى من حديثه حتى اندفع الباب المؤدى الى الحديقة والذى لم يكن قد أغلق جيدا تحت وطأة الريح وهبت الريح عاتية تعصف بالسنانير وأغطية الأثاث ، وتدفع أمامها أوراق الصحف الملقاة على الأرض .

أرهفت ليلى أنفها وأخذت تنصت فى عجب مشوب بالخوف وقالت فى صوت خافت :

- أسمع ؟

وتساءل عبد الفتاح بك فى اهتمام : ماذا ؟

- هذا الصوت .

- أيو صوت ؟

- صوت العويل والنواح الذى يصاحب هبوب الريح .

- أتمسعيه أنت أيضا ؟

- أجل ، أجل .

وكان محمود قد نهض فأغلق الباب وعاد يقول فى هدوء :

- انه صوت الرياح تعبت بالجازورينا .

وصدق العجوز على قوله وهو يهز رأسه فى تودة قائلا :

- أجل انه صوت الرياح ، انه لا يمكن أن يكون سوى ذلك وصمت برهة ثم أردف قائلا كأنه يتم بقية حديثه :

- هذه هى المآسى التى حدثت لاصحاب البيت ، لم تكن هناك أشباح ولا أرواح . ولكن الفلاحين يأبون أن يصدقوا ذلك .

ولم يكن من المستطاع صد تيار الشائعات التى أخذت تنسج القصص المحكمة عن الجنية التى تطوف بالدار مولولة نانحة ، لاسيما وأن هذا الصوت الذى سمعتموه الآن كان يصاحب كل حادثة .

أجل ، ان هذا النواح والعويل الذى يصدر من عبث الريح بأشجار الجازورينا قد سمع فى كل حادثة ، لقد تحدثت عنه الخدم فى يوم أكلة المايونيز ورواه الرجال يوم حادثة الشجرة ، وجزم به الخفير ليلة سقوط الطفلين .

وضحك محمود واعترض قائلا :

- ان الصوت لايد أن يصدر كلما هبت الريح ، ولايد أن صادفت الحوادث الثلاث أياما ذات ريج .

- قولك معقول ، ولكن لا أحد يقبل تصديقه هنا . انهم يأبون الا أن ينسبوه الى الجنية الباكية المعولة ؟ على أية حال ليقل الناس ما يقولون ، لقد صممت أنا على أن القى التجربة بنفسى . انى لست صغيرا ، وانى لأتوقع النهاية بين آونة وأخرى ، وسواء عندى مت قتिला أو مت موتا طبيعيا ، ولكن الدور عليك أنت انك أنت الذى سترث البيت وانى أخاف عليك أن تبتلى به .

ولم يتسطع محمود أن يكتم ضحكته وقاطعه بقوله :

- أظن من الخير أن نقف لنمسح الزجاج فاني لا أكاد أبصر شيئا أمامي ..

وغادر محمود العربة وأخرج منديله ومسح الزجاج ثم عاد الى مقعده وواصل السير .

ومضت فترة أخرى دون أن يبدو للقنطرة أثر ، وقال محمود :

- الظاهر أننا قد أخطأنا الطريق .

- انى أرى طريقا على يميننا ، اتجه اليه .

- لا . لا ان من الخطر التخييط ، وانى أرى من الأفضل أن نعود من نفس الطريق الأصيلى ، ثم نأخذ الطريق الصحيح .

وأخذ محمود يغير اتجاه العربة ثم عاد القهقرى مرة أخرى .

وبدأ الظلام يسقط ، فلم تعد العربة الى الطريق الأصيلى الا والظلمة قد اشتدت والنهار قد ولى

وكان المطر مازال ينهمر فى قوة ، والرياح تشتد والعويل يأتى من بعيد حتى يكاد لا يسمع .

وتمهل محمود فى السير ، وتساءلت ليلى :

- لماذا لا تضىء النور الكبير ؟

- الظاهر أنه يوم نحس . انه لا يضىء ، ربما قد حدث تماس أو ربما تكون المصابيح قد احترقت .

وبعد برهة توقف محمود وأخذ يمسح الزجاج مرة ثانية وقال لليلى :

- أظن هذا هو الطريق الصحيح ، انى أذكر أن شجرة الكافور هذه كانت على يمينه .

- لا نخش شيئا . ان شاء الله ستمتع بعمر طويل وسأتمتع بعذك بعمر أطول ما دمنا لا نأكل المايونيز المسموم . ولا نتسلق فوق قمة شجرة ولا نتقفز فى أحواض السباحة الفارغة .

- أوافقك على كل ما تقول ، ولشد ما يسرنى منك شدة ايمانك وتفاؤلك وعدم اعتقادك فى هذه الخرافات .

وكانت الساعة الرابعة عندما بدأت العربة تتحرك بمحمود وزوجته عائدة بهما الى القاهرة وكان عصف الريح واكفهرار السماء يشتد . بل ان الرذاذ قد بدأ يتساقط فعلا .

وبعد برهة قال محمود وقد اقتربا من مفترق طريق يؤدي من اليسار الى طريق ضيق :

- أظن أن هذا هو الطريق الذى يوصل الى القنطرة الجديدة الذى عبرناه فى المعجىء .

وأجابت ليلى دون تفكير وهى ترقب المطر الذى أخذ يشتد :

- أظن ذلك .

ودلف محمود فى الطريق الضيق ، وأخذت العربة تهبط فوق المطبات واشتد انهمار المطر . وتساءلت ليلى :

- لماذا لا تشغل مساحة الزجاجاة حتى تكشف الطريق أمامك .

- انها لا تعمل . والطريق واضح .

ومضت فترة طويلة دون أن تصل العربة الى القنطرة ، ودون أن يبدو أثر للترعة ، وقال محمود :

ومرة أخرى دخل محمود فى الطريق الضيق ، وسارت العربية الهويئا ،
وقال محمود فى ضيق :

- انى لا أكاد أبصر شيئا أمامى ، لقد عاد المطر يغطى الزجاج ما
العمل ؟

- سأفتح زجاج النافذة وأطل برأسى منها لأرشدك على الطريق وعليك
أن تسير بمنتهى البطء .

- ولكنك ستتعرضين للبرد .

- ليس أمامنا سوى ذلك ، والبرد محتمل .

وبدأت ليلى الحملقة من النافذة وقد أطلت منها مائلة بجذعها مادة عنقها
الى الخارج وهى تقول بين آونة وأخرى : يمينك أو يسارك أو رويدا رويدا .
وفجأة صاحت ليلى بصوت ملؤه الفرع :

- قف . قف . ان أمامك حفرة كبيرة توشك أن تهوى فيها وضغط
محمود الفرامل بعنف فتوقفت العربية مرة واحدة .

واضطجعت ليلى على مقعدها وقد تلاحقت أنفاسها واشتدت دقات
قلبها . وغادر محمود العربية وسار بضع خطوات أمامها ليستكشف الهاوية
التي كان يوشك أن يتردى فيها ، فلم يجد شيئا ، ووجد الطريق معبدا أمامه ..
فصاح بليلى :

- أين هى تلك الحفرة ؟

- لقد رأيتها تفغر فاهها وهى توشك أن تبتلعنا يجب أن نعود يا محمود .

انى خائفة ، انى أرتجف .

- خائفة مم !

- خائفة من كل شيء .. من الظلمة والمطر ومن عويل الرياح ان من

الجنون أن نحاول العودة هذه الليلة . يجب أن نعود الى بيت عمك ونقضى
ليلتنا به ثم نرحل فى الصباح ، انى أخشى أن يكون شئوم الدار قد لحقنا ،
فان صوت العويل والنواح يطن فى أذنى طنيننا مفرعا .

- ما هذا الجنون الذى تهرفين به ؟ ما لنا وللدار ، والعويل والنواح ،
أخرجى من رأسك كل هذه الخرافات . لا تدعى قصص العجوز تؤثر على
أعصابك ، انك امرأة متعلمة وعيب عليك أن تفكرى هذا التفكير .

- أرجوك يا محمود أن تعود بنا . ان اليوم يبدو نحسا من أوله انهم
كلهم كانوا يسخرون من الشائعات كما تسخر أنت وكلهم راحوا ضحية
سخريتهم .

- ليلى ، أرجوك أن تكفى عن هذا الهذيان .

- أى هذيان ؟ ألم تسمع قول عمك ان كل حادث كان يصاحبه هذا
العويل والنواح الذى يسمع من هبوب الرياح ؟

- ولكن مالنا نحن وكل هذا ، حتى لو صدق كل ما تقولينه فاننا أبعد
ما نكون عن شئوم هذه الدار . انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل . أنسيت أن
صاحبها مازال على قيد الحياة ؟ وانه اذا كان هناك شئوم واذا كان عويل الرياح
ينثر بحادث فانه هو الذى سيتعرض له لا نحن . اننا لم نرث الدار بعد . وما
دام عبد الفتح بك مازال على قيد الحياة فيجب أن نضع فى بطنينا بطيخة
صيفى وألا نخشى من هذه الخرافات التى يزعمونها ، هيا أيتها البلهاء وأدع
للمم العجوز بطول العمر حتى يقينا لعنة الدار . هيا ولا تكونى حمقاء .

واتخذ محمود مكانه أمام عجلة القيادة وهو يحاول التضاحك وعادت
السيارة من جديد متجهة صوب القنطرة التى يقضى اليها الطريق الضيق
وعادت ليلى تطل برأسها من باب العربية لترشد محمود فى سيره .

البيت لم يصبح لنا بعد ، وان عمه مازال على قيد الحياة ، وهو الذى يجب أن يحل به الشؤم لانحن . أجل ، أجل . ان عويل الرياح لا يعيننا . فليس لنا بكل هذا أية صلة .

ولكنها عندما أفاقت مرة ثانية علمت أن المسألة ليست مستحيلة كما كانت تظن ، لان مقف البيت قد خر على صاحبه فأرداه قتيلا فى جلسته .. وعندما أخرجت جثته من بين الأنقاض تبين أن ساعته قد وقفت على الساعة السابعة ، الساعة التى انقضت عليها فيها السقف فحطم جسده .

وعندما أخرجت جثة محمود من التربة كانت ساعته قد وقفت على السابعة والخمس دقائق .

لقد ورث الدار لمدة خمس دقائق .. كانت كافية لأن يحل به شؤمها ..

وبعد برهة قالت ليلى .. يبدو أننا نقتررب من التربة . حمدا لله اننا اهتدينا الى الطريق خذ حذرنا جيدا حتى نعبق القنطرة بسلام . لا تنحرف هكذا الى اليسار ، أمسك يمينك . أجل هكذا . يمينك ، يمينك . تمهل . تمهل اننا نقتررب من القنطرة .

واستمرت العربة تتقدم . وعلى حين غرة صرخت ليلى صرخة فرع : محمود ، قف ، قف .

وصاح بها محمود ناهرا :

- ليلى .. كفى عن هذا الصراخ انك ستقذفين بنا الى التربة ، ان أصابك متعبه فأرجوك أن تنامى . أو تغمضى عينيك حتى أعبق التربة . انك بصراخك تجعلين عجلة القيادة تضطرب فى يدى .

ولكن ليلى كانت مستمرة فى صياحها كأنما قد أصابتها جنة :
- قف ، قف ، قف .

وهبت الريح معولة نائحة . واستمرت هى تصيح بملء فيها :

- قف ، قف . لقد ضللت الطريق . ليس أمامنا قنطرة .

وفى تلك اللحظة هوت العربة الى جوف التربة .. وضاع صراخها بين القرقة وعويل الرياح .

★ ★ ★

وأفاقت ليلى لتجد نفسها راقدة على الفراش فى أحد المستشفيات ، ولتعلم انها نجت بأعجوبة وأن زوجها قد قضى عليه فى حادث انقلاب العربة فى التربة . واندفعت تصرخ كالمجانين وتصيح بمن حولها :

- مستحيل ، مستحيل . لقد قال اننا أبعد ما نكون عن لعنة الدار . ان

نقمة سجن اللايمان

« قال اتي عبد الله أتاني الكتاب
وجعلني نبيا وجعلني مباركا أين ما
كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة
مادمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني
جبارا شقيا والسلام على يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك
عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه
يمترون » .

« قرآن كريم »

ارتد الراعي ببطء حذرا من حافة الهاوية ، وقال مشيرا بعصاه الى
جوفها النائي السحيق :

- لا فائدة هنالك .. لقد ضل سبيله بين الأشواك في جوف الهاوية ..
خير لنا أن نعود الى القطيع ، وليدير الله أمرنا وأمره .

وعلى الصخور الصلدة وقف بجواره رجلان : رجل مثله في مقتبل
عمره وميعة صباه .. وآخر قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا .. وهز

- أتدري أن المسافة ليست أقل من تسعة أميال .. وفوق ذلك لن تستطيع الوصول اليه .. فالمكان هناك شديد الانحدار بحيث لا يمكن السير عليه .. ولكن الكهل كان قد حزم أمره فلم يجبهما بكلمة .. وأولاهما ظهره .. وسار في سبيله آخذاً في الصعود على المنحدر المترامي فوق الأرض الصلبة الملاصقة لحافة الهاوية .

وكان الصوت الخافت يطرق سمعه بين لحظة وأخرى ، وقد أخذ يدب متكئاً على عصاه والشمس قد توسطت كبد السماء وامتدت منها السنة من السعير تفتح وجهه وتلهب جسده ، وبدا الطريق أمامه شاقاً طويلاً .. وساقاه التحيفتان المتخادلتان لم تعودا تحتلان بعد مشقة السير ووعورة الطريق .. فكان يحس فيهما برجفة كلما أوغل في السير .. ولكنه كان قد صمم على أن يصل اليه ، وأخذ يدبر في رأسه خطة الوصول .. لقد كان عليه أن يصل أولاً إلى مجموعة الشجر القائمة عند رأس الأخدود ، ثم يتناول غذاءه ويستريح برهة قبل أن يعاود السير للهبوط من الممر .

وأخيراً بلغ هدفه الأول .. منهوك القوى .. مبهور الأنفاس وقد سرت الرجفة من ساقيه الى كل جسده . فارتدى كأنه كومة من الحطام مستظلاً بتلك البقعة الضئيلة التي خلفتها الشجيرات الخشنة الضامرة .. وبعد هينهاستعاد الرجل بعض ما وهن من قواه وما فتر من عزمه .. ومد يده الى الحافظة التي تعود أن يضع فيها قوت يومه .. فلم يجدها .. فأحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه .. انه لم يبق طعاماً طيلة يومه .. وقد برح به السغب عقب ذلك السير الشاق المتواصل .. وهو في حاجة الى ما يقيم أوده حتى يستطيع مواصلة السير والاسقاط اعياء في منتصف الطريق .

ولم يحسن الرجل بألم الجوع قدر ما أحس بمرارة الفشل .. فقد أوجع قلبه أن تقعده حاجته الى الطعام عن انقاذ ذلك الحمل الصغير الأحمق الذي دفعه طيشه الى أن يتسلل من بين القطيع ويضل في جوف الهاوية ..

أولهما رأسه مؤمناً على قول صاحبه ، وأدار ظهره الى الهاوية وقد هم بالعودة معه .. ولكن الكهل لم يتحرك ، بل استمر يحملق في الهاوية ببصره ، وقد اتكأ بجسده الضامر الناحل على عصاه ، وأرهف أذنيه إلى صوت قد انبعث من أسفل وسرى في ذلك الهواء الراكد الحار ، فلم يكذب يصل الى الأسماع حتى التقطته همسا خفيفاً وأنبأ خافتاً .

وأبداً الشابان الخطي ، وتلفنا الى الراعي الكهل ، وأعاد أحدهما القول مرة أخرى :

- لا فائدة يا أبتاه .. نحن لا نملك له نفعا .. وخير لك أن تعود معنا .
ثم جنبه برفق من نزاعه وأردف قائلاً :

- هيا بنا .. ان الأمر لا يستحق كثير حزن ولا أسف .. فهو على أية حال أصغرها ..

وأطرق الكهل برأسه وتمتم كأنما يحدث نفسه :
- أنا أعلم أنه أصغرها .. بل أشدها حمقاً .

وصمت برهة قصيرة ثم ضرب الأرض بعصاه فجأة ورفع رأسه قائلاً في حزم واصرار :

- سأذهب خلفه .

انك لا تستطيع .. فلا سبيل لك اليه ..

ثم ان هذا ليس بعملك .. فما كنت راعيه ولا مسئولاً عنه وسنخبر السيد أنه لم يكن من العقل في شيء أن نترك القطيع كله لتلقى بأنفسنا الى الهاوية خلف هذا الصغير الأحمق .. هيا بنا يا أبتاه فان الله لم يهبنا بعد أجنحة ..
- سأسير حتى نهاية الوادي ثم أهبط من الممر الأسفل كي أخلصه .

ورفع يده يظلل عينيه ، وأخذ يحقق فيما رأى .. فلم يستطع أن يميز حقيقة ذلك الشيء الذى أخذ يتجه نحو الحمل الصغير .. وان كان قد استطاع أن يجزم أنه ليس بحمل آخر .. وبدأ يرقبه وهو يتسلق الجرف بمهارة عجيبة دون أن يجد فى تحركه مشقة ولا عناء كأنما يجد فى كل بقعة موطننا ممهدا لقدميه .

وشعر الرجل بضعفه يعاوده .. وأخذت تلك السحب تتراكم على رأسه مرة أخرى .. وأحس بصوت الحمل يطرق أذنيه .. ولكنه كان فى هذه المرة أشد ارتفاعا وأكثر وضوحا .. ثم فقد وعيه وراح فى غيبوبة . وأفاق مرة أخرى على صوت أقدام تقترب منه .. وفتح عينيه فإذا بصبي يكتسى بثوب أبيض قد أقبل عليه حاملا الحمل الصغير برفق بين يديه ، ونظر إليه من خلال عينين زرقاوين شديتى الصفاء ، وقال باسمه :

- لقد أصبح الحمل آمنا يا أبتاه .. وتستطيع أن تستريح فى ظل هذه الصخرة الكبيرة .

وقام الراعى يتبع الطفل ، فإذا بصخرة كبيرة على قيد خطوات قد ألفت ظلها الداكن على بقعة من الأرض نضرة خضراء كساها العشب الرطيب ، وهبت منها نسيمات رقيقة عليلة .

وافترش الكهل الأرض وقد أحس بالغبطة تملأ قلبه وبالهدوء والراحة تحلان فى جسده محل التعب والعناء ونظر الى الصبي متسانلا فى كثير من الدهشة : كيف عثرت عليه ؟

- لقد سمعت صياحه وكنت قريبا منه .

ووضع الرجل يده على رأس الحمل وربت عليه فى عطف وحنان ، ثم قال له مؤنبا .. هكذا تأبى دائما الا أن تلقى بنفسك الى التهلكة .. ما ضرك لو سرت فى الطريق وكففت عن الوثوب هنا وهناك .. ان أكثر ما يشق على

وسبح الكهل ببصره فى الوادى المترامى الأطراف وأحس بالهواء يتراقص أمامه من فرط الحرارة التى يتأجج أوارها .. ثم مد يده الى عصاه ببطء وتحامل على نفسه وانتصب واقفا .. لقد صمم على أن يعصب بطنه ويعاود السير .. وليهبه الله من لدنه رحمة ويهيئه له من أمره رشدا .

وتحرك قدماه على الصخور .. وفى حركتهما ببطء وتناقل .. وكان سيره وتيدا كأنما ينتزع ساقيه من الأرض انتزاعا .. وكانت ساقاه مع ذلك تتحركان خطوة فخطوة .

وأخيرا .. وصل الى مسامع الرجل صوت خافت ، ولمحت عيناه بقعة بيضاء ضئيلة فى وسط الجرف الموحش الأسود .. فتجددت قواه .. وأخذت قدماه تتخبطان فى الصخور حتى وصل الى حافة الجرف ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك ، فقد ارتد بصره حسيرا أمام ذلك الانحدار الشديد الذى كانت قدماه أعجز من أن تحاولا تسلقه .. ووقف يرقب الشبح الأبيض الضئيل وقد رفع عقيرته بالصياح وهو لا يستطيع الهبوط أو الصعود .

وأحس الرجل بلهيب الشمس يكاد تحرقه شواظه .. وأدرك أن قواه لا تكاد تساعده حتى على أن يبلغ ظل صخرة يقيه وهج الشمس .. فخر مغشيا عليه فى مكانه .

ولم يعرف كم مضى عليه من الوقت قبل أن تأخذ تلك السحب فى الانقشاع عن رأسه .. ولكنه أحس بذهنه قد عاد يكافح مرة أخرى .. ورأى نفسه يرهف السمع عله يسمع ذلك الصوت الذى كان آخر ما سمعه قبل أن يفقد وعيه ، ولكنه لم يسمع شيئا وفتح عينيه بمشقة ، ونظر الى الجرف الأسود .. الى حيث كانت البقعة البيضاء .. ودهش الرجل ، فقد ابصر البقعة فى مكانه .. ولكن كانت هناك بقعة أخرى .. أكبر من الأولى حجما .. وقد أخذت تتحرك صاعدة تجاه البقعة الأولى .. يا للعجب ترى أهنالك حمل آخر .

فى نصحك أن النصح لا يجديك نفعا وهكذا النصيحة دائما .. ليست أكثر من كلام يسهل قوله ويصعب سماعه . وقهقه الرجل ثم قال موجها الحديث الى الفتى .

لقد نسيت طعامى .. ولولا ذلك لما وهنت قواى .

- ان معى خبزا .. وخلف هذه الصخرة ينبوع ماء .. وشبع الرجل من جوع وروى من ظمأه ، فتمدد على العشب وقد ملأت السكينة نفسه ، وسادت فترة سكون استغرق خلالها فى أحلام حلوة هادئة حتى أفاق على صوت الصبى يسأله مترفقا :

- كم مضى عليك من الوقت وأنت تعمل راعيا ؟

- منذ ولدت يابنى .. انى لأكاد أنكر نفسى الاراعيا . ولكن كان خيرا لك لو سألت .. منذ كم تركت الرعى ؟ فأننى لم أعد بعد راعيا .. لقد أضحيت فى نظرهم كهلا لا يصلح للرعى ، بل يحتاج الى من يرعاه .. أو كما يسموننى ، الحطام ..

وشرد ذهن الرجل برهة .. ثم عاد يقول فى مرارة :

- كان ذلك منذ اثنى عشر عاما .. عندما سمعت السيد يقول انه لم يعد يطمئن الى فى رعى القطيع . لأننى قد أصبحت حطاما باليا . فرفعت كفى لأخفى دمعينى اعتصرهما الحزن من قلبى ودفعهما الى عينى .. وخرجت القطعان وبينهما القطيع الذى تعودت أن أرعاه . وقد استبدل بى راع أكثر فتوة وأشد قوة .. ورأيتنى أتسلل خلف القطيع .. لأننى لم أستطيع سوى ذلك .. فقد عزت على الفرقة .. وشق على البعاد .. لقد بمنونى من أن أكون راعيه .. ولكنهم لا يستطيعون حرمانى من أن أكون فردا فيه .

ومع ذلك يابنى .. لقد أبى القدر ألا أن ينصفنى .. وأن يريهم أنى لم أصبح حطاما بعد ، وأنه مازال فى بقية من رفق .. انى لأنكر ذلك اليوم كأنما

بالأمس فقط .. وقد أقبل الليل وادلهمت الظلمات .. واستغرق الكل فى نوم عميق .. وكنت أحس بقلق خفى فلم يغمض لى جفن . وعلى حين غرة شعرت بالخطر يوشك أن يحل ، فقد حملت الى الريح رائحته .. وميزت أذناى أصوات ذئاب تقترب .. ورأيتنى أقف وحدى وسط القطيع الراقد دون أن أجد أثرا لبقية الرعاة .. ولم أك أدرى كيف أستطيع دفع الخطر وحدى .. ولكننى كنت أحس فى نفسى بأنى سأدفعه . وأخذت الذئاب فى الاقتراب .. وقلبى يخفق فى ضلوعى خفق شديدا .

ونظرت الى السماء فجأة .. فرأيتها مرصعة بالنجوم .. ولكن أحدها كانت تلمع بشكل لم أعهده .. أجل ما رأيت فى حياتى نجمة تضىء كما كانت تضىء تلك النجمة العجيبة .. ونظرت الى الأرض فاذا بالظلمة انقشعت .. وإذا بها قد غمرت بضوء مشرق ذهبى هبط عليها من النجمة الوضاعة .

وخيل الى أنى أسمع فى ذلك الوقت صوتا عجيبا .. أشبه بصوت طفل حديث الوضع .. وأحسست بالسكينة تملأ قلبى والاطمئنان يغمر نفسى .. وتلفت حولى فاذا بالذئاب قد ادارت رؤوسها ببطء وعادت فى سكون لا تلوى على شىء كأنما قد مسحها سحر . وصمت الكهل برهة ثم رفع بصره الى الصبى وقال فى صوت يملؤه الرضا والغبطة .. ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالكثير من العزاء .. وأقسمت بعد ذلك ألا أفارق القطيع قط .. حتى يخمد منى النفس وحتى يحملوا الحطام الى جدته .

ونظر اليه الصبى وقد أشرق وجهه بابتسامه حلوة ثم قال :

- يا أبتاه .. انك لست حطاما .. انك رجل قوى .. فقوة المرء ليست فى جسده .. بل فى قلبه وفى ايمانه .. ان هناك أناسا يولدون حطاما ويعيشون حطاما ويذهبون الى الأجداث حطاما . أما أنت فقد كنت بالايمان قويا . يوم ولدت . ويوم تموت . ويوم تبعث حيا . وأخيرا نهض الرجل وهم يتوديع

الصبي قائلاً إن أمامه مرحلة شاقّة للعودة ولكن الصبي أنبأه أنه سيعود معه ليحمل له الحمل وليقوده الى طريق قصير يوفر عليه عناء السير .

وسار الرجل خلف الصبي وقد أحس أن قدميه قد ذهبت عنهما تلك الرجة .. ولم يطل بهما السير حتى أبصر الرجل بنفسه فى مكان تحف به الأشجار الباسقة ، وسمع صوادح الطير تغرد على أغصانها وأحس بأشراق فى نفسه وضياء فى قلبه .

ومد الرجل يده مودعا الصبي وقال له فى صوت يفيض بالشكر :

- أنت ولد طيب قوى .. وعندما تصبح رجلاً ستكون من خير
الرعاة .. كم عمرك الآن ؟

وأجاب صوت الصبي وقد أخذ فى الابتعاد : اثنا عشر عاماً !

وأحس الرعاة أن الكهل قد طالت غيبته وخشوا أن يكون قد مسه ضرر فعادوا للبحث عنه ، فوجدوه قد رقد فى منتصف الطريق فى تلك البقعة التى خارت فيها قواه من الجوع والتعب . وأبصروا به جثة هامدة تتلظى فى هجير الشمس .. فرثوا له .. ولكنهم لو أدركوا أن روحه تنعم فى ظلال الجنان .. لرتثوا لأنفسهم ..

صورتها الأصل

الإهداء

الى خير من فرج عنى الهم .. وأزال
الكرب .. الى أحد أصول هذه
الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلى

«يوسف السباعى»

مُحَدَّثَةٌ

هذه القصص أخذتها من الناس .. صور طبق الأصل لهذا وذاك .. لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل .. ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس - لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس - وكيف أحرم شيئا مشاعا .. شيئا أنا نفسى ناقله من الأصل المسجد .. كيف أحرم على الناس ما أخذته من الناس .

أستطيع أن أدعى لنفسى حقا فى «امام الفك» و «خال علام» .. وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفى أن أضع اسمى عليها .. كأنى قد شاركت الرب فى خلقها .. حتى أحاول أن أدعى لنفسى عليها حقوقا محفوظة !!

حرام والله .. انى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل .. فلو استطاعت النطق لصاحت بى ..

«أيها المؤلف المدعى .. رفقا .. ما أنت الا غبى .. مغرور .. محتال .. غبى كغيرك من البشر .. هيا لك الغرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدنا .. فجلست ترقب وتكتب .. وسوّلت لك نفسك المحتالة أن تتبع الناس ما كتبت عنهم .. فتتال منهم النقود .. وربما الاعجاب» .

انها على حق .. انى خجل .. ولولا يقينى بأنى لست المحتال الوحيد فى هذا البلد .. لما أقنمت على نشرها .

«يوسف السباعى»

خالد وعلاء

وخرج خالد علّام من الحمام وهو
يصرخ ويتأوه ... ويسأل علام : لم
لم يخبره أن الاستحمام عندهم
جناية . واتدهش علام ، ووقف
يستمع لما حدث .

حدثت الواقعة في ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست
أدرى أى شيطان ضاحك يدفع بها الآن في رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى
على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت أن أكتب من أقاصيص .
ويبدو لى أن من الخير - قبل أن أروى الواقعة - أن أعطى للقارئ فكرة
عن حياتنا وقتذاك ... فأرسم له ما يسمونه « الباك جراوند » التى سنتخذ
الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نطقن الميس . والميس - لمن لا يعلم - هو سكن الضباط
الذين يعيشون في التكنات . وكان ميس السوارى مكونا من ست حجرات ،
يسكنها دائما أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل
مستطيل ناقص أحد الأضلاع .. يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن ..
والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل . يقوم وراءه بناء
منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

لننظر الى البارودى - وقد كان وقتذاك ضابط الميس - وقد اعتدل فى مجلسه وأوقف اللومنى أمامه يحاسبه حساب الملكين .

- ها .. وجبت ايه كمان ؟

- ست ارطال لين وأقتين سكر .

- عشان ايه دول ؟

- عشان الرز أبو لين .

- ست أرطال لين وأقتين سكر عشان ست أطباق رز بلين ؟ يعنى

قصدك تقول ايه ؟ قصدك تقول ان كل طبق خد رطلين لين ؟

- مضبوط .

- مضبوط ازاي بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لين وأفرغه فى

الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لأ .

ويبدأ البارودى تجربته .. فاذا بالرطل يملاً أربعة أطباق . وينظر الى

اللومنى وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

- ايه رأيك ؟

ويمنتهى الهدوء يجيب اللومنى :

- أصل اللين بيتبخر ، يقوم يخس .

- طيب بلاش كده .. تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

- كام ؟

- خمسة صاغ .. الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه بتلاتة

تعريفه .. بتعملة انت بخمسة صاغ ، ايه رأيك بقى ؟

- وهو اذا زى بتاع أسدية ؟

هذا عن الميس من حيث البناء .. أما من حيث السكان فانى أجد من العسير على وصفهم .. فان نوابرهم تتكأأ على ذهنى ، فلا أدرى بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناسا ظرفاء .. عزازا لظافا .. وكان لكل منهم شخصيته المرحه المستقلة .

انى لأجد الذهن يعود بى القهقرى فيقطع السنين الطوال فى لمح البرق ، وأجد نفسى مرتديا الحذاء الطويل وينطلون الركوب والقميص ، وقد عدت الى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والتهاف .. وقد أحسست بساقى قد كلتا من فرط السير واللف فى التكتات ، وأدخل الى الصالون لأرتمى على أقرب مقعد .. وليس لى من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمى .
والثقت حولى فأفاجأ بالبارودى - أحد زملائى - وقد اضطلع فى أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحناء .

ونصيبنى الدهشة من منظره .. ترى ماذا أجبره على البقاء الى هذه اللحظة .. سجين القنمين معذب الجسد ؟ ولم لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيدا الى الخارج ليروح عن نفسه ؟ !

ولا تمضى فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلى السبب .

انه اللومنى .. ولا أحد سواه .

أجل ! ان اللومنى هو السبب بقاء أنور البارودى بهذا المنظر حتى الآن .. فلقد كان يناقشه الحساب .. وحساب اللومنى - لو تعلمون - عسير . ولكنكم لم تعرفوا اللومنى بعد - فيجب على أن أقدمه لكم أولا .

اللومنى هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذى يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق .. وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس ..

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين فى المغالطة فى الحساب . وكما كان اللومنى قائد الطباخين .. كان - بحكم المهنة - شيخ المغالطين .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر الى اللومنى أيضا ويصيح به :

- لمونى .. من بكره تطلع طابور ركوب .

وهنا ينهار اللومنى .. فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها ..

فقد كان بجسده الأبيض السمين المرير لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللومنى ، وتتوافد الثلة الواحد بعد الآخر حتى يكتمل العقد وتتطلق الضحكات الخالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ الثلة فى التفكير فى العشاء ، فيصيح علام بعثمان شديد :

- وله يا شديد !

- عايز ايه يا علام ؟

- تشاركنى فى أقة عنب ؟

- عنب ايه يا عم .

- طيب تشاركنى فى بطيخة ؟

- لا يا عم أنا ما أحبش البطيخ .. أنا حاتعشى عسل وطحينه .

- ايه ؟ ! وبعدين لما أحبيب البطيخة تبقى تقول لى ادبنى شقة ؟

- يا أخى بلاش دوشه .. ابعده عنى .. بطيخ ايه .. وعنب ايه .

ويشترى علام البطيخة .. ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفا

قلبيها .. فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

★ ★ ★

ولكن ما لى قد استرسلت فى الدرشة وقص الذكريات ورسم « الباك

جراوند » حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟

- لا العفو .. زيه ازاي ؟ مش ممكن .. على العموم بالمونى من هنا

ورايح ما تعملش رز بلبن أبدا . مش ضرورى ناكل رز بلبن .. هات حلو

أى حاجة .. هات بلح أمهات .

- كل يوم ؟

- أيوه كل يوم .

- وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى

دخول الشاذلى مصفقا بيديه منشدا بأعلى صوته : « يا تلتमित مرحبا وسلامات

ياخلى .. باللى تكبى العوائل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقا .. وقد كان هذا العشق هو سر بقائه

فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويترنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللومنى وهو يهيم بالانصراف من أمام البارودى فينادى

عليه :

- لمونى الكلب .. تقدر تقول لى اللحمه اللى جبتها النهارده جبتها

سنين ؟

- من الجزار .

- مش ممكن ، لازم جبتها من العتقى .. تعرف أنا متهايا لى أنك انت

لما بتروح تشتترى لنا الأكل بتعمل ايه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك

كوسة شايخة ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنة ؟ يقول لك

برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شويه .

تقول : طيب لمهم لى .. وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا

منتنة .. وتفضل تلم الزبالة اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

- ازاي بقى يا فندم ؟

- أهو كده .. اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم مايفيش فى السوق

حاجة وحشه .

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه
المرّة ألا أعطيه قصة ؟
لا أظن .. فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ
سوى قصة .

حسن .. لنبدأ القصة انن .. وعرضنا على الله .

★ ★ ★

تلك كانت ثلّة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك .. أنا
والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز
مصطفى والبارودى .. ثلّة مرحة ضاحكة .. نضحك من كل شىء وعلى كل
شىء .. لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شىء واحد :

هو الحمام المبتل !!

كنا نخرج مبكرين الى طابور الركوب ، فاذا ما عدنا للطور بعد
الطابور ودخلنا الى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام
مغرفة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصياح :

- يالمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفا ، فيصيح به علام :

- ايه الميه دى ؟

ويهب اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة . ويستمر علام فى

صياحه :

- فيه حد يستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

- لا يا فندم .

- لأ ازاي ؟ .. مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .
ويقسم اللمونى أيانا مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحدا يستعمله .
وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم .. نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل
وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبسا بجريمته ، وأن
يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثا ، حتى كان ذات يوم
حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل .. وأن نتمسك بأهداب الآداب
ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن
نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا - مراعاة لخاطر علام وقريبه
المحترم - صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لنا به ، وأن نتحلى بالجد
والأدب .

وكان قريب علام قد حضر من أوروبا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علام
حتى يسافر فى غده الى الاسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل
علام ، وفى سبيل أن يأخذ الأعراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرنا بالأدب والتزمنا الجد ، وجلسنا الى العشاء فى سكون
وخشية أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا
بعضا الا بالرتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل

أعجب بنا أيما اعجاب ، وأنا رفعا رأس الفرسان عاليا في نظر الرجل .
وفي الصباح خرجنا كعادتنا الى الطابور ، وعدنا كلنا الى العيس بعد
الطابور الا واحدا . هو الشاذلي .. فقد عاد قبلنا وترك الطابور في منتصفه ،
لأنه كان متعبا ، اذ كان على سفر في الليلة السابقة .

أسمحون لي ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلي ؟
انه انسان يستحق الوصف .. اذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا .. سأصفه وأجرى على الله .

ان خير ما يوصف به الشاذلي هو أنه رأس وحنجرة ، وهو يستعمل
حنجرته أكثر من رأسه .. زعموا أنه كتب له في تقريره السري ذات مرة
أنه « ضابط لا يحتاج الى بروجي » ، وهو فعلا لا يحتاج الى بروجي .. لأنى
أسمع صوته أحيانا وهو يتكلم وأكون جالسا في مكتبي في كوبرى القبة ، وأقوم
لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ،
مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم الا أنه حاضر البديهة ،
سريع النكته حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه ونويه .. ويفضل أن يقولها
ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد الذكاء والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ،
والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنع بنفسه ، ولقد قلت له
ذات مرة أن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلطف الى
سماع الاشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ما سبب ولا فائدة .

عاد الشاذلي من الطابور ، واتجه أول ما أتجه الى المطبخ ليسأل
اللمونى عما أعده من أظفار .. والتهم فى فمه « اللى فيه القسمة » على سبيل
التذوق .. وشمتم اللمونى بما فيه القسمة أيضا ، ثم اتجه بعد ذلك الى الحمام .

ودفع باب الحمام فاذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلي بأذنيه صوت « النش » وهو ينهمر .

أخيرا وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعا .. ويتسلل الى الحمام ليأخذ دشا أثناء
غيابنا فى الطابور .

أنه أحد الطباقين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلي وفى صوته رنة انتصار :

- افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد .. بل استمر صوت « النش » ينهمر ، وقطرات الماء
تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلي يصيح مهندا :

- افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد .. ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلي عن الباب قليلا .. وبكل قوته دفع الباب بكتفه ..
فانفتح .. واندفع هو الى الحمام .. رافعا سوط الركوب بيده .. ليهوى به على
الجانى .. ويؤذبه تأديبا سريعا .

تعالت الصيحات ، وتعالت الضربات :

- آى .

- آى يا ابن الكلب .. امال فالح كل يوم تخش تستحمى وتخرق الحمام .

تقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة .. وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون
جادا حديثا فكاهيا مضحكا .

كان الأوسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » .. فإذا أراد أن
يقول انه سيتعدى ملوخية بالفراخ .. كان قوله : « ملوخله » بالفيران .. وإذا
أراد أن يضيف أن الحلو « كذافة » قلبها لسانه الى « كناسه » فأضحى غداؤه
الذى يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالفيران والحلو كناسه » ! .

ولم يكن أبى يتخذ الأوسطى محمود مجرد حلاق .. بل كان يتخذه
سميرا ومهرجا وصديقا وفيما ، ولم يكن يذهب اليه لمجرد الحلاقة ، بل كان
يتخذ جانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتلهى بمشاهدة
الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائرة مع الأوسطى
محمود إذا كان منهما فى الشغل ، فإذا ما شطب جلس معه يسامر به ويسليه .

وكان أول عثور والدى على الأوسطى محمود .. أو اكتشافه له .. أقول
عثورا أو اكتشافا .. لأن والدى كان يعتبر الأوسطى محمود لقطه أو كنزا ..
وكان يفضل صحبته على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن ايمان أنه خير
وأفضل وأذكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم بالأدعياء ..
أقول إن أول عثور والدى عليه كان بصالون الأوسطى ابراهيم الحلاق على
ناصية شارع السد البرانى وشارع التلول والملاصق لحانوت الفكهانى الكائن
فى شارع التلول .

وكان الأوسطى محمود وقتذاك عاملا فى صالون الأوسطى ابراهيم ..
فاكتشف فيه أبى مواهبه .. واتخذ من الصالون مكانه المختار .

والمدهش أن الأوسطى محمود - باعتراف أبى نفسه - لم يكن حلاقا
ماهرا بل كان أبى دائما يتهمه بثقل اليد .. وكان كثيرا ما يسبب له جروحا
فى ذقنه حتى انتهى به الأمر الى أن يتخذ له حلاقا آخر للحلاقة مع بقاء
الأوسطى محمود فى مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق .. ومع استيلائه
على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه ذقن أبى أو يمسه
مقصه شعر رأسه .

بين الركاب بجسده الضخم القوى الممتلىء ووجهه الأبيض المشرب بحمرة
وبذاته الأنيقة المنشأة والطربوش الطويل يحجب معظم جبينه ويستقر على
حاجبيه . كان يجلس بين الركاب فى نفخة واعتداد .. ويتحرك به الترام فى
شارع خيرت .. حتى يمر بالبقعة المعينة فتنتطلق منه صيحة منوية فى جد
واهتمام :

- هفتت مفتاح ؟ !

وفى لمح البصر ترتد اليه الصيحة كأنها صدى الصوت منطلقة من
الأوسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنطالونه وصلعته اللامعة بصيح متسائلا
فى مثل جد أبى واهتمامه :

- رحنت الفران ؟ !

وهكذا تنطلق الصيحتان المتسائلتان المتبادلتان والترام ممعنا فى
سيره .. كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران جوابا .. وترتسم على وجوه
الركاب دهشة ويحاولون عبتا أن يفهموا سببا لما حدث أو معنى لما قيل ..
وقد يتساءلون فيما بينهم عما قال أبى وعما قال الأوسطى محمود .. وقد ينبهم
خبير سبق له الركوب مع أبى من قبل بأن ما قيل هو : « هفتت مفتاح » و
« رحنت الفران » ، ولكنه يعجز عن تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك فى أن القارىء مهما بلغ به الذكاء الا يتساءل فى عجب
وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجدا لسؤاله جوابا شافيا .

ان كلمة هفتت (بقاء مشددة) تعنى فى لغة محمود المزين وفقت ..
وللأوسطى محمود لغته الخاصة التى تحتاج الى قاموس لتبنيانها .. وهى تبدو
فى نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة فى الوقت الذى ينطقها الرجل فى
منهى الجد .. ولا يقصد بها هزلا قط .. لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطبق
سواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه ملووقا فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقا خفيف الدم مرحا مهزارا .. وزاده

وفى ذات يوم فوجيء أبى بخلو صالون الأسطى ابراهيم من الأسطى محمود .. فأصابه الدهش وتساءل عنه .. فأنبأه صاحب الصالون بأنه طرده .. وأنه أحضر بدله صنايعيا ممتازا أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبى لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقا .. بل كان يعتبره عبقريا ممتازا .. وفيلسوبا كبيرا لم يجد الدهر بعثله .. وتعجب كيف لم يقدر الأسطى ابراهيم مواهبه وكيف طرده بمثل هذه السهولة .. دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن .. ودون أن يغلق الحانوت حدادا على ذهابه .. وكيف يدعى أنه أحضر بدلا منه انسانا ممتازا أكثر منه مهارة ؟ .

ولم يجب أبى على دعوة صاحب الصالون .. بل هز رأسه فى حسرة وأسى .. وغادر الصالون دون أن يحاول أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر عليه فى بيته بأحد أزقة اليبغالة .. ولم تمض بضعة أيام حتى كان الأسطى محمود قد افتتح صالونا خاصا به فى الناحية الأخرى من شارع السد لا يبعد كثيرا عن صالون الأسطى ابراهيم .. وكان أبى يتخذ منه مكانه المختار واضعا ساقا على ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبى الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون الأسطى ابراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفا :

- مالهش فى الطين (يقصد الطيب) نصيب . راجل ضلالى ونينه وحشه .

- أيوه مفهوم .. لكن إيه السبب اللى خلاه طردك ؟

- آل إيه بيقول انى هفقت مفتاح .

- بيقول إيه ؟

- هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى ان الأسطى محمود طرد لأن صاحب الصالون

وجد النقدية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه وفق مفتاحا فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على نهمة التهفيق التى اتهم بها الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .

ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى .. فهو لا يكاد يلقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

- هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !

وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها ، حتى ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

- يا سى سباعى .. الله لا يسينك كفاية فضايح .. مابلاش السيرة المهيبة دى ! دى ماكانتش كلمه .

ومع ذلك فقد استمر أبى يستعملها كتحية للأسطى محمود حتى وجد الأسطى محمود ردا لها .

كان ذلك عندما أقبل عليه أبى ذات عصر متهلل الاسارير ، ضاحك السن ، وصاح بالأسطى محمود :

- هفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. مالك مبسوط قوى كده ؟ خير انشا لله .

- خير قوى .. مافيش بعد كده خير .

- حصل إيه .. أخذت درجه ؟

وقلت له يوضب ثلاثة أرطال في ورقة زى العادة علشان أوديهم القرن .. قعد يلم من هنا ومن وهنا ، حنة من بيت الكلاوى وحنة من الفخده ، وايشى عضم ، وايشى شغت لغاية ما كمل الثلاثة الأرتال وابتدأ يوضبهم وخرط عليهم البصلة ورحط البهارات والتحابيش ولفهم فى الورق وقال لى اتفضل .. حاجه معتبره قوى .

- هي دى الورقة المعتبرة ؟ .

- لا .. مش هي .

- أمال منين الورقة المعتبرة ؟ .

- الورقة المعتبرة لقيته عمال يوضب فيها على جنب .. حنة قطعية نظيفة زى اللوز .. تلاقى حنة العضم ملبسه باللحم وفيها راق دهن زى القشطه .. وقعد يقسم فيها ويوضب ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت وسألت الواد الصبى :

- الورقة دى لمين ؟ .

فرد الواد بصوت واطى :

- دى له .. للمعلم سلامه نفسه .

- وقال الأسطى محمود معلقا على قوله : أظنك اتحسرت .

- قوى .. وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة بتاعتى ومش قادر

أتكلم .

- الله يكون فى عونك .

- المقصود لف الورقة وإداها للواد الصبى علشان يوديها القرن وأنا

أخذت الورقة بتاعتى علشان أوديها القرن .

- وبعدين ؟ .

- أحسن .

- أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الذى نشر له معظم كتبه ومنها رباعيات الخيام) .

- أحسن .

- شفت بنت حلوه ؟ .

- أحسن .

- فيه ايه أحسن من كده ، يا أخى قوللى بقى وريحنى !

- أكلت ورقة لحمه معتبره .

- ودى حاجه غريبة .. ! ما أنت كل يوم والتانى بتاكل ورقة لحمه .. هوا انت وراك حاجة غير ورق اللحمه وورق الكتب ؟ .

- لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازه غير

اللى كنت باكله خالص .. حاجه ما تخطرش على البال .

- يعنى ايه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بنكنوت ؟ .

- لحمه .. لحمه ياغبى .

- يعنى لحمه من السما ! .

- من الجزائر يا حمار .

- طيب كل مره ما انت بتجيبها من عند الجزائر .. والا بتجيبها من عند باتا ! .

- دى ورقه ملوكى .. ما وردتش .

- ايه بس حكايتها ؟ .

- أنا أقول لك حكايتها .. النهارده رحنت عند سلامه الرباط الجزائر

الأسطى عبده .. والمستر تويدي

ألقي المستر تويدي نظرة عابرة على
الطلاب .. وتوقفت عيناه برهة ..
أمام الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه
جديدا على عينيه ، وكان منظر
الأوسطى عبده برفقته الطويلة
ووجهه الأعجم وعينيه
المذعورتين ، منظرا غريبا .

لا أظن أن هناك حديثا يشغل الناس في هذه الأيام كحديث الغلاء ، وعندما
يتحدث الناس عن الغلاء فلن يخلو حديثهم من مقارنة بين أسعار اليوم وأسعار
الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش الآن وانخفاضها
العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذى ضم ثلثتنا بالأمس ليختلف عن غيره من مجالس
الناس ، فسرعان ما ساقنا الحديث نو الشجون الى تكرر الغلاء ، وبين عشية
وضحاها انقلب الحديث الى مباراة ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص الأمس ،
وانهالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسخط لاذعا حارا .

- ولا قبلين .. وصلنا الفرن سوا ... الواد سلم الورقة بتاعته للفرن ..
وأنا سلمت ورقتي .. جه الفرن يدخل الورقتين قلت له حاسب اوعى الورقتين
يتلخبطوا لحسن دول زى بعض .. والا أقول لك .. هات لما أعلمهم أضمن ،
وسخبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده منهم حنة ورقه وقلت له :
المقطوعة دى تبقى بتاعتي ، والثانيه بتاعة المعلم سلامه .. وبعدين سبت
الفرن ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمه استوت .. أخذت الورقة المقطوعة
وروحت البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتي .

- ايه الكلام ده ؟ انت مش بتقول أخذت الورقة المقطوعة بتاعتك !
- أيوه أخذت الورقة المقطوعة لكن ما كانتش بتاعتي لأنى لما جيت
أعلم الورقة قطعت ورقة المعلم سلامه .

ومنذ تلك اليوم .. وحتى بعد انتقاله بصالونه الى شارع خيرت
والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية .. فلا يكاد والدى يهتف به : « هفتك
مفتاح » .

حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحى الفرن » .
فإذا سأله أحد شرح له المسألة بحذافيرها .
وقال لأبى : « واجده بواحد والبادىء أظلم » .

★ ★ ★

قال أحننا وهو يهز رأسه أسفا :

- لقد أصبحت الحياة لا تطاق .. لم يعد هناك شيء محتملا ، لا مأكلا ولا ملابس .. من يصدق أنني منذ أسبوع أردت أن أفصل بدلة عند جيبى ، الترزى .. فطلب منى خمسة عشر جنيها ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجبا :

- خمسة عشر جنيها !! الله يرحم أيام زمان ، عندما كانت البدلة لا تكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشا قماش ، وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :

- اى والله .. مائة وخمسين قرشا ، كانت أقصى ما تتكلفه البدلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيوبنا فنبأى أن ندفعها الا بالتقسيط .

وضحك الأصدقاء ...

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيرا تمالك نفسه وأخذ يقص الواقعة فقال :

- كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاما ، وكنا وقتذاك طلبة فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت حجرة منفصلة كنا نأوى إليها للسمر والاستنكار .

وذات ليلة وقد انتظم عقد ثلثنا داخل الحجرة ، وبدأنا نستعد لمواصلة الاستنكار .. إذ طرق الباب طارق . وصاح أبو الفضل أمرا بصوته الجهورى « ادخل ، ظانا أن الطارق هو عم محمد ، البواب يحمل لنا القهوة أو الشاي .

وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من دعر وكثير من خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم فى الحجرة رويدا رويدا حتى مثل أمامنا .

وسألناه عما يريد فقال :

- أنا الأسطى عبده الترزى .

- تشرفنا يا أسطى عبده .

وانهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمى .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة .. بدأ الرجل فى شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتا للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راكدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطيع أن يحصل حتى على ايجار الدكان .. ولما كنا ، الأندية ، الوحيديين الموجوديين فى الحقة فقد لجأ الينا عسى أن نجبر بخاطره وأن ننفعه !

ولم يكد الأسطى عبده ينتهى من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفى يده المازورة يأخذ المقاسات المطلوبة لكل منا ويدونها فى نوتة صغيرة أخرجها من جيبه .. وفى غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعا .

ونظر أبو الفضل الى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف وهو يضع المازورة فى جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلا :

- بقى اسمع أما أفولك يا أسطى عبده ، ما تتعجب نفسك معانا .. احنا البدله بتأخذ لها على جتتنا خمس سنين خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، وبعدين لما تطلع رديف نبقى نفكر نفضل بدلة جديدة ، ولوقت أقدم بدلة على أى واحد منا ما تزيش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين ربنا يديك العمر وتيجى تزورنا ان شاء الله .

- كل خمس سنين بدله ؟ ازاي يابيه الكلام ده ! دا انتم أسياد الناس ..

أنا حا اعمل لكل واحد منكم بدلة تليق بالمقام .

- المقام محفوظ يا أسطى .. بس المسألة ان العين بصيرة واليد

قصيرة . احنا قادرين نجيب علبة سجائر لما حانفصل بدله ؟

- دى الحسبه كلها مائة وخمسين قرشا يا بيه ، مش ضرورى تدفعهم مرة واحدة . ادفع اللى تقدر عليه ... ادفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

- وقيل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم أولانا ظهره وانصرف هاربا .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية على أجسادنا . وأقول الحق انها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش وأتانا رحنا نختال بها فى المدرسة كأية تلة ارسنقراطية وأن الزملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ، فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . واستمر فى التحصيل شهرا بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهرا ويزوغ شهرا ، الا واحدا منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن البذلة مليما واحدا .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالا بالبذلة ، وأكثرنا هربا من الرجل ، وفرارا من الدفع .

كان لأبى الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل مصروفه ، فقد كان مدمنا على السجاير ، وكانت له غطسات فى « أمكنة ما » تستنفد منه ما تبقى من النقود بعد ثمن السجاير ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر فى جيبه ما يستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى يبأس أو يكل ، بل كان ملحاحا متابرا يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال .. لا تكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطا حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبا الفضل قد هرب من احدى النوافذ ، فإذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حائرا بين النافذة والباب حتى يصمم أخيرا أن ينقل ميدان المطاردة الى المدرسة ، فيفاجيء أبا الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم جيدا وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاخرنا أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى ينس منه ومن مطارنته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فإذا بالحصار قد فك ، وإذا بالعدو قد عاد الى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يختفى وراءها .

وكان هجومه على أبى الفضل مفاجئا ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وهدأ روعه ، ومد يده للأسطى عبده مرحبا .. وقال فى بشاشة :

- أهلا .. أهلا الأسطى عبده ، فينك من زمان ماحدث ببشوفك .. أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان عايز أديك قسط البذلة . أنا محضرولك فى البيت . ابقى قوت على فى أى وقت .

- بيت ايه يا بيت ! دا انت دوختنى تحت البيت وحيرتنى من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نواذر الزمن . أنا حافضل معاك لغاية مانرجع البيت سوا .

- مفيش لزوم تعطل نفسك يا أسطى عبده .. أنا ما احبش أعطلك .

- أبدا ، أبدا ، مفيش عطلة أبدا ، حابستنا لغاية ما نرجع سوا .

- نرجع سوا ؟

- أيوه .. نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة أملا أن يخدعه ويستطيع التزويج من باب آخر ، فقال له ببساطة :

- طيب يا أسطى عبده ، أمرك .. ما دام عايز تستنانى خليك مستنى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .

- بوابة مين ؟ ايدى فى ايدك .. أنا مش حاخليك تتورب عن عيني .
دانت لقاك مش بالساهل . أنا مافرطش فيك أبدا بعد ما التقيتك .
وكانا قد وصلنا الى باب المدرسة واجتزناه ولف معنا الأسطى عبده .
ورأى أبو الفضل أن من الخير أن يتجنب الفضيحة وألا يحاول حجز
الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل معنا ...

ووصلنا الى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا وجلسنا على
التخت ، ويجوار أبى الفضل جلس الأسطى عبده ، مصرا على أن لا يتركه
لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان مدرس
الرياضة وقتذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدى . وكان الرجل نظاميا
جادا . وكتاب حصته هى الوحيدة التى نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب
فى مكانه المخصص له وفى نمرة التى أعطاهها له المستر تويدى .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدى أن يكون فى
الفصل فى بدء الحصة بالضبط فيغلق الباب وراءه بعد دخوله .. ثم يفتحه فى
الساعة التاسعة وخمس دقائق ليُدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه الا
فى نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطى فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك
فلا يقبله فى حصته .

وفى التاسعة بالضبط كان المستر تويدى يجتاز باب الفصل ، وكان كل
منا قد جلس فى مكانه صامتا ساكنا لا ينبس ببنت شفة واضعا أمامه على الدرج
الكتب المطلوب استعمالها فى الحصة .

وكان الوحيد الذى لا يضع أمامه كتبا هو الأسطى عبده الترزى ، وقد
خشى أبو الفضل أن يكشف المستر تويدى أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها
أمام الأسطى عبده ..

وهكذا جلس الأسطى عبده على مقعده - كأحد الطلبة - جادا صامتا
وأمامه الكتب المطلوبة فى درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدى انجليزيا مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث
الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على احدى عينيه .
ولست أشك فى أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر المستر تويدى
جزع شديد ، فقد رأيناه يحملق فيه وقد اصفر وجهه وأحس بمدى حرج
مركزه .

وألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت عيناه برهة
أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديدا على عينيه ، وكان منظر الأسطى
عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجم وعينيه المذعورتين اللتين تترجرجان
فى وجهه .. منظرا غريبا .

ولكن المستر تويدى لم يقل شيئا ، فقد ظن الأسطى عبده طالبا جديدا
ولا سيما أن كتبه كانت موضوعة أمامه .

وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى عبده لو أن
المستر تويدى كان كبقية خلق الله من مدرسى المهندسخانة الذين يلقون
المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون الفصل بسلام ...

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى الا أن يبدأ درسه بالسؤال فى الدروس
السابقة مارا على الطلبة ملقيا على كل واحد منهم سؤالا بالنور .

وبدأ المستر تويدى أسئلته فى التفاضل والتكامل ، ووصل الدور الى
الأسطى عبده ..

وانطلق السؤال من المستر تويدى الأحمر المهاب نو المنوكل ليستقر
على الأسطى عبده الغلبان الكحيان الذى ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده الترزى ليجيب على سؤال عويص فى التفاضل
والتكامل .

وكانت اجابة السؤال على ما أنكر (د . س) على (د . ص) ، وكانت
بطون الطلبة تصطخب بالضحك . وبدأت المحاولات لأنقاذ الأسطى عبده
فأخذت الأصوات تهمس من حوله بالاجابة قائلين له :

في بيت تعام

قبل أن يبدأ السرد أقدم اعتذارى الى
بطل القصة - عمى ، وحمای -
« طه السباعى باشا » لآنى لم أستأذنه
فى النشر راجيا اياه ألا يصدر بياننا
يكذبنى فيه .. لسبب بسيط .. هو أن
الناس تعلم تماما أنه ليس هناك أكذب
فى هذا البلد .. من بيانات التكذيب .

لنبدأ القصة والعربة عائدة من الاسكندرية تنهب الطريق الصحراوى
نهيا ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد
السرعة الى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوى
فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن
آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى
احدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيرا الى بيت فى منشية الطيران .. متعبى الأعصاب منهكى
الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة الى باب البيت وأخذت أتحمس
تعب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس

- شد حيلك بأسطى عبده .. ما تخافش . المسألة بسيطة خالص ..
قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بسيطة قط ، ولم يستطع
ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على (د ص) .. ولكنه أمام نظرات
المستر تويدى النارية المصوبة اليه ألقى الاجابة حسب ما يمكنه أن يفهمها ،
فقال وهو يرتجف :

- دى س ودى ص .

واقنع المستر تويدى وأشار له بالجلوس ، وظلت الأسئلة تلف ثم تستقر
مرة أخرى على الأسطى عبده حتى نشف دمه وبقي كريشة فى مهب الرياح ،
وكانت تتعالى الأصوات هامسة حوله بالاجابة فيلتقطها كالغبيغاء ويطلقها متوكلا
على الله ثم يرتمى على المقعد غارقا فى عرفه ، حتى انتهت الحصة ، وانتهى
معها الأسطى عبده .

اى والله .. لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج المستر تويدى ،
وعندما أفاق بكى بكاء حارا ، وأقسم يمينا ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد
ذلك ، وألا يطالب أبو الفضل بقسط البذلة .

وأثر فينا بكاء الرجل . فاكنتبنا كل منا بخمسة قروش وجمعنا له ثمن
البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنا بالاكراه .

★ ★ ★

طريقنا فى حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

- أكياس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسى الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدي قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكياس فى محلها الواحد بعد الآخر .
كان نزع الأكياس هو أول شئ يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه - لا سمح الله - حريق يودى بالبيت .. وكان ثانى شئ هو اغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس الى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفىء اللمبات التى لا نحتاج الى ضوءها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقي عليه نظرة اعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها احدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيرا قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :
- انظر .. لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعي أنا الآخر على أقرب شئ الى وقلت موافقا :

- أجل ! لا أثر للتراب .

- شهران .. والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب .. ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم .. مجانين ، مصابون بجنون النظافة .. انهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، انها عندهم هواية ، أو طريقة لا غايتها والتكليف بنا .. والا فما معنى تنظيف الشئ التنظيف ؟ . أتعرف أنهم فى عز الشتاء يدخلون الخادم يوميا بجرذل المياه لمسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثا ، حتى انتهى بى الأمر الى أنه ليس هناك وسيلة الا بازالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت الى حملته عليهم - أو على الأصح عليهن - وأنا أو من مخلصا على كل فقرة فيها .

وكانت هم .. أو هن .. هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعنى زوجته وزوجتى ، أو بعبارة أخرى حماتى وابنته .

وكنا متفقين تماما فى مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماما أن أهل البيت من الحريم مصابون - بلا جدال - بداء النظافة .. يؤيدنا فى ذلك زوج الابنة الأخرى .. عدلى وابن عمى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد له فى حياته الا أمنية واحدة .. وهى أن يهبىء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقدارة ، والذى فكر فعلا فى أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها وزوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحا كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا - أنا والعم - أسبق منه الى تحقيق هذه الأمنية .. وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأثرية والقدارة .

كانت عودتنا من الاسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لننتحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فسادا .. وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساما وأثبت أنه لا يشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغبابار - غبار .

لقد فاز على فى سباق الفوضى ، فوزا ميبنا .. جعلنى أياس من الاستمرار معه فى ميدان السباق .. بل جعلنى أكره - فى مدى يومين - الفوضى التى كنت أتوق اليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت الى انسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعشا ما ريق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

وهكذا وجدا من الأتربة الأساس الملائم .. أو ، الباك جراوند ،
المناسب .

لقد كست الأتربة كل ما فى البيت .. أعطته لونا رماديا مغبرا لا يكاد
يستبين منه لونه الأصلي .. اللهم الا من خلال آثار الأقدام المرسومة على
الأرض ، والتي انتقلت أتربتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم
الأخرى التي انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو
الأرض ، فقد كان كل شىء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .
وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

احدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر
على البال .. واحدة فوق الفراش ، واثنان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ،
واثنان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنان متدحرجتان على
بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا الى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات
الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد .. أما
غطياتها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنباشين ، أما
الواحد الباقي فهو ما زال محشورا فى فتاحة الزجاجات .. لم يفكر أحد فى
نزعه من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الاحدى عشرة زجاجة - أو الأحد عشر كوكبا -
سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب
من بذور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوفة
نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ،
وبقيت هى دون أن تغسل .. سوداء ، مطحوسة ، لزجة .

تلك هى بقايا العنب .. تعاونها فى اعداد تابلوه الفوضى والقدارة ..
مخلفات المانجه .. ببذورها المبدورة فى أنحاء البيت كأنما قد انقلبت أرضه
حقلا لزراعة المانجه ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المانجه السائل فى
لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة .. ولم يحاول أحد منا
الخروج .. فكلانا مبكر فى نومه .. وزادنا التعب رغبة فى النوم وزيادة فى
التبكير ، فلم تدق التاسعة حتى كان كل منا آوى الى فراشه .

ومع ذلك .. وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول
حتى النوم أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من
الفوضى والهرجلة .. كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن واخراج الروائع والآيات .

لم تكن نلتقى الا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان
كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا تكاد نستقر فى
الدار - ونحن على حال من اليقظة - الا لماما .. ومع ذلك - ولا أدري متى
ولا كيف - تمكن العم من اخراج روائعه واشاعة الفوضى المثالية والتخريب
التمونجى فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب والتوسيح أجد لزاما على
واحقاقا للحق ، ووضعنا للأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال
التعمير والاعاشة .

كان أول ما فعلنا .. غير وضع أكياس الكهرباء وفتح محبس المياه ،
هو تشغيل الثلاجة وملاء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب
والمانجه وصندوق بيبسى كولا ، ووضعها فى الثلاجة على سبيل التموين ،
وخزن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتموين هو العامل الأكبر فى اشاعة الفوضى فى
البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة ، ولكن الذى
حدث - ويعون من الله وبمساعدة العم - هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوما
أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم .. واذا بالحجرات قد أضحت
أشبه بالخرائب

العجيبة تجد فرديتي الحذاء والشراب .. مستقرة في فراقها الخالد .. ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتساقطة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التي كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئا فريدا .. كان لابد من أن تكسر ملة السرير - دون أن يفكر أحد منا بالطبع في اصلاحها - فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح الا للدحرجة والدألجة .. يعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة .. تحتاج الى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الاخراج .

وقدم الموسيقى في هذا المنظر الفوضوى صنوبران للمياه .. صنوبر تلفت جلده فأخذت المياه تنكسب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنوبر الآخر ، لست أدري ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الثاى أو صفارة الانذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب - وكان هذا من ضمن أعمال التعمير - بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيرا انتهت أعمالنا التي حضرنا من أجلها الى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحرير حتى نتشفي منهن وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى طراوة الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة

الرابعة والنصف صباحا وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئا حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر .. ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه .. وأكباس الكهرياء .

وجهزت حقيبتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى باحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ .. وسرعان ما حلقت ذقتى وارديت ملابسى .. وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب - بنسيانى حاجة ما - أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو الى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ما سقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة .. ونزعت أكباس الكهرياء .. وأخذت أتحمس طريقي الى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبي .. وهممت بركوب العربة عندما صاح عمى :

- انتظر .. لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكباس وأصعد الى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى .. رغم أنه حذرني من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

- هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الاسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سببا فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر في الساعة وقال :

- الساعة الخامسة الاثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل -
بالراحة - الى البيت في الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولي :

- أظن ذلك اذا لم يحدث عطل .

- ان شاء الله لا يحدث عطل .

وكنا قد بلغنا - عندما قال قوله هذا - بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا
ما يقرب من محطتي ترام .. ولكنه لم يكذب قوله أو على الأصح تمنيه
ودعوته حتى صاح كأنما قد تذكر أمرا هاما :

- لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتعمل السائق بعض الشيء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن
الفكرة دارت في رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر
الشيكات .. وبين محاضراته عن ترتيبات السفر ، وعدم الرغبة في التعطيل ..
وأخيرا صاح بالسائق :

- سوق على طول .. لست في حاجة الى الدفتر .. ان معي من النقود
ما يكفي ، ولا أظن سأحتاج اليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربية في
طريقها الى شارع الهرم .. وحمدنا الله على أن ما نسي كانت أشياء بسيطة ..
ولم يكن هو - على حد قوله - في حاجة اليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلي .. ووصلنا الى ميدان الاسماعيلية ، وعبرنا
كوبري قصر النيل ، وقد اضطررنا في مقاعدنا مستريحين هاتئين ، نحسب
في أذهاننا الساعة التي سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة الى حد أنها
ستفاجيء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل الى الأمام .. ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

- موسى .. دور ، عد بنا الى البيت .

وتلفت اليه في دهش شديد ، متسانلا عما حدث .. فأطرق برأسه ، وقال
في يأس :

- لقد نسيت حقيبة ملابسي .

★ ★ ★

في أرواحنا

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع
الأطفال أنفخ في الزمارة وأنا أرتدى
الرينجوت وقد شمرت - جدتي -
أكمامه ، وثنت ساقى البنطلون
وأخذت أنتقل الهويينا بقدمي (يلقى)
في الحذاء وكأني ألبس مركبا !!

- أهلا .. وسهلا سعادة الباشا ...

- أهلا بك .. ازيك يا أستاذ ...

- الحمد لله .. الى الاسكندرية ان شاء الله ؟

- ان شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد ..
فالطائرة توفر كثيرا من الوقت .

- ولكن الأرض أضمن « أتل قدمي ظهر الأرض أني » .

- ياسيدي .. العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا نافها متقطعا .. حديث لقاء عابر في
قطار .. وكنا نجلس في عربة تكييف الهواء في القطار السريع المسافر الى
الاسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج ،

وانحدر بصري من وجهه الى جسده .. الى ساقيه .. وقد وضع احدهما فوق الأخرى .. فشمز بنظونه وانحسر عن جوربه الحريري النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبنت لي قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد سدتها في حذاء (باللي) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة ..

وظل الحديث يجرى بيننا منقطعاً .. سؤال من هنا .. وجواب من هناك . حتى خطر لي أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ في أطوار حياته .. طفولته .. وصباه وشبابه .. ان حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً نافعا لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء كأنها في ضيق .. ثم أبصر بيده تمتد الى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكي تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده الى مكانها من جيب صدريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقا على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رأى أرقب عملية نزع الحذاء ثم نتمم معتذرا :

- لا مؤاخذه .. أحب أن أريح قدمي قليلا .. ان الحذاء ضيق بعض الشيء .

- العفو يا سعادة الباشا .. خذ حريتك .

- اني دائما ألبس حذاء ضيقا .. فليس أبلغض الي من الحذاء المتسع .. انها عادة قديمة .. قديمة جدا .

ثم انطلقت منه فهمة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

- زمن ! ..

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عاداته القديمة في كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الاسهاب .. ولكني وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته .. صوت شخير قد علا بجواره .

ويملاً بالكبيرياء أشد الناس تواضعا ، وينفخ بالأرستقراطية أحطهم قدرا وأوضعهم شأنا .

واضطجعت في المقعد اللين الوثير ووضعت ساقا على ساق .. فقد كانت تلك هي أقل جلسة يمكن جلوسها في هذا الجو الفاخر ، ولا سيما أن الباشا محدثي كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقا على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لي أن من الخير - قبل أن أمعن في السرد - أن أزيل من ذهني القارئ ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطيء عن الباشا الذي نحن بصده ، فيظنه مما قلت عن باشويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعوى ولا المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء واللفظ وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبد العزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين في البلاد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات للأوتوبيس والدويارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتلألاً نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار الي قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكنت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته ، فلما لقيته زاد تقديري له .. لما رأيته من خفة دمه ودماثة خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس في مقعده ووضع بين شفتيه سيجارا طويلا .. وتدللت من صدريته سلسلة ذهبية .. وبدا وجهه منتفخا ، ووضع على عينيه منظارا رقيقا ذا اطار ذهبي أنيق ، وداخلى من منظره اعجاب كثير .. وقلت لنفسى : ان مثل هذا الرجل جدير بالاحترام .. فقد كسب مركزه وثرأه بجهد وذكائه .. وأن مخلوقا موهوبا مثله كان لابد أن يلقي ما لاقى من نجاح .

ونظرت الى صاحب الشخير فاذا به عجوز قد راح في سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر اليه ثم يستغرق في الضحك مرة أخرى ويعود الى لهجته الساخرة قائلاً :

- دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهي بعض علامات الضيق الناتجة من اغراقه في الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن .. فقد بدأ يفصح قائلاً :

- الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع .. لقد كان مصدر شفتائي في باكورة الحياة .. كان أكبر مصيبة رزئت بها ..

وعاد الرجل الى الضحك ، فلم أملك سوى أن أستغرق معه في الضحك .. حتى بدأ يتمالك نفسه قائلاً :

- كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاما ، وكنا نطقن وقتذاك بالدرج الأحمر في حارة الروم .. وقد ضمنا جميعا بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير - والد أُمي - تاجرا بالغورية .. يعيش من أولاده خالي الأكبر وخالي الأصغر وأُمي .. وكان أبى قد توفاه الله ... وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتي من الخال الأصغر - خالي طه - وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها انزانا أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالي طه - من يومه - نظريات رقيقة في فن الاقتصاد ويبدو لى أنه قد أبى الا أن يطبق نظرياته الرقيقة - التي كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك - في عملية شراء ملابس المتواضعة فقد خرج الى السوق يجول جولة بين الغورية والموسكى ليبنتاح لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبني حتى لا أعرقل حركته .. وخاصة أنه لم يجد هناك مبررا لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسى بالنظر . واستمر ينتقل من مكان الى مكان .. دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم .. حتى وقف فجأة أمامه بذلة معلقة في أحد الدكاكين .

عجيب .. ! هذا سعر لا يصدق .. أنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا .. لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر .. ليدخل انن ، ويتحقق بنفسه . ودخل الحانوت وسأل صاحبه .. فأجابيه أن السعر مضبوط لا لبس فيه ولا خطأ .

مدهش .. ! خمسة وسبعون قرشا لبذلة ردنجوت ! .

لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه ... وأنه لهذا أبى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشا . ! يا بلاش ! .

انها صفقة هائلة .. لا بد من شرائها .

انها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة .. ولكن لا شك أنه يمكن استعمالها .. ولا يغرب عن البال أنني صبى وفي دور النمو ، وأن حجمى يتزايد .. وقد أنمو فى العام القادم فجأة .. فتصبح البذلة محبوكة على .

ولكنها .. ردنجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال لبس الردنجوت ؟ .

لا .. لا .. يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها .. لمجرد أنها فى حد ذاتها صفقة رابحة .. بصرف النظر عن صاحب البذلة ... وصلاحيتهأ له .

أجل .. اتنى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائما للبذلة .. لأنها بذلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا ...

وهكذا تم شراء البذلة .. أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لا تقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قنمى دائمة النمو ، وأن حدائى الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لا يضيق على ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية اتباع لى الحذاء .

وعاد الى البيت يحمل الرنجات والحذاء الكبير .

لقينته جدتى مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر .. فأتبأها بلهجة الواثق ان هذا خير ما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى - ككل طفل - أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لارجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرندى الرنجات وقد شممت - جدتى - أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت أنقلل الهويئا بقدمى « يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركبا ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نموى .. فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا أهروول فى البيئلة والحذاء ، وأقسم ثلاثا أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قنماى .. لقد كان خالى بعيد النظر جدا .. أبعد مما استطعت أنا الوصول اليه .

وكانت البيئلة والحذاء أمرا محتملا فى العيد .. لاسيما أن جدتهما وفرحتى بهما لى تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يعددى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الاجازة وأذهب الى المدرسة .. حتى بدأت أتير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجنى الضجة .. فقد كنت - من يومى - مخلوقا مرحا « هليهللى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الرنجات مبعثا لخجلى أو

لضيقى .. بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم على ، أردھا تارة وأحتملها تارة أخرى ، أنا فى الحالتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن أحتمل الرنجات .. أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس .. أى بعد فسحة الغذاء وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى .. كناية عن أنه جاف مفقد مقلح كالبليح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام .. فقد كان دائما يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذا أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائما بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن على فقد كنت فعلا مخلوقا غبيا ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئا عن النحو والصرف والاعراب لسبب واحد .. هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظا فى حصة واحدة من حصص الشيخ على .. فقد كانت حصصه تعقب الغذاء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشراهة التى أتناول بها الطعام ... تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمرا مستحيلا .

وكان نومى - قبل أن أرندى الحذاء للعين - مسألة مضمونة مأمونة .. أما بعد ارتدائه .. فقد أضحى عملية مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول .. ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعدا خاصا فى الحصة الخامسة .. هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه أمنا مطمئنا .. يحجبني عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى .. الذى كان يستر جسدى الضئيل تماما .

ويبدأ الشيخ على الشرح .. بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لا تتغير .. والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حقة من الأقراص المنومة ، وأحاول عبثا أن أتتبع حديث الرجل عن البدل

والحال .. ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة في سبات عميق .

وكانت عادتى - وما زالت - عندما أنام وأنا جالس أن أتخذ وضعا مريحا .. بوضعى ساقا على ساق !

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزأنى الخال العزيز .. بالحذاء اياه .

لقد وضعت - كعادتى - ساقا على ساق ، ورحت فى سباتى .. أنعم بنومه هادئة عندما سمعت فى الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادىء .

وفزع الشيخ على وصاح ثائرا :

- ما هذا ؟

وأجابه الفصل كله فى نفس واحد :

- حذاء عبد العزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لى جفن فى درس عربى . لقد كنت لا أكاد أحس بالخمول وأستسلم للنعاس واضعا ساقا على ساق .. حتى ينزلق الحذاء من قدمى ويهوى الى الأرض فى ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على فى حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة .. بل كان يصيح حانقا :

- اخرج بره يا واد يا عمران يا بن الكلب .

ثم يهجم على ويعدو ورائى وأنا ممسك بالحذاء فى يدى ، وأنطلق هاربا من الفصل ، والتلاميذ يضحون بالضحك والأستاذ يضح بالشتائم ويصيح :

- أقسم انك لن تفلح يا غبى يا بليد .. هذا شاربى ان كنت تفلح ..

سأذكرك بقولى هذا فى المستقبل .. عندما تصيح كمساريا ، أو عرجيا . !
هذه أشكال لا تنفع فى المدارس .

★ ★ ★

ولم يكد عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه (البالى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى الى الأرض ، ورغم أن الضجة التى أحدثتها الحذاء عندما اصطدم بالأرض كانت ضجة خافتة الا أنها كانت كافية لأيقاظ الشيخ المغرق فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع .. وبحركة لا ارادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه الى عمران باشا قائلا فى أدب :

- اتفضل يا سعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

- العفو يا سيدى العفو .

وقبل أن يعود العجوز الى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا ، فيشير بيده الى ثم الى الشيخ قائلا :

- الأستاذ على الأبريمى ..

وتملكنتى دهشة شديدة .. أهذا اذا هو الشيخ الابريمى .. مدرس العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس .. فاستغرق فى نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمما حديثه متجاوزا عن علامات الدهشة التى بدت على وجهى :

- لقد مرت الأيام وانتقلت من مدرسة الى مدرسة ، والشيخ على ما زال مدرسا للغة العربية ، وأصبحت مهندسا وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وتوظفت فى الحكومة واستقنت من الحكومة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو ما زال مدرسا للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل على مرحبا مهلا مكبرا ، وصاح بى :

- ما شاء الله . ما شاء الله .. من يومك وأنت فالح .. هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أنتبأ لك بهذا الفلاح . أتذكر يوم قلت لك انى سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟ .

حلوة غابرة ومغامرات تتبادل سردها على سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائفة العابرة فما كنا نملك ازاءها الا الحملة والحسرة .

أخذنا في الحديث عن الأنصاف غير الشرعية وهو أحب الحديث الى أنفسنا وجعلنا نتبادل قصص المغامرات والنوادر .. وبين آونة وأخرى يطبق علينا الصمت فجأة .. وتتحرك أعيننا في اتجاه واحد وبزاوية نظرة واحدة محملقين في نصف حلو عابر .. حمله من لم ير نصفاً حلواً من قبل .. مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما في جوفه من نوادر الصبا .. الا واحداً كان أكثرنا تودة وأقلنا حديثاً .. فقد أخذ الى الصمت والاستماع حتى استحثه بعضنا بقوله ناهاً :

- توفيق .. قل شيئاً ، وكف عن هذا الصمت الثقيل . لا بد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :

- قل ولا تخف .. لن نبلغ زوجتك شيئاً .. أليس لك مغامرات ؟

وأجاب أحدنا بالنيابة عنه :

- لا بد أن له مغامرات كثيرة .

وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :

- مغامرة واحدة .. والله العظيم .

وصحنا كلنا في نفس واحد :

- قصها علينا .. لن نتحرك حتى نسمع إليها !

وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة الى ذهنه ويلم أطرافها من

أنحاء الماضي .. ثم ضحك ضحكين فصيرتين ، وأخذ يقص مغامراته قائلاً :

★ ★ ★

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاماً وأنا مازلت حديث عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظيف .. حديث عهد بالاستقلال الذاتي ، وبالاثني عشر جنيتها أتناولها في أول كل شهر وأشعر أنه ملكاً خاصاً لي .. وأتى حر التصرف فيها أصرفها كما أشاء .. وأبدها حيثما أشاء !

ومع ذلك فلم أكن أبدها ولا أصرفها .. بل كنت أقتصد جزءاً كبيراً .. لأنني كنت أعيش في ذلك الوقت مع والدي .. ولم يكن هناك أوجه للتصرف .. لاسيما وأنا كما تعلمون مخلوق طيب هادئ لم أستطع يعد - رغم توظيفي - أن أتحرر من الاحساس بأنني ما زلت تلميذاً .. وأن أوسع نطاق نزاهتي وفرشتي .. فكان أقصى ما أفعله من برم ، هو أن أذهب الى السينما ما تينيه وأتناول ٢ سندويتش من الأمريكين وقطعتي جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة في شارع فؤاد وعماد الدين متطلعا الى الغاديات والرائحات أو المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود الى البيت حامداً شاكرًا فلا تدق العاشرة حتى أكون راقداً في الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهييص والفرشة : سينما وسندويتش وجاتوه وتطلع الى النساء والفترينات .. حتى بدأت المغامرة الأولى .. وراء إحدى الفترينات .

كانت الفترينة المقدسة .. فترينة الهوى والذكريات .. هي فترينة ريفولى الكائنة على ناصية شارع عماد الدين وشارع عدلى .

والفترينة في حد ذاتها عامرة حافلة .. ملففة مغرية .. وهي تقع في معبر هام لا يكاد يمر يوم دون أن أعبره رائحاً أو غادياً .. متمهلاً أمام الفترينة مستعرضاً محتوياتها ونظاراتها متطلعا الى ما في داخلها وخارجها معتمداً الطرف بما فيها وما حولها .

وزاد تمهلي يوماً بعد يوم ، وأضحى مروري بالفترينة ووقفتي أمامها

واجبا مقدما لابد من تأديته . وأخذ البصر يتجاوز ما فى الفترينة الى ما وراءها .. وينفذ من الزجاج متخللا المعروضات عابرا الظهر الزجاجى مستقرا على وجه معين يتخذ مكانه فى أحد أقسام المحل .

وكان وجها حلوا صغيرا دقيقا متمتع العينين .. لذت لى مشاهدته كل يوم .. حتى أصبحت عادة ملحة عندى ، وبدأت أضع زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج الفرشاة والبرم وأضيف الى السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، وقفة بفترينة ريفولى لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة الى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتى لا تتجاوز التطلع من وراء الفترينة .. حتى وسوس لى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .. بأن أتجرأ قليلا وأقدم على عمل ايجابى وأقنعنى بأن دخله فى المحل ووقفة أمام الساحرة ومحاولة الشراء ستبلىنى الأرب وتبلغنى المعنى دون أن يكون فى عملى خروج على مألوف أو لفت لنظر .

واقننت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت المحل .. واتجهت رأسا الى بغيتى دون أن يكون لى أى فكرة عما أنوى شراءه .

ووقفت أمامها وجها لوجه .. أو بتعبير أدق عينا لوجه .. فما كان بى وقتذاك سوى عينين تحمقان فى وجهها الحلو .. ومضت برهة وأنا أفحصها وهى ترتب بعض البضائع فى منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت الى بصرها متسائلة :

- أفنتم ؟

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفى بالحملقة فيها بل أشتري شيئا ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وينظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيكير وعلطور وبودرة ومقصات أطفال وكريم للوجه .. الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولا أن أجد شيئا يصلح للشراء .. أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى .

ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لى .. فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتى قائلا فى نفسى أنى لم أهدما شيئا منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة ببصر حائر وذهن قلق مضطرب لاحساسى أنى واقع فى هذه اللحظة تحت بصرها .. وأنها ولا شك آخذة فى فحصى ولو على سبيل التسلية .

وفجأة تذكرت أن والدتى كانت قد طلبت منى ربع أقة حنه بغدادى من الحناوى بالعمورية .. وقلت لنفسى أنه لو كان لى الفاتنة هذا النوع من الحنة فإن المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقا من عند الله ، وأكون بذلك قد أرضيت نفسى ووالدتى وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلا :

- عندى حنه بغدادى ؟

ولم تستطيع الأنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثغرها وهزت رأسها وقالت فى لهجة فيها زجر خفيف :

- لا يا فنتم .. ألا تريد شيئا غير الحنة البغدادى ؟

وأصابنى الارتباك من هذا الزجر الذى كشفت به أمرى وقلت مدافعا :

- أريد أى شيء .. أهديه لمخلوق عزيز .

وتأملت المنضدة برهة .. ثم أخرجت لى عليه فى حجم الكف وفتحتها

قائلة :

- هذه علبه لطيفة .. بها طقم كامل للزينة .. هذه زجاجة الريمل ،

وهذه زجاجة المانيكير ، وهذه بودريير لطيفة جدا لم يعد عندنا سواها .. أنصحك بأخذها .

وكانت لهجتها فى الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر من شفيتها كما

يقطر عسل النحل .

انها تنصحنى بأن آخذ العلبة .. ولم أكن أفوى على رد النصيحة ، ولو كنت ملاقيا فيها حتى .. ولا كنت بمستطيع رفض العلبة ولو كان بها بدل الرميل والمانيكير سم زعاف !

وأخذت العلبة ودفعت فيها كل ما فى جيبى فلم يبق معنى غير أجرة الترام .. وعدت الى البيت قريبا هانئا كأتى قد فتحت عكا ، أو كأتى جيبت الديب من ديله ! .

ولا أظن هناك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى وثورتها على ، واتهامها اياى بالخذيل واصرارها على ارجاعها ، وانتهى الأمر بها الى بيعها الى احدى القريبات بنصف الثمن .

وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية لمحل ريفولى .. ولكنها غزوات خسائرها خفيفة محتملة .. فيوما أبتاع بنسات للشعر .. ويوما آخر أبتاع ملقاطا للحواجب .. وهكذا ظللت أمزمز على بضائع الحسنة وأخرج منها بما خف حمله وخف ثمنه !

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكدست لدى كمية من أدوات السيدات أستطيع أن أسرح بها فى عربات الترام ، وكان لا بد لى من أن أضع للأمر نهاية ، لا سيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث العابرة والنظرات الطيارى زادتنى شغفا وولعا .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يوسوس فى نفسى ويأمرنى بأن أأخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى بأن انتظرها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة بيتها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة فى مغامرتى .

وفعلتها .. ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه .. وخرجت البائعة الساحرة .. وسرت أتبعها فى حذر عن بعد .. حتى انتهى بى المطاف بعد طول سير وركوب أتوبيس الى باب بيتها بالسكاكيني ، ودخلت هى ، وعدت بلا .. حتى خفى حنين .

وهكذا بدأ التطور الثانى لبرنامج فرفشنى ، فزاد على محل ريفولى وتوصيل الحسنة فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى بيتها فى السكاكيني .

واستمررت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة تشعرنى أنها تعرفنى أو تحس بى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلا تاما ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع فجأة .. ثم تخفى ، فان اقتنصها الانسان ذاق سعادة العمر ، وان تركها نفلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك تذاكر سينما متروبول ، توشك أن تبتاع تنكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس - بلا جدال - هو الذى وسوس هذه المرة فى صدرى .. لأنى اندفعت قبل أن أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من البائعة اعطانى التنكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتنصت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ، ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت الفرصة .. فأنتم تعرفون أى انسان خجول أنا . وجلست بجوارها كتفا فى كتف وذراعا لصق ذراع ، وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز - من فرط الخفقان - من أضلعى .

وأطقت الأنوار ، ولم أحاول بالطبع أن أنظر الى الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزا فى كيف أبدأها الحديث .

وهدانى الخناس الى أن أمس ذراعها بذراعى وأتحسس يدها بيدي . وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغدا من مرقعها فى جانبي .

وبلعتها ، وكنمت الزغد فى جنبى !

وعاد الوسواس الخناس يلح فى وسوسته ويقول :

- أقدم .. أقدم !

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويفرى وأنا ألبى ، حتى انتهى الأمر الى بى الى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى جانبى ، بل من الجالس ورائى ، وفى ظهري ، وهو يهمس بى زاجرا وهو فى حالة غضب شديد :

- كفاية بوس بقى يا سيدنا ! احنا حانتفرج على السينما والا عليك !
وكان الرجل محقا ، فقد كنت لا مرأى وتذاك أستحق المشاهدة .

أى والله لقد انتهى بى الأمر بعد طول وسوسة من الوسواس وتلبية منى الى أن أصبحت شفتا الحسنة فى فمى وجسدها بين نراعى !

كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فرغدتنى فى جانبى ، وثانى مرة سحبت يدها .
وثالث مرة استسلمت وانكأت على بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بنراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .

وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت اليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل الى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب سدى .

وضحكت وأنبأتنى أنه لا داعى لأن آتى لها فى المحل .. واتفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقى ، وأنا انسان قليل الحيلة .. عديم التجربة ، ليست لى

أقل فكرة عن أين يذهب العشاق أمثالى بعشيقاتهم من مثيلاتها .

ولم يكن أمامى غير السينما أصطحبها اليها اللقاء بعد اللقاء حتى بدأت أضيق بالسينما وأهفو الى مكان هادىء يوفر لى خلوة تكون فيها أكثر تحررا واطمئنانا .

وعاد الوسواس يلح ويطلب منى أن أنقب وأبحث ، حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربية ، وقد قصده لأقترض منه عربته وقلت له صراحة ، انى أريد عربته ، لأنتره بها أنا وصاحبة لى .

وقال الصديق ببساطة :

- العربية تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك فى العربية ان لى شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها فى أى وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

- هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معددا محاسنها ، فأنبأتنى أنها واقعة ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية الميناء وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الانسان أن يدخل اليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد .

وأنبأتنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وزاديو .. الخ .

وأنبأتنى كذلك أن الكهرباء فيها بعدد من النوع الذى يشتغل بالنقود .. أى اننا لا نحصل على كهرباء الا بقدر النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا العداد .. وأخذ صاحبي يصف لي موضعه وكيفية وضع النقود فيه . وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة .. ولكن صاحبي طمأنني بأن به من النقود قدرًا كافيًا ، وأنه يزودني بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لي البيت جيدًا ، وأعطاني نمرة الشارع ونمرة البيت ، وتواعدنا على اللقاء في الساعة السادسة مساءً ، حتى يعطيني العربة والمفتاح .

وتركت صاحبي وأنا أحس بفرحه ممزوجة بالكثير من الخشية والوجل .. فقد كانت المرة الأولى التي أوشك أن أنغمس في مغامرة كهذه . ومن باب الحذر ذهبت في التو لأستكشف البيت بالنهار حتى يسهل على الذهاب إليه ليلاً .

ووصلت إلى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت مكانه نموذجيًا ، فقد كان - كما قال صاحبي - دور سفلى في أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب منعزل يفضي إلى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئنًا وأنا أمني النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومر كل شيء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت في الساعة السادسة بصاحبي وسلمني المفتاح والعربة ، وفي الساعة السابعة والنصف كانت الحسنة تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب الأرض في طريقها إلى مصر الجديدة .

ومر كل شيء على ما يرام فيما عدا بعض عصلجة ، من المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فإذا بها رائعة حقًا وجميلة .

وعلمت أن صاحبي أفرط في التواضع ، فقد وجدت الشقة مؤنثة برياش فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبتي في الشقة ، وجلسنا نستمتع برهة إلى الزاديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التي وجدناها في المطبخ ، ثم ذهبنا إلى غرفة النوم .

والواقع أنني كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئًا لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التي كنت لا أتمنى أكثر من النظر إليها ، قد أضحت بين يدي في هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر .. الذي يبعث في الجسد حرارة ، وفي النفس نشوة .

وخلعت الجاكته والقميص ، وجلست وإياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحمسها بتمهل وببطء وتمعن ، تمامًا كما يتحسس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها .. وأخذت أتحمس وجهها وعنقها بشفتي ، ورأيتها تسبل عينها في نصف اغماضة ، وتراخت أعضاؤها في استسلام كلي !

وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تقيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة .

ولم يكن انطفاء النور في ذاته بالشيء المفزع .. ولكن المفاجأة التي حدثت بها هي التي كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « أفتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة : « افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلمس طريقى في الظلمة متذكرا كل ما قاله صديقي عن النور وعن العداد الذي ينطفئ ان لم تضع فيه نقودًا ، وأدركت أن الصديق قد خدعني ، وأنه لا بد من وضع نقود في العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لِنفسي موضعه وكيف وصفه صاحبي .

في الطرفة ، على اليمين بجوار باب المطبخ .. هذه هي الطرفة ، وهذا هو باب المطبخ .. ولكن لا يوجد أى أثر للعداد !

وأخذت أتحمس الجدران قطعة قطعة ، حتى سمت يدي صندوقاً من الصفيح معلقاً على الحائط به ثقب أشبه بثقب الحصاة ، ومددت يدي في جيبي ، وأخرجت قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها في الفتحة .. ولكن النور لم يضيء ، وأمسكت بالصندوق وجذبتة فإذا به شيء منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لا بد من العثور على ثقب حتى أشعل به شيئاً ولو قطعة من الورق تعطيني ضوءاً ، ولم أجد بداً من الخروج الى الشارع لكي أقترض من أحد المارة عود ثقب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من مر بانع لبن زبادى أخبرني أنه لا يحمل ثقباً ، وكان الثاني رجلاً أنيقاً وسيماً نظر الى نظرة تعجب وأنا أقف بالفائلة والبنطلون وسألني لم أريد الثقب ؟

وأنيبته بأن النور انطفأ ، وأني أريد أن أبحث عن موضع العداد . ونظر الى الرجل نظرة شك وسألني عنى أكون ؟ فقلت له . فعاد يسألني عما إذا كنت صاحب الشقة أم ضيفاً ؟

وضايقتني أسئلته ، وقلت في ملل وضيق وخشية :

- إذا كان معك ثقب فأرجوك أن تعطيني اياه .

- الثقب معي ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ، ولن تستطيع تشغيله ، أتسمح لي بأن أدخل لتشغيله وأوفر عليك الجهد ..

وأخذت أدير الفكرة في رأسي ، وكنت في حالة من الضيق والخوف تجعلني متلهفاً على تشغيل العداد بأية وسيلة ، فلم أجد بداً من قبول اقتراحه ، لا سيما وأن مظهر الرجل كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ودخل الرجل ورائي ووجدته يعرف الطريق أسرع مني ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضيء .

وكنت في هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم .. وطلبت من الحساء الغضبي أن تنتظر حتى أعود اليها .

ووجدت الرجل قد جلس في الصلاة ، في حالة من الاطمئنان ، وأخذ يفضم إحدى التفاحات الموجودة في المطبخ كأنه يجلس في عقر داره .

وكنت أتوق الى خروجه والتخلص منه . ولكنى لم أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك في نفسه ، فتظاهرت بالصبر وبأن وجوده لا يزعجني كثيراً .

ووجدته يعود الى أسئلته الحرجة البائخة التي بدأها من قبل فقال لي :

- أظن حضرتك ضيفاً ؟

- أجل !

- لأول مرة تحضر الى هنا ؟

- أجل !

- هل تعرف صاحب البيت ؟

- أجل ، انه قريبي .

- من هو ؟

ووجدته قد تمادى في أسئلته ، ولكنى لم أجد بداً من اجابته حتى أتخلص منه :

- انه على بك فوزى .

وضحك الرجل وأمعن في الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل الى أنه مخبول ، وندمت على ادخاله وقلت لنفسى ان الظلمة خير منه كثيراً وأهون شراً .

ولم أجد طريقة لآخراجه خيرا من أن أزعم أنني أريد مغادرة الدار
فيضطر للخروج معي ثم أعود وحدي ثانية .

ونهضت متجها الى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكته كي أومه
أنى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقتة بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على
حافة الفراش وهى فى قلق رغم اضاءة النور ، ولم تكذ ترانى حتى هبت واقفة
وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكنى أسرعرت بوضع يدي على فاما كي أمنعها من الحديث خشية أن
يسمع الرجل صوتها وهممت فى أنها :

- لا تتحدثى ان فى الصالة رجلا غريبا ، وهو الذى ساعدنى على
اضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل .. أو لعله سكران ، فهو لا يريد
الانصراف ، وسأفهمه أنى خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود اليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت الى نظرتها الى مجنون ، ولكنى خطفت
القميص والجاكته وأغلقت الباب قبل أن أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكته على كتفى وقلت له :

- هيا بنا .

- الى أين ؟

- انى أنوى الخروج .

- ولكنى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج الى حزم وأن الرجل يريد أن يستغل
موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

- أرجوك ، ليس لدى وقت للمزاح .

- أنا لا أمزح ، أؤكد لك أنى أود البقاء لأنى متعب .

- تستطيع أن تستريح فى بيتك .

- وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنى أستريح فى بيتى .

- هذا بيتك ؟

- أجل ! هذا بيتى ، أما البيت الذى كان مفروضا أن تكون فيه فهو
البيت المجاور . لا تدهش فالبيتان متشابهان ، وأنا نفسى أقع أحيانا فى هذا
الخطأ .. والآن تستطيع أن تنتقل وحدك ، وأنى مسامحك فيما أكلت من تفاح .

وضحك الرجل .. ولكنى لم أضحك ، لقد كانت المشكلة عريضة ، كيف
أخرج وأترك الحساء ؟ وكيف أخرجها أمامه وأنا قد زعمت له أنى وحدى .

ولاحظ الرجل ترددى .. ولا حظ نظرتى الى باب حجرة النوم فأدرك
ما وراءه .

وكان الرجل حكيما لطيفا فنهض معتذرا وقال :

- انى جد آسف .. تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ سلامى الى فوزى
بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف دمي .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحساء فى حال من الخوف والضيق
والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفا ، ولا ضيقا ، وخرجنا نحن الاثنين قانعين
من الغنيمة بالاياب !

★ ★ ★

أسماء الأبطال

هذا هو الابن النقي النقي ، الطاهر
الذليل المغمض العينين .. الذي يخشى
أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد
القاهرة .. هذا هو الوبيعة التي
تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر
عليها .

هذه القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالها على
قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فإثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم
إلى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربي .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح على فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا
أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد
يكون الكمل ، وقد يكون الاستهتار .. أو قد يكون اليقين بأن أحدا منهم لن
يفضبه نشر القصة ، ولن يبادر إلى تكذيب والتشنيع على .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان إلى الأبطال الأربعة ..
لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد
الله فى عمره لسبقنى إلى نشرها .. كما سبق أن نشر معظم حوائثه مع

المرحوم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها .. فلاكتبها أنا عنه ، ولو صدق ما يقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن فهقهته العالية سترن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض . تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ .. أى قبل أن أولد أنا .. فى إحدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم .. أم الأفندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « انه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقي ، الذى قال عنه المارونى : « انه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهدا من عهود الأدب » .

والاثنان .. كما هو واضح ، لمن لا يعرفهما من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وانى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلىء ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقا على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى شبرد ، وجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على كرسى آخر بجبته المهفهفة وقطانه الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لا يقل بياضا ولا احمرارا عن وجه أبى ... وقد وضع هو الآخر ساقا على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من ميسم شيشة تكرر بجواره .

ولكى أعطى للقارئ فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدا بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لا يقيم وزنا لأوضاع الحياة .. يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج .. قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، أنه استقال من عمله ، وأوحى اليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهم احدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوها يضرب كفا بكف متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه .. ثم اتضح أخيرا أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى » .

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرسا فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب الى الاسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة . فاذا ما جاء ذلك اليوم .. رفض السفر .. ويظل جدى يتوسل اليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيرا ، ولكى يطمئن جدى على سفره ، ويأخذه من يده ويذهب به الى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار .. فيبدأ بالجدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود الى الدار مطمئنا .

ويصل القطار الى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار .. ثم يأخذ القطار العائد الى القاهرة لاعتنا الاسكندرية ومهنة التدريس . ذلك هو أبى .. أما الشيخ البرقوقي .. فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية .. وكان شديد الإعجاب به .. يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب العربى وأعلامه وعباقرته .

كان الاثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقي عندما هل عليهما الشيخ الفك وقد سحب فى يده ولده امام .

ولست أعلم كثيرا عن الشيخ الفك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب .. تقى السريرة شديد الورع .. قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره الى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

والى من يلجأ الشيخ الفك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين

الابتدائية الحالي .. جيل أطفال لا يزيد عن الحادية عشرة ..
ولكن امام لم يكن شيئا من هذا .. ان جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك
كانوا فى سن آباء هذا الجيل .. كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر
الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت - مثلا - تلميذ سمكرى
ألق بالمدسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لا
يعرف فك الخط .

كان تلميذ امام الفك .. رجلا ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت
والهدوء .. هدوء الساهى اللى تحته نواهى يسيل عينيهِ ويطلق برأسه ، بادی
الحياة ظاهر الخجل .. يجلس بجوار أبيه ساكنا منكمشا ، تقطر منه الطيبة
والبراءة وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا الا وطرقها ، ولم يدع غرزة
الا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين الذى يخشى
أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .

هذا هو الوديعه التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها ..
وأنا أعرف أبى جيدا ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ،
فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى لعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ،
وأذكر أنه أعطى أذى أحمد ربالا .. لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء
الجيران - وكان الولد أكبر منه - روسية فبطحه وأسأل منه .. وأذكر كذلك
أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن
نستذكر دروسنا ، لا خوفا علينا من الخروج ، بل خوفا من دخول أبينا علينا
وتعطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الاغلاق ، فقد كان يصعد الى أحد المقاعد
ويشغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ

الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقى ، وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات
وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطيب بابنه الى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقى
والسباعى حتى اهتدى اليهما أخيرا .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه
قائلا :

- بچى ما يخفاش عليك يا سيد سباعى أنى أنا خايف على الولد من
مصر .. أنا باسم أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعينه تتفتح
ويخسر .. جلت فى نفسى ما فيش غيركم يجدر ياخذ باله من الولد ، وأنا
حاسبيه لكم وعارف انتى ساييه فى بيته .. مش كده والا آيه ؟

ويجب الاثنان فى نفس واحد :

- آمال .. دا فى عينا يا عم الشيخ .. دا ابنا .. ربح بالك وطمن
نفسك .. ما تحملش همه أبدا .

- أنا برضه جلت كده .. هو احنا لنا حد غيركم .

- دا انت الخير والبركة .

- الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركا ولده فى كنف صاحبينا ، وقد اطمأنت
نفسه وهادأ قلبه .

بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد ، وهو امام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف أن صاحبا امام ابن الشيخ الفك قد
انتهى من الدراسة الابتدائية وأن آباء يخشى أن تتفتح عيناه على مفاسد
القاهرة ، أنه لا يعدو أن يكون طفلا غريبا .

قد يتصور كل انسان هذا ولا سيما عندما ينظر الى جيل أصحاب

البرقوقي - ابنه عاطف مثلا - عن طريقة أبيه في تربيتهم ، لما وجدناها خيرا من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفك وديعته البرينة الطاهرة في كنف المربين الفاضلين ، وعاد الى بلده هادنا مطمئنا .

وكان أول ما فعله هذا (الوديعه البرية) أن ذهب الى أحد نظار المدارس الأهلية وسأومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقبده في المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لا بحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شيء .. كل ما هو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ .. نظير خمسة جنيهاً .

وتم الاتفاق ، وأثبت امام نفسه كتلميذ في المدرسة . ثم انطلق على حل شعره .. يعيث - ببقية المصروفات - في القاهرة فسادا .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور .. وامام - كما يقولون - مقطع السمكة وديلها .. حتى طبقت شهرته آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت السر ، الا ولامام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه - من أهل البلد الذين يزورون القاهرة - بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ في بادىء الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحسد .

وأخيرا لعب الفار في عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيرا من الذهاب بنفسه الى القاهرة ليرى بنفسه جليلة الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهمة والاشاعات ، وأسبل الابن عينيه ، وأخذ يبدي أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهذا الأب بعض الشيء ، وخفت وسأوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين .. فأخذ ولده وذهب الى الشيخ البرقوقي والأستاذ السباعي ليتأكد من

حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليريدهما توصية به ، ورعاية له .
ووصل الشيخ وابنه الهادى الوديع في يده ، الى المكتبة حيث وجد المربين الفاضلين في محلها المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

- والله يا جماعة ماخبش عليكم .. أنا بلغنى عن الواد امام حاجات وحشه جوى .

- خير ان شاء الله ؟

- بلغنى أن سيرته مهيبة ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .
وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

- امام ! مين قال كده يا سى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم .. ده امام زى القطة المغمضه .

وزادت القطة المغمضه تغميضا وانكماشاً ، وقال أبى فى سره :

- والله مسيرك تروح فى شر أعمالك يا امام الكلب ، وتفضحنا معاك .
وعاد يقول للشيخ :

- امام ؟ امام سيرته مهيبه ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسه .. ده حاي موت نفسه من المذاكره ، واحنا حتى قلنا له يا امام حقك ترحم نفسك شويه .. مش كده يا امام ؟ .

وأطرق امام برأسه موافقا .. لقد قالوا له هذا حقا ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن امام

ويضربان المثل على طبيته وصلاحه .. حتى أقنعت الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

- والله أنا برضه جلت كده .. بس كلام الناس وسوسنى .. الله يلعن أبوهم .

- غايرين منك يا عم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

- معلش .. الله يسامحهم .. أهو برضه جينا شفناكم واطمأنينا عليكم ..

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماما ، ومد يده للسلام ..

وفى نفس اللحظة بدت عرية كارو .. قد اعتلتها حفنة من نساء وجه البركة وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء ، الفاتحة للعسكري ، .. وارتدت احداهن طربوشا وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربية تهز بطنها وردفيها وجلست البديرونة بجسدها السمين الترهل والمندبل الأحمر أبوويه وقد تهدلت ملاعتها من حافة العربية وأخذت تدق على طبله بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام ، إذ لم يكن فيه ما يثير العجب ، فطالما مرت أمام المكتبة أمثال تلك العريات ، ولكن المصائب وقع عندما لمحت احدى النسوة صاحبتنا امام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحبت متسائلة :

- بت يا تفيده .. مش هو دا امام ؟

- آه والنبي ياختى .. باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

- يوه .. دا امام .

- ينيلك يا امام .

وصاححت البديرونة :

- ودا ايه اللي جابته يا اختى فى وسط المشايخ .. ؟ يوه جاتك نيلاه .

وطلبت النسوة من العريجي أن يوقف العربية ، ونزلت احداهن الى الأرض صائحة :

- المنيل على عينه عليه لى ريال .. بقاله شهر .. فين يا واد الريال ؟

★ ★ ★

ويhez أبى رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لى :

- لم أشعر فى حياتى بخجل أشد مما شعرت به فى ذلك الوقت .. لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقى أن دشا باردا قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجها .

★ ★ ★

النزهي

الأقرع النزهي . انسان أقرع
ونزهي . أعنى أقرع الجيب ، خاوى
الوفاض .. بينه وبين النقود
خصومة مستحكمة وفراق دائم ..
وهو بعد كل هذا نزهي فنجرى .

حدث هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نمونجا للأقرع

النزهي .. !

ويبدولى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئا عن
حقيقة هذا الأقرع النزهي .

الأقرع النزهي .. انسان أقرع ونزهي .. أعنى أقرع الجيب ، خاوى
الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ،
نزهي فنجرى ، ابن حظ ، محب للفرقة ، والصرف ، والنهيص ، فهو
يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش
الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب
ويشتهى ، وعلى الله التدبير .

أقول انى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نمونجا
للأقرع النزهي ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى ، كنت فى زمن خلا ،

أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ،
بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهيا ، وأن ضيق الوقت وكثرة المشاغل ،
وأعباء الحياة ، قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ،
وسدت فى وجهها سبل الفرقة والتهييص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة القبط ، ولهيب الحر ، وأنا حائر ،
بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرد ، تلفح وجهى وتشوى بدنى ، وبين
أن أغلقها ، فأكتم أنفاسى ، وأسلق جسدى ، وأضحى كما يقولون ، عرقى
مرفى .

وعندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلولى أن أعزى
النفس ببعض ذكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم
عن متعة المصيف واغراء الشاطيء والمستلقيات على الشاطيء .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة
صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على
ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس - عدانا - ما بين
صبى أحرق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبية ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعرف بأن فى الحياة
أحزانا ، وكان شعارنا بسمة على الشفاه ، وقهقهة تصدر من القلوب قبل
الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد
البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء
وتشييع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علائم الحزن بشق الأنف ، إذ نذهب
لتعزية أحدنا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشا اقترضه
فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعيا الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من
الضحك نلقى الأمرين فى كتفها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان - مهما ثقل دمه - مورد تسلية
لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معا فى تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم طبعا ، ولم يكن
وضعنا فى التيم ناتجا عن اجادتنا لعبة بل كان منا مجرد عُفونه وتلحمة وخوف
من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما
يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائما المصيب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت
أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ،
وه الهارد لك .

ويخيل الى أنى أستطيع - بمنتهى السهولة - أن أملا عشرات
الصفحات .. عن حوادثنا وقتذاك عن النوادر المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا
أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن
أختم كتابتى بمجرد مقدمه بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على
القصة رأسا .

فى ذات صيف رأينا - بلا داع - أن نذهب للتصنيف فى الاسكندرية ،
وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا
عادة التصنيف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج
وقصر النيل ، وثانيا ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصنيف حتى يكون ذلك داعيا
لسفر أحدنا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثا ، لم يكن لأحد من أى أقارب يمكن أن
يستضيفونا فى الاسكندرية ، ورابعا لم تكن تملك حرية السفر دون أهلنا ،
وخامسا وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفيها للتصنيف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق نكره ، قررنا التصنيف ، فقد كانت
الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه لا مستحيل فى الحياة ، فكل شئ
ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصنيف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب
فى رحلة مع المدرسة لتعسكر فى خيام على شاطيء سيدى بشر ، واستطاع
كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف
منه معا ، وبدأنا بموازنة الميزانية !

ولم تكن موازنتها - نظريا - بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالايراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون - بهذا المبلغ التافه - الا جهادا وكفاحا لا من أجل التصييف والتنزه والفرشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء - فى المصيف - على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التي يمكن أن تعيننا فى الضراء وتشد أزرننا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا - بالإضافة الى ذلك - أن أسرق قذرة من الجبنة القديمة وصفحة عسل وبرطمان مخلل .. كنا نعددها يومذاك من أئمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أقرع ونزهى ، صمعت على ألا نذهب الى المصيف الا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة - فى عرفنا - لكل أرسقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، الى قميص حرير أبيض سبور وبنطلون فانلة ، الى كاسكيت ونظارة سوداء وبايب . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طقما كاملا . فقد ابتعنا واحدا من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرسقراطى الى ثلاثة أقسام نتبادلها يوما بعد يوم ، فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس ، والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبايب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب الى أهل الريف ، بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا الى الاسكندرية وقد تملكنا احساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب ..

ولست أريد الاطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التي صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور - بقدرة قادر - فى احدى الكبائن الخشبية فى بقعة ما ،

بشاطيء الاسكندرية ، والواقع أنى لا أدرى حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطى الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا ابتعنا نظرية « دع الحياة تسير » ، وأنا « ما دمننا أحياء فلا شىء مستحيل » ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة « مدام ماريكا » ، التي تنازلت لنا عن حق سكنها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يوميا ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نرحلها ونعود بها الى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرياء المشققة ، كنا نسير فيها فتترقع أرضيتها تحت أقدامنا فتتكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت الى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
وأخشى بها أن تقيم الصلاة فستجد حيطانها الراكعة
اذا ما قرأت اذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام ماريكا » بأفضل كثيرا من دار الشاعر ، ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحه بها ، احساس فاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم ننم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأظمعة فى دلاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقلاء منظمين ، وأخذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاما للخدمة - اذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى احضار خادم واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنويتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدي لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ وغسل أو أن وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا » والاعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هائلة ، وتعود كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ، وتعودنا كذلك تبادل مهمات الأرسقراطية - وهى ملابس الشاطيء - دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة لطيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفا اليها الحواشى والرتوش ، مضفيا عليها من بنات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفى ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام مارىكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، وفى تلقى تأنيها على الاسراف فى استعمال المياه ، وكان الرفيق الآخر - كما يدعى - على موعد غرام .

وكننت أشعر فى ذاك اليوم أنني على أتم حال من الوجاهة والأرسقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكننت قد استعرت من صاحبي الملازم للدار - أى الذى سيقوم بالخدمة - نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، اذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أنى قد أصبحت انسانا آخر أقرب الى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكننت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكننت الكاسكيت تستمر قابعة على رأسى ، والنظارة السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا ولسقوط الشمس وشروقها . ان الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرسقراطية ، فهل يعقل أن تغيب الأرسقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل لى أن أنظار الناس قد تسمرت فى .. وأخذت تحدجنى ، وأنى قد بت شغلهم الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل الا التهامس على والاعجاب بى .

وهزرت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معا ، طقم الكاسكيت وطقم القميص والبانطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التى قل أن يوجد بمثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و البصيصة . وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأنافة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثنم مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرسقراطية المزدوجة .

وبشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين .. وأى صيد !! صيد لم أكن أحلم به .. ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول اليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، زاعق الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين الا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدرى ، أكان حقا سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع الفاتنة فى شركى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من الله .. ؟

على أية حال ، لم يكن لى وقتذاك فرصة للتفكير فقد كننت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى - بدون جهد - أف بجاوارها متكننا على الكورنيش . وقد تلاصق كنفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء قدامى .

ولم يكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة

عن تصوري ما أنوى قصه على صاحبي ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب في ذهني التحابيش والتحاوير التي أنوى أضافتها الى مغامرتي الجديدة ، وكنت أمعن النظر في وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفه لهما جيدا .

واستمر الحديث بيننا هادئا ممتعا ، حتى أخبرتني في خلاله أنها ابنة « فلان باشا » ، وأحسست برأسي يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود الى البيت حتى أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما ، الأملة ، التي أصبت بها ولينأكدوا أن مغامرتي حقيقة واقعة ، لا ادعاء فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت في هوى .. العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء في الساعة صباحا والشاطيء خال ، وتركتها وانطلقت الى الكابينة لأقصد على صاحبي ما حدث لي وأنبئهما بالموعد الصباحي .

ولم يبد عليهما ، علام التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ، بلهجة الوائق ، انهما يستطيعان التأكد من صدق قولى بأن يذهبا للشاطيء في الساعة السابعة حيث ألتقى بالحبيبة الأرستقراطية .

وهز أحدهما رأسه مستنكرا وتساءل :

- الساعة السابعة ، باكر ؟ .

فقلت في ثقة :

- أجل .

- أنسييت أنك نوبتجي باكر .

نوبتجي ! ! .. أجل ، لقد نسييت النوبتجية .. ان على أن قوم بدور الخدمة في الغد .

ولكنى لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة في العالم يمكن أن تمنعني من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلاني ، فأبيا ، وتوسلت اليهما فأصرا على الالباء .

واستيقظت في الساعة الخامسة صباحا بعد أن صممت على أن أنهى كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم أنطلق في السابعة الى موعدى ، ماذا يريدان منى أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمرا عن ساعدى وبدأت أعد معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .

وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فاذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة ، حتى كنت مستقرا بكم الحلال أمام الحنفية على شاطى البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « قل مفتوح » .

وفركت يدي فرحا واغتباطا .. وهممت بالنهوض ، راضيا عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصرى ، فاذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها وصدرها وساقها ، الحبيبة الارستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ، وهى تتأملنى ، وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلونت يداى بالهباب وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتني بحركة لا ارادية ، أرفع يدي الى وجهي فألوثه بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :

- سيدى جايلك حالا .

صبيتي قرع

ودق المدفع وأقبل الضابط على خيمة
الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط
السفرة .. وجلست أنا والبارودي
تفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا
علامات التواضع وانكار الذات .

لا أظن أن هناك سؤالا أعينني اجابته كهذا السؤال ؟ .

ماذا يحذو صاحبنا « الضو » الى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر !! .. مائة وعشرون يوما .. ونحن لا ندوق لقمة
واحدة .. قد خلط من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه في طعامنا .. ليل نهار .. حتى
يتمتع بما تبقى منا مغمورا بالجاز ؟ .

لا أظن .. فلو أن الأمر كذلك لكان خيرا له أن يحتفظ بكمية الجاز التي
يخلط بها الطعام .. ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم في طعامه
بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبي حريص على صحتنا .. فهو يدس الجاز في الطعام حتى
يحصننا به ضد الأمراض .. ويجنبنا شر الأوبئة ؟

ثم أفتح النحاس على كتفي وأسير مغنيا بأعلى صوت :

« سلم على .. سلم على .. لما جابلتى وسلم على ، يا بوى يا بوى ، .

ووصلت الى الكابينة فوضعت النحاس فى المطبخ وجلست برهة
أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسى ، وأخذت أزيل من وجهى
الهباب وقد صممت أن أثار لنفسي من صاحبي فلا أذيقها طعاما .. وأن أرتدى
كذلك الطقم الأرسقراطى بالكامل فأحرمهما من التبغ بنصبيهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتديا المايوه الصوف والقميص
الحريز ، والبنطلون ، والكاسكيت ، والنظارة ، والبايب ، وفوق كل هذا ،
البرنس ، حتى لا أترك لهما قطعة واحدة من قطع الأرسقراطية .

وعدوت الى الشاطيء فوجدتها مستلقية على الرمال وحيبتها فى رقة ،
فنظرت الى فى دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

- انت لابس هدم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ؛ لقد أصرت على أنني ما زلت الخادم ، ولم تصدق
أبدا أنني فى هذه المرة .. كنت « سيدى » نفسه .

وأخيرا اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها انى
صعقت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلل .

وكانت رفيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

- لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، اذا ما لقينتى تسألنى مقهمة :

- ازاي سيدك ؟

★ ★ ★

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد في الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئا مستبعدا على صاحبنا ، فهو انسان غير مفهوم لا تستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج في نفسه خيره بشره وأضحى خليطا معقدا لا يستبينه المرء حتى بعد طول دراسة فأنت تظلمه إذا ما قلت عنه شريرا ، وتظلم نفسك إذا ما ظننت به صلاحا واطمأنتت اليه .

ولكن ماذا يجبرنا على التمسك بالضوء ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ما هو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضوء ، الا لأننا لم نجد ما هو خير منه .

كان الضوء على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا إذ ذاك بالوحدات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ باحدى كتائب الآى السيارات الخفيفة وقد احتلنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا إذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت الى هناك عقب اعلان ايطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل الى الواحات على العسكرى الضوء ، أو على الحاج الضوء كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول ان اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت اننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر الكتيبة سواء عندما سألناهم عن جيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضوء المتكور ، وأنبأنا فى ، تقل ، أنه كان يعمل طبيا لأباطة باشا ، وعائلة أباطة مليونة بالباشوات ، وليس من باشا منهم الا وعنده على

الأقل طبيا ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباطية الباشوات لنسألهم واحدا واحدا عما اذا كان أحدا منهم قد استخدم طبيا منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضوء .

لم يكن هذا بالطبع أمرا يسيرا ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقلنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مرمطون عند أباطة باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضوء يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرناب فى معمل .

وبعد بضع أكالات ، اتضح لنا أن الضوء هذا قد يكون حقا اشتغل عند أباطه باشا ، ولكنه قطعاً لم يكن طبيا ، ولا مرمطونا ، ولا سفرجيا ، قد يكون اشتغل « سايس » ، سائقا لسيارة ، سكرتيرا ، أى منصب ، عدا المناصب التى لها صلة بالطعام ، اللهم الا فى حالة واحدة ، وهى اضراب أباطة باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، ويطول المكث بين الحلال والكوانين ، حصل الضوء على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل ان بطوننا اخشوشنت واعتادت شطف العيش ، كما يعتاد الانسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول اننا اعتدنا سيئات هذا الضوء ، وبدأنا نستسيغ طعامه الا أمرا واحدا ، وهو اصراره على خلط الطعام بالجاز .

« ياسى ضوء حرام عليك كفاية جاز بقى » .

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه اليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أننا مصغية ، حاولنا أن نسوقه اليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضا .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطانية لوحده ، واحنا نرشه هنا على

الأكل ؟ » .

أبدا ، انه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلننا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس الى عقب تناول احدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدا عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

- اسمع .

- نعم .

- ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذلك الضيم ؟

ماذا تقصد ؟

- أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سعم أجسادنا بالجاز والرمل .

- ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

- لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ أنها أسهل مما تتصور ، ان الأمر لا يستلزم منا سوى شيء من الجراءة ، ما رأيك فى أن نظرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شيء يمنعنا من اجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى الى خيمة المطبخ ، ونادى على الضو ، فخرج اليه صاحبا بوجهه اللامع الممتلىء وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

- صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه الى حيث خيام العساكر وقال :

- على الأورطة .

ولم يكن الضو قد ظن شرا اذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

- حضرتك تريد شيئا من الأورطة ؟

- أريدك أن تذهب الى الأورطة ولا ترينا وجهك أبدا .

ولم يخف على الضو أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فهز رأسه وأجاب :

- حاضر يا فندم ، مفيش مانع أبدا .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعا ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هي قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء - غير عسكرى - سيتساءل فى دهشة : « قرعة واحدة لكل ضابط الأورطة ؟ » .

ولست أشك أيضا فى أن أى قارىء عسكرى ، ممن أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! » .

والواقع أنها كانت .. قرعة وافية .. لا نقل بحال من الأحوال عن الشمامة .. الضخمة .. ونظر الى البارودى ونظرت اليه (ولم يكن هناك

غيرنا من يعلم بالمؤامرة التي دبناها لطرد الضو) .. ثم نظر كلانا الى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا في نفس واحد : ماذا سنفعل بها ؟ .

وفكر البارودي برهة ثم قال ببساطة :

- نعملها صينية .

- صينية قرع ؟ .

- ولم لا ، ألم تأكل في حياتك صينية بطاطس ؟ .

- صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟ !

- وما الفرق بين البطاطس والقرع .. هل سترفض القرعة أن تعمل

صينية ؟

ونظرت الى القرعة السمينة ، ولم يبد لي أنها يمكن أن ترفض أى شيء

فقلت له :

- لا .. لا أظنها سترفض .

- انتهينا .

- ثم أمسك بالقرعة في يده وقال :

- عليك التقشير ، وعلى التخريط .

ووجدت أنه سيدأ في « استكرادى » من أول الأمر فان عملية التخريط

أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

- لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا على الباقي .

وفكر البارودي برهة ثم قال :

- اسمع سنحضر الضو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشماتة ،

وعندما انتهى من التقشير أشار له البارودي أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا في تخريط القرعة في احدى الصوانى ، ثم خرطنا الطماطم فوقها

ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللحم في جوف

الخليط ، وصبينا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبي كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال

متفاخرا :

- ألم أقل لك ؟ هذه هي كل الشغلانة ، ليس هناك أبسط منها ولا

أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذى

أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارئ وهممنا بوضع الصينية داخله ،

ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبي :

- الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضو .

- آه ، لقد نكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة

- كما يقولون - لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

- لا أظن أن الملح وحده يكفى ، بل لا بد من التوابل الأخرى ، حتى

تعطى الصينية طعما ونكهة ، لا بد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ،

ففى هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوفة فوق المنضدة وقال

صاحبي :

- أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصوانى ، ويتحتم علينا

أن نعرف بالضبط ما هي الأصناف التي تلائم القرع ، والا فسدت الصينية ،

ثم لا تنس أنها لا توضع الا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيرا من أن

نرسل الى الضو نسأله - دون أن يحضر - عن أنواع وكميات التوابل التي توضع فى صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضو الخبيث يقول :

- العلب عندهم ، يأخذون منها ما يشاءون ، هى كيمياء ؟

ونظر الى البارودى وتقدم الى العلب وعليه سيماء من نوى أمرا جللا وقال :

- دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسيرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير كله بركة .

وأخيرا دخلت الصينية الفرن تتهادى باسم الله حافظها ومنتضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها .. فوجدها بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية كما هى ، ونظر البارودى الى وقال مستشيرا :

- ما رأيك فى أن نحضر الضو ليجلس - فقط - أمام الصينية ؟

- فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياض فلا يتدخل قط فى شئون الصينية .

وأحضرننا الضو ، وذهبنا الى خيمتنا وجلسنا نتسلى بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ما تم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ونظرنا اليها فاذا بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبى رأسه فى دهشة متسائلا :

- لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر الى الضو فى غيظ وهمس الى :

- يخيل الى أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما تذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت الى الضو الشامت الساخر والى الصينية الخضراء التى تأبى النضج وقلت له متشككا :

- جائز .. لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا الى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا نطل على الصينية فاذا بها كما هى ، وأشار البارودى الى خيام العساكر وقال للضو :

- اذهب ولا ترينى وجهك ، والا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور بجوارنا يئز ، والصينية - سامحها الله - لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب ميعاد الافطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيرا سلمنا أمرنا لله وخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثا فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرح أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها ، » .

ونظر الينا على مقعد قائد الكتيبة بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى حمرة :

- والله عملتوها .

وذقنا الصينية واذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

في سبيل الكلب

هذه القصة يقصها علينا طفل في السادسة من عمره ، فيحملنا بها الى دنياه .. دنيا قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها زمنا رغدا .. زمنا لبيت الليالى التى أمضته ترجعه ...

كنا نجلس فى مخبئنا السرى - أنا وأخى الأكبر - وهو عشة من البوص على شاطئ النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد - وقد نشر أخى أمامه صورة كلبين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان قد قطع الصورة من احدى المجلات . ونظر الى أخى متسائلا :

- ما رأيك ؟

فأجبتة وأنا أحملق فى الكلبين بنظرات معجبة :

- رائعان !

- وسادت فترة صمت كان أخى ينصب خلالها بأذنيه كأنه يسمع شيئا

ثم قال :

- يخيل الى أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

وتبادلت أنا والبارودى النظرات .. نظرات الندم على أننا تركنا الضو ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقا ، قد انتهز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوما .. ولم نكتشف أنه مظلوم ، الا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطا به !! .

وعندما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء الضو !! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شيء على وجه الأرض سوى صينية القرع .

★ ★ ★

- لا بد لنا أن نخفي الصورة والا رأها أبي .. أين تظننا نخفيها ؟

ولم بتك لي فرصة الاجابة بل أردف قائلا :

- سأخفيها في حذائه .

ونظرت اليه في دهشة وقلت له معترضاً :

- ولكن

ولكنه لم يدع لي فرصة الحديث اذ كان يستطيع التحدث أسرع مني ، وكانت كل محاولة في مناقشته تذهب سدى ، لقد كان في التاسعة وكنت في السادسة ، واستمر يقول :

ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد .

وتخيلت حذاء أبي .. ثم تخيلت أبي نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيل ، وهزرت رأسي بشدة ولكنه قال :

- لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه الا في المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت اخفاءها في الحذاء .

ولكني هزرت رأسي مرة أخرى . لقد كنت أكره أن القي بيدي الي التهلكة ، وكنت أرى في المسألة جرمين : أحدهما ادخال صورة كلاب في الدار ، والثاني العبث بحذاء أبي .. فالعقاب مضمون .. لأن أبي لا يحرم منبياً ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلاً ضخماً يطأطئ رأسه عندما ينفذ من أي باب ، وكانت أمي تقول عنه أنه طيب القلب ، ولكني لم أك أصدقها لأنني ما رأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصاً لتأديبنا اذا أخطأنا .. أو اذا خيل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت الي الدار ، ذهبت الي أبي وقلت له :

- نريد كلباً .. أنا وأخي .

ورفع الي رأسه في دهشة وقال :

- ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً ، وأخيراً تكلم هو قائلاً :

- لا فائدة في الكلاب ... انها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت الي أخي الذي وثب من فراشه وسألني مثلها :

- ماذا قال لك ؟

لقد قال انها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لها انني لا أحب أبي ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ان الأطفال يجب أن يحيوا آباءهم .

وهل كان الآباء في رداءة أبي ؟ !

انه ليس رديئاً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال . هيا الي الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث الي أبي بصوت لم أميز منه الا بضعة كلمات ، انهم أطفال ، ولا بد لكي تفهمهم أن تفكر بعقلهم ، ، ولم أفهم معنى ما تقصد ، ولم أهتم بذلك كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخي ، وسمعتة يقول كأنه يحدث نفسه :

- الكلاب لا تؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلباً ! لأكله وشرب دمه ... ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً في التفكير ، وأخيراً سألت أخي :

- أنتظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخي قد أغفت عيناه ، فأجابني وهو نصف نائم :

يأكل ماذا ؟

- كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت في نفسي ربما كان أبله ، أو أصم لا يسمع ، ولكن أخي أخبرني أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأنى كنت مثله في يوم ما .. فلم أصدقه لأنى لا أنكر أنني كنت لا أستطيع الكلام يوما .

وطلب منى أخي أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب الى الدار فيسرق له قليلا من اللبن ، كما طلب منى أن أغنى له اذا بكى ، فقلت له :

- هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخي ، وجلست الى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن اسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لي أن أحمله بين ذراعي كما فعل أخي ، وحملته فعلا ، ولكنني سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعتة جانبا وجلست بجواره ، وأحضر أخي اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار حتى لا تقلق والدتنا .

وعدت الى الدار فوجدتها جالسة تترق بعض ثياب أبي فسألته قائلا :

- عندما كنت طفلا .. أكنت حقا لا أتكلم ؟

ونظرت الى في شيء من الدهشة وهزت رأسها بالايجاب فعدت أسأل :

- تماما كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

- فأجابت ضاحكة :

- أجل ... مثلها تماما .

ولكن الطفل خير من القطعة ، ومن الكلب أيضا .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخي ، فتناولنا العشاء وذهبنا الى الفراش ، وكان رأسي مشغولا بالطفل ، وبما أنوى أن أفعله معه ، وأى اسم سنطلقه عليه ، ولم يكذب يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخي :

- بماذا نسميه ؟

فدفعني أخي بيده قائلا :

- الكلب .

- لا ... لا أظنه حقيقة من أكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك .. في ذات يوم عاد أخي من المدرسة فخذف بكتبه الى المائدة ثم أشار الى أن اتبعه ، ودلفنا سويا الى حجرتنا فهمس في اذني :

- أين أبي ؟

- لقد خرج .

- الى أين ؟ ألا تعرف ؟

الى المقهى أو الجامع .

- اسمع .. لقد حصلت على شيء عجيب جدا . ماذا تظنه ؟ .

وهزرت رأسي متسائلا ، فاقترب بغتة من أذني ثم همس قائلا :

- لقد حصلت على طفل .

- طفل ! ؟ طفل حقيقي ؟

- أجل ... أجل ... لقد وضعته في العشة على الشاطيء وسنتمل الآن

الى هناك .

- ولكن كيف حصلت عليه ؟

- لقد عثرت عليه .

- وهل هو ملكنا الآن ؟

ملكى أنا ، ولكنى سأعيرك اياه في غيبتى عنه .

وعدونا الى العشة ، وهناك وجدنا الطفل يبكي فرفعه أخي بين ذراعيه ، ونظرت اليه وقد تملكني الاعجاب وقلت في دهشة :

- انه طفل حقيقي ! !

ثم وجهت الحديث الى الطفل أسأله :

- اخفض صوتك والا سمعونا .

فكررت السؤال في صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول ، فأجابني بقوله :

- لم افكر بعد ... هل تقترح شيئا ؟

- بوبى !

- لا تكن غبيا ... ان هذا اسم كلب .. انى أرى ان تسميه عادل !

- عادل اسم لا بأس به ، ولكنى أفضل اسم « بوبى » !!

- قلت لك ان هذا اسم كلب ... فلا تكن عنيدا ... ثم لا تنس أن الطفل طفلى ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .

وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان الى الفراش ، وأطفئ النور وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :

- سأذهب الى الطفل لألقه بأحدى القوط وأنومه .

- أتعرف كيف تنومه ؟

- أجل .. انى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل النوم ، عندما كنت

فى مثل سنه .

وكان أخى ينكر عنى كل شيء وأنا طفل . أما أنا فكانت لدهشتى لا أنكر عنه شيئا ! .. لقد كان لا شك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب الى المدرسة كعادته ... ولم يعلم شيئا عن بقاءه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعبا ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، الى أن اضطر الى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والاعياء .

وقضينا يوم لطيفا مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث أسنان ، وبدأ لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل .. فهى ولا شك أقدر منا على تولي أمره والعناية به ... فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه الأمور .. وهى على أية حال لا بد أن تتدرب من الآن على ذلك .. ولا شك أنها ستسر كثيرا بالطفل فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيرا ما يحدثنى عن سوسو .. وهى ابنة جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشتري طائرة ليطيرها سويا الى بلاد بعيدة وأنبأنى أنها لم تمنع فى الفكرة ، بل رحبت بها .. وقد سألته أن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيرا .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر الى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

- أهذا هو ابننا ... ؟ انه جميل جدا .. انه يشبهك كثيرا .. ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

- بوبى !!

فنظر الى أخى شزرا ثم قال بلهجة تشبه كثيرا لهجة أبى :

- يا لك من حمار !! قلت لك ان هذا اسم كلب .

ثم التفت اليها قائلا :

اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت الينا نحن الاثنين شزرا وقالت بنفس لهجة أخى :

- يا لكما من حمارين ... !! انه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتبينه فإذا به حقا بنت .

ونظر الى أخى قائلا بعد برهة :

أذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو الى الدار ، وفي الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم شيخ البلد وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شيء .. فلم آبه لهم وانطلقت في طريقي ، وعندما وصلت الى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

- أجل ... منذ يومين .. اليوم وأمس .. لم نر له وجهاً .

ونظر الى أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

- أين أخوك ؟

على الشاطيء .

قل له أن يحضر .

وانطلقت الى أخى أسوق اليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ،

ثم التفت الى سوسو قائلاً :

- ابقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبته الى مخزن الحبوب وبعد

برهة عاد إلينا وحده وسألته أمى :

- أين الولد ؟

- لقد حبسته فى الحاصل .. انه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين

اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة ...

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى الى الفراش ، وقد شغلنى التفكير

فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا الى فراشهما

حتى قمت الى النافذة وقفزت منها ، فسقطت على ركبتي وأحسست بالدماء

تسيل من أهداهما

وسرت أتلص طريقي فى الظلمة الحالكة ، والخوف يتملكنى وخيل

الى أنى أبصر أشباحا تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى ،

ووصلت الى الحاصل وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبجوح ، فأجابنى أخيراً ، وسألنى أن أذهب الى الشاطيء لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنى رأيت شينين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف ، وتسمرت قدامى فى الأرض وقلت لأخى أنى أبصر أمامى عفريتا وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك واقفا فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود الى الدار وأخبر أمى ..

ولكنى رأيت العفريت يقترب منى فصحت مستنجدا وأخذت أعدو أمامه وهو

يتبعنى حتى وصلت الى الشاطيء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على

ساقبها وأخذت تربت عليه وتغنى له ... ثم سألتنى عن أخى فقلت لها ان أبى

قد حبسه .. ولكنى لم أكد أتم قولى حتى أبصرت أخى قد أقبل علينا يلهث

فقد استطاع أن يقفز من نافذة الحاصل .

وفى نفس اللحظة سمعنا فى الخارج وقع اقدام كثيرة وأصواتا نتحدث ،

ثم أبصرت حشدا من الناس يقتحم العشة ، ... واستطعت أن أميز على ضوء

المصباح الذى حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ،

وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم الى العمدة ، وهناك

وجدتهم قد تكاثروا على أخى وخيل الى أنهم يتأمرون على ارساله الى السجن ،

وتسللت من بين الجمع وهممت بأن أعدو الى الدار لأخبر أبى ، ولكنى تذكرت

العفريت ... فعدت الى سوسو وهمست فى أذنها بأن تذهب فتخبر أبى .

ورأيت الشرطى قد أمسك أخى فهجمت عليه وضربتة بقبضة يدى ،

وصحت فى الجميع ان هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يحسوا بى واستمروا

فى نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحنت أبى بجسمه الطويل قد أقبل فى الظلمة ، وبجواره سوسو

تعدو الى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدأ لى

جليا أن الجميع كانوا يخشون أبى تماما كما نخشاه ... لقد كان رجلا مخيفا .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أتراجنا دون
أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

- أننا لم نأخذ طفلنا .. ان أخى هو الذى وجده ، وهو ابنه ، هو
وسوسو . ولكنه جذبني من يدي ودفعني أمامه ...

ولم نسر عدة خطوات ... حتى لمحت أمرا جللا ، واكتشفت شيئا
خطيرا .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء !!

وقرصت أخى ... وأشرت الى الحذاء .. فعلت وجهه علامات الذعر
وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل من المصائب ، وأنه قد أضحى فى حالة يأس .

ودخلنا الى الدار واقبلت أمى تحتضن أخى .. ولم ينبس أبى ببنت شفة ،
ولكنى لم أشك فى أنه قد أعد لأخى عقابا خطيرا .. فقد كانت الجرائم متعددة :
غياب عن المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيرا صورة الكلاب التى لاشك فى
أنه اكتشف وجودها فى الحذاء .

ودلفنا الى حجرتنا فى سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدىء
من روعه :

- لا تخش شيئا .

انى لا أخشى شيئا .. لأنه لن يستطيع أن ينالنى بسوء .. سأهرب من
الدار ولن أعود أبدا .. فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

- اذن سأسافر معك .

- حسنا سوف ندبر أمرنا معا .

- وسأطلب الى أمى أن تفر معنا أيضا .

- لا تكن أحمق ... اياك ان تذكر لها شيئا عن ذلك .

ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

اذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتا عجيبا لم أعتد سماعه من قبل .. سمعت
أبى يضحك !!

وأرهمنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا ... وسمعناه يقول
لأمى .

ألم ترى ابنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة .. انتكرين عندما كنت طفلة ..
وكنت تحملين الوسادة على كتفك وتدعين أنك قد أنجبت طفلة .. وتطلبين منى
أن أحضر لها اللبن ، لقد كان ابنك خيرا منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاهما
لسوسو .. لقد أنجبا طفلة جاهزة ، أنتكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

- ليت اللبالي التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة ... وأردف أبى يقول :

- لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة وخيل الى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ،
وسمعت أبى يقول :

- أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلبا ، على ألا يعبتا بالحذاء بعد
ذلك .

وقفزت الى أخى أحتضنه ... وأخذنا نرقص فى الحجرة

★ ★ ★

مُنْتَهَى الْفَنَاءِ

هنا أضع ألعاني .. هنا يهبط
الوحي .. وسط ذلك الصمت المخيم
والسكون السائد ، وبين أضواء
الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا في
هذه الأعوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق
الأبدية اللانهائية .

لى صديق سيرىالى ...

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرىاليزم .. وشاهدت بعض الرسوم
السيرىالية ، أيقنت من أن صاحبي هذا لابد مندفع الى أحضان السيرىالية ،
متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبي فنان أصيل .. فنان جوهرى ومظهرا ، أو هو صورة نموذجية
لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أفتنع تماما أنه ليس بى من سمات الفنان
شئ ، وانى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبید الله
الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم
والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدما لى علبة سجاتره قائلا :

ولكنى فعلا كذلك ، لاسجاير ولاقهوة ولاشاي ولاخمر ولاحشيش ،
ولاصلاة ولاصوم ولاشئ أبدا .. أبعد كل هذا أكون فنانا ؟

أما صاحبي .. فقد كان فنانا بمعنى الكلمة .. فهو فوق ارتكابه لسلسلة
الأشياء المبينة عليه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة .. كان مخلوقا معمنا
في الغرابة .. مفرطا في الشذوذ .

وكان صاحبي - ولم يزل بالطبع - موسيقارا من أساطين الموسيقى
ومن عمدتها في هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيرا قبل أن ألقاه ،
وكنت أميزه دائما بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين
الموسيقيين نسيجا وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعاني الى زيارته في «المعبد» .

وكان لقاؤه حارا مليئا بالحفاوة والترحيب ، اذ تفضل واعتبرني فنانا ،
رغم خلوي من كل مميزات الفنان ، وعندما سألتني زيارته في المعبد ، لم
يحاول أن يزورني بأى توضيح عن هذا المعبد ، كانما هو شئ كان لزاما على
أن أعرفه .. أو كأن كل انسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمني بالجهل ، وخشية أن
يعرف أنه ليس لي معبد ، لأنه لو كان لي معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركته تمر ، دون استفسار أو استيضاح .. معتقدا أنها دعوة عابرة ،
أو عزومة مراكبية ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسي ، ما دمت لن أذهب .

وانغمرنا في الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت
الانصراف ومددت يدي أودعه وأخبره بأني سعيد بلقاؤه متشرف بمعرفته ،
وانى أتمنى أن أراه كثيرا .

وضغط على يدي بشدة ، وقال في لهجة مصرية مؤكدة :

- أنا منتظر زيارتك للمعبد .

- ان شاء الله .

- سيجارة ؟ !

- أشكرك جدا ، أنا لا أدخن .

- عجيبة ! اذا أحضر لك قهوة ؟ !

- ولا أشرب قهوة .

- شاي اذا ؟

- ولا أدوق الشاي .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابئا :

- لو كان عندي كأسا من الوسكى لأتحفكك به ، لأنه يعز على أن

تزرورنى ولا أقدم لك شيئا .

- أنا لا أتوق الخمر .

- مدهش .. لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاي ، ولا خمرة ، ولا حتى

أى مكيف آخر ؟

- أبدا .. أبدا ، انى غير ذى «كيف» ، لاسجاير ، ولاخمر ولاميسر ،

ولا ، ولا .

- ما شاء الله ، ما شاء الله . هكذا الاستقامة والا فلا . لابد أنك تصلى

وتصوم .

- أبدا ، أبدا .

- لاتصلى ولا تصوم ؟

- ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربي ..

وأنا ما أتيت ذنبا .. انى مخلوق كافي خيرى شرى .. انى منهى عن الفحشاء
والمنكر . «خلقة» .

وأغرق الرجل في الضحك ، وظننها مزحة .

- اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدأ على وجهي التردد ..
وهممت بأن أعتذر .. ولكنه أذف مؤكدا :

- لن أقبل منك اعتذارا ، لا بد من حضورك ، انى أتوق الى أن أجلس
معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيرا . انى واثق من ذلك ، فأنت فنان
يلتزمك جو المعبد الشعري الهادئ .. أنا فى انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما
وأنة كان انسانا رقيقا مهذبا حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر .. وأنه
لم يكن - فيما عدا مسألة المعبد - يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ
الفنانين .. ولاسيما أيضا أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب
الايضاح :

- لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو كائن فى شارع
كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول الى المعبد .

ولم أحاول - رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد - أن أستزيده
ايضا فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد
الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين عاما ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد ..
ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد .. وظللت أدلف من شارع
الى شارع .. وكان الحى مظلم مقفر ، يقع فى طرف من أطراف القاهرة
المجاور للمقابر ، وأخيرا وصلت الى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن
النمرة ، ولم أدقق كثيرا فى البحث عن النمرة .. اذ كنت أعتقد أن المعبد
غرض شهير مميز .. وأنه لا بد مسترعى التفاتى وسط غيره من البيوت
العادية القائمة فى الشارع .

وقطعت الشارع ذهابا وايابا دون أن يلفت نظرى مبنى غير عادى وسط
البيوت القائمة فى الظلمة .. لا مآذن ، ولا قباب ، وأى هيكل ينم عن المعبد .
وهكذا لم أر بدا من التدقيق فى البحث عن الرقم المطلوب ... وسرت
أقرأ أرقام الدور واحدا واحدا حتى وقفت أخيرا أمام الرقم المقصود .

عجبا ! انه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لا بد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، اذ ليس على البيت أى سمة من سمات
المعابد ، ووقفت لحظة مترددا أمام البيت وكان بيتا عاديا مكونا من بدروم
ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى الى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :

- أسأل

وسمعت صوتا يصيح من البدروم :

- مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت
صوت صاحبي الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدى
ودخلت أتلمس طريقي فى ظلمات الحديقة الى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع صاحبي أن
يميزنى واندفع فى سيل من الترحيب الحار قائلا :

أهلا .. أهلا .. يا مرحبا .. تفضل نورت المعبد .

وتفضلت .. ولكنى قطع لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة
فى أرجائه التى لم تفلح فى اضاءتها ذبالة الشموع الخافتة .. جائمة كما
هى ... لم تتأثر قط بدخولى .

وتلفت حولى افحص المعبد ... فوجدت نفسى فى بدروم عادى
خراب ... مظلم رطب . لا يفترق عن أى بدروم آخر . الا فى أن صاحبتنا
الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمعن فى ابرازها فاصطنع من أعمال

الديكور والزخرف شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان ... واسقاط للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض .. وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو في أحد الأركان ، وعود معلق في ركن آخر .. ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد ... طواف معجب متفاخر ... ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي .. فقد أحسست أنني غير فنان .. أو فنان غير أصيل .. إذ لم يصادف المعبد هوى في نفسي ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن أوافق صاحبي على أعجابه وطربه .. فان خجلي يدفعني دائما الى أن أكون منافقا كبيرا .

قال صاحبي :

- هنا أضع الحاني .. هنا يهبط الوحي .. وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجة .. هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التي تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا في هذا المعبد المليء بالسحر والطلاسم .

وهزرت رأسي وقلت موافقا وأنا أزج في قولي ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

- أجل ! أجل ! ان سحره عجيب ... أنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضي الى وهاد الأبد .

وطال بنا الحديث في كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضي والأبد .. حتى حان وقت انصرافي فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لي ذات مرة في إحدى المحلات العامة فأصر على أن أزوره في تلك الليلة أنا وصاحبي .

ورحبت بالدعوة فقد كان - كما سبق لي القول - انسانا لطيفا ... وكانت جاسته محببة الى نفسي .. وكان صديقي هذا يتوق الى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت الى الدار .. ولم يطل بي البحث عنها هذه المرة وسرعان ما وقفت وصاحبي أمام الباب الحديدي أدق الجرس .

ولم يجنبي الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتما لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابني صوت الفنان من إحدى نوافذ السلامك وهتف بي مرحبا :

- أهلا وسهلا .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلامك ليقودني الى المعبد ، واتخذت طريقي الى بابه ، ولكنه ناداني بصوته الجهوري :

- اطلع هنا ... ان المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقي من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة الى باب البيت ، وقبل أن نصل الى الباب أضىء نور السلم وبدا على ضوءه مدخل البيت أنيقا نظيفا ليس به شيء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب الى الفناء الداخلي .. فوجدنا السلم الرخامي يتوسطه وقد بدا نظيفا لامعا .. وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحللة بالنقوش .. والمدخل كله ينم الروعة والقامة والنظافة ... الا من شيء واحد أثار دهشى وبدا نشازا في المدخل الفخم .. وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

في باطن السلم ، أو ما يسمونه « بئر السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأنربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو آثار عمارة .. وفي وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف مقلحف مليء بالفروع اليابسة والبزاعم المنكشمة .

ونظر الى صاحبي وهز رأسه أسفا وقال :

- أنظر الى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة .. بدل أن يتركه هكذا مشوها مدخل البيت .

وقلت موافقا :

- منتهى الاهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على اهمال البواب وقذارته وان كان أسفى يشويه شىء من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولقانا صاحبى الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحبا .. وأخذنا بالحضن ، ثم قاندا الى داخل الشقة ، وهممت بأن الفت نظره الى القاذورات التى كومها البواب فى بئر السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة للذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك .. ضعيف جدا ويعيد الاحتمال جدا ، الى درجة أننى لم أجرؤ على التصريح به .. ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل .. وأن يكون الفاعل هو صاحبى الفنان .

ولهذا السبب لم أجسر على ابداء أية ملحوظة عنها ... ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجيرة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبى الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها انها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟ !

ولذلك أثرت الصمت ، وفضلت أن اتجاوز عن كوم الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كانا يشغلان حيزا كبيرا من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقا الى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفصح نفسى ، وأخجل صاحبى .

وجلسنا فى صالة أتتت على انطراز العربى ، منخفضة الأرائك مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيفى بيديه صائحا :

- أم عبده .

- وأنت أم عبده ، ترفل فى ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز

القهوة .

ولم تكن تختفى أم عبده حتى قفز من مقعده قائلا :

- ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يعنى أصلى ، وسأحضر

لكم شيئا من زحله .. زبيب زحلاوى على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهى كلبة كبيرة فى حجم

أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

- سأحضر لكم شيئا من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

ويدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث ... وكوم الأتربة والشجرة الجافة

ما زالت تساور ذهنى .. وتدس بنفسها فى تفكيرى .. والسؤال عنها يتراقص

على شفتى .. ويهم بالانطلاق .

وفجأ وبلا سابق انذار .. رأيت صديقى الفنان يميل على ويسأل فى

لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بابهامه الى ناحية السلم :

- أرايتها ؟

- واستطعت من منظره و اشارته وطريقة سؤاله أن أنرك جلية الأمر

بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل

صاحبى الفنان نفسه وليس من اهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك

مسألة تستحق التقريظ .

وأجبت به حماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :

- رأيتها .

- وما رأيك ؟

بديعة .. آية فى الابداع .

وكان صاحبي الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير داريا ما هى هذه التى رأيتها آية فى الابداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الاعجاب :

- انها قطعة خالدة من السيرياليزم . انها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، رأيت الأرضية التى فى أسفلها . انها تمثل الفقر والخراب ، وترمز الى التراب الذى يختلط بالريميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . انه تابلوه رائع ، كل شىء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز الى شكل من أشكال الفناء ، لو تأملت فيها مليا لأبصرت العجب ، رأيت هذه الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلمة السابعة ، انها ترمز الى الجمامج الخاوية ، التى كانت كالزلط ، أما الحجره المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج الى دراسة طويلة . انها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظللت أبحث عنها مدة طويلة حتى وجدتها أخيرا ملقاة على قارعة الطريق بعد أن أصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء ، انى أحمد الله الذى من على بالستر قلم أشك له اهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيرا نهضنا للتصريف وهو يقول :

- انى أنوى ان أقدمها للعرض فى أول معرض للسير باليزم .. وانى أقدر لها ثمنا يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيتة يفغر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك الا أن انظر الى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء ، فاذا بى أرى المكان نظيفا أنيقا لا أثر فيه ولا للحطب الجاف ، واذا بمدخل الدار قد عاد اليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبي لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

- الشجرة ، أين الشجرة ، لقد سطوا عليها للصوص ، يا عم على ، يا عم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فاذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقدا مشتعلا وأخذ يلقي فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

- وهجم صاحبي على « عم على » يمسك برقبتة ويصيح :

- أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

شجرة ايه ؟

الفناء .. الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت لأخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

- يا أستاذ لا داعى لكل هذه الثورة ، ان عم على كان يقصد معاونتك .

معاونتى أنا . كيف ؟

- ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت الى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

الزواج الطاوى عشر

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة
لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن
فنيصتها بمثل هذه البساطة حتى كان
ذات يوم ، وضع لنا الأمر وعلمنا
أنها لم تترك زوجها العاشر الا بعد أن
حصلت على «الزوج الحادى
عشر» .

على شاطئ البحر ... فى صيف العام الماضى ... رأيت ابتسام .
ولا شك ان الاسم قد وقع لدى القارىء كوقعا حسنا ... وأنه يتوقع بعد
ذلك أن أصف له هيفاء من فائنات الصيف ... بمايوه من قطعتين ، برز منها
الصدر ، والتف الخصر ، واستقامت الساقان .
لا يا سيدى ... آسف كثيرا ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولا ربع
ذلك .

أقول انى رأيتها على الشاطيء لا تتهاوى ، ولا تمايل ... بل تسير
كالهجين ، تدفع بجسدها الضخم المتراهل الى الامام والى الخلف وتنب بقدميها
على الأرض دبا وقد أمسكت حقيبتها بيدها ، حقيبة جلدية من الحقائب التى
يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .
البضائع ؟

- أجل ، لقد كانت كذلك .

- فعلام الغضب اذا ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء . لقد أضحت
فناء الفناء .

ونظر صاحبى الى النيران والى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقا
وأجاب :

- معك حق ، هيا بنا برافو عم على ، أنت شيخ السيريالبيين .

★ ★ ★

أجل ، الحلقان والأساور والروانح والخواتم التي تبيحها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فكتسب منها رزقها .

لا تروع يا سيدى القارىء فلقد روعت من قبلك ، عندما سمعت اسمها ثم رأيتها ، بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة - واخشيتاه من أن تقرأ القصة - مجعدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة أمرة غير مستجدية .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط في حاجة إليها .. فلما انصرفت سألتهم لم اشتروا منها ما اشتروا ولم عاملوها بمثل ما عاملوها به .. فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لا تتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فإن بها لومة ! ومن تلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا انها ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت ما يقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه الى انجلترا !!

وزارتنا المرأة مرة ثانية ، أو أغارت علينا ، وانسجمت معنا بعض الشيء ، فجلست تقص علينا طرفا من مغامراتها وزيجاتها ... ثم انبأنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكتمت الضحك فى صدرى خشية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لا يعدو حديث خرافة .. حتى سمعت بعد ذلك طرفا من تاريخها ، من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شيء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة ينادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث الى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط هدونه وبأنه ليس هناك ما يمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى ، أحمد أفندى ، وهو رجل فى منتصف العمر ... مقبول الشكل ، ممتلىء الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة فى كل ما ذكرت من الأوصاف فهى لا يمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشيء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبنى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين .. واقعة لو لم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها الى آخرها ... لقال عنها فرية أكذوبة .

وبدأ صاحبنى يقص على الواقعة ... قال :

- كنا نعمل معا فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالها مختلف الوجوه التى تغد علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة .. غادة فى جسدها الممتلىء وصدرها البارز اغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وقتنة ، وتناولت بيصرى كما تناول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة ... الا واحدا لم يحرك ساكنا ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد أفندى » . ووقفت الغادة أمام « أحمد أفندى » تحييه بابتسامة تذيب الحديد !! ونظر هو اليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولا تسل عن الحسد الذى أحسنا به نحو أحمد أفندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد أفندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصيا ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة

وطال الحديث بينها وبينه ، حديث ناعم رقيق ، تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيرا انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الغائنة وما قصتها ، فتبين لى أنها التقت بأبيه فى بلدته وتوثقت بينهما عرى

الصدافة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل في البريد وأعطاه عنوانه فلم نكد تصل الى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق اننى رأيت الفتاة لقطعة ، واستخسرتها فيه ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ما دام ، يعطى الحلق لى بلا ودان ، وباليته بلا أذن فقط .. بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفي .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر .. لا تكاد تحل بالمكتب حتى يتصوع عبيرها فى أنوفنا وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طربيا وحبورا ، وأخذت معاملة أحمد أفندى لها تتطور مع الأيام ... فتبدل جموده رقة ، وخشوته ليئا ، وذهب عنه ذلك البرود والركود .. فهش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ أقباله عليها يزيد المرة بعد المرة .. بل لقد خيل الى أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول ان هذا هو ما خيل الى ... حتى ذات يوم حادث ملأنى دهشة .. حادث حاولت أن أجد له تفسيراً وتعليلاً ولكن عبثاً .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد أفندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالاً ، وقد بدا فى أتم هدوئه ورزاقته وعقله ، وقورا حكيماً ... لا يتوقع منه المرء هزلاً ولا مجونا ، ولا عبثاً ، ولا مزاحاً .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم .. عندما تراه قد هبط فجأة عن كرسية فاختنفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟ لقد نظر الى الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهه ذعر شديد وسمعته يهمس :

- قل لها اننى غير موجود .

أقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير .. فقد حدث ما حدث فى مثل لمح البصر .. ولك أكد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسنة تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتساماً من ابتساماتها العذبة وتسالننى فى صوت رقيق :

- أحمد أفندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

- لا يا فندم .. غير موجود ؟

وحينتنى بابتساماً أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت الى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر الى ويهز رأسه متسائلاً ، فأجبتة :

- لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسية وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفرع من رؤية الحسنة وسبب تهريه منها كأنه كان مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تدرع بالصمت وطلب الى أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجيء الى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرفات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع انذاراً بالخطر فيهبط الى مخبئه فى لمح البصر حتى اعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد فأجبتها بنفس الجواب الذى عودتها عليه ، غير موجود ، ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدياء وقالت فى صوت هادىء :

- أنا أعلم انه موجود .. قل له لا فائدة من التهرب ، سأعثر عليه ان عاجلاً أو آجلاً .

- هرب ؟ ولم يهرب ؟ وماذا تريدان ؟

- ماذا أريد منه ؟ ... انى زوجته !

ان اجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت اليها مشدوها وقلت
فى ذهول :

- زوجته .. أنت ؟ .. ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد ...

ونظرت الى المرأة نظرتها الى أبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم
أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى
ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه .. أرجوك قل له لا فائدة ... قل له
يكف عن الزوغان ويظهر بالتى هى أحسن ، والا

ودون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد أفندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالايجاب .

وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالايجاب أيضا .

أتبأنى باختصار أنه ذهب اليها فى العوامة ذات ليلة وأنها أسكرته
وعقدت زواجهما واستكثبته تنازلا عن كل ما يملك ...

وتملكنى العطف عليه والثناء له ... فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل
الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت
من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن إنجليزى .

وهنا صحت :

- قبطان سفينة وكابتن انجليزى ؟ ما اسمها ؟

- ابتسام ؟

- ابتسام ؟ لا يمكن ... ! انها تكون حقا قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعا

لم تكن حسناء ولا غادة ولا شيئا من هذا الذى تقوله .

- هل تعرفها ؟

- رأيتها فى الصيف الماضى شوهاى شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك

الجمال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتم حديثك .. فلا شك أن الزمن والأزواج
العشرة قد فعلوا بها ما فعلوا .

وأخذ صاحبى يتم حديثه قال :

- قلت لك أنى أحسست نحو صاحبى بعطف شديد وأخذت أفكر واياه

فى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقذه من ورطته وتطوعت أنا لمساومة المرأة
للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد أفندى بل جلس

ليواجهها ، وسألها عما تريد ثمنا للطلاق وللورقة التى معها فأتبأنتى باصرار
أنها لا تريد الطلاق ..

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد أفندى فى

نظرها « لقطه » ثمينه ، وأخيرا نفذ صبرى فصحت بها أن تذهب الى حيث
ألقت .

ورمقتنى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطاء

وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهى تسير الى الخارج وأنا موجس من نظرتها

خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة الى
مكتب المدير .

وأحسست بقلبى يهبط بين جوانحى .. فقد كنا لا نخشى أحدا فى ذلك

الوقت كما نخشى المدير ، اذ كان رجلا جادا ، قاسيا ، وكرهت أن يكون أول
من يعرف بالفضيحة ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد أفندى اجراء حاسما

رادعا .

محمد كريم، حمدة

وبدأت العجوز قصتها بصوتها
الناعم الرقيق ، فهدأ الجميع الذي
كان يطن كأنه خلية النحل . وبدا
الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم
الصغيرة .

كان يوم الخميس من أحب الأيام الى نفسه .. فقد كان هو اليوم الذي
يشعر فيه أنه حر طليق برتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى في قرارة نفسه لو
أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيدا الى مكتبه طول أيام
الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزي كأنه سجين حكم عليه
بالاستنكار المؤبد ! .

وكان يوم الخميس ممتعا حتى في حصصه ... فقد كانت الحصتان
الأوتان ، انشاء ، والثانيتان « رسم » ولم يكن هناك أحب الى نفسه من الانشاء
العربي والرسم . فقد كان بارعا في كليهما ، وكان مدرسا العربي والرسم
حبيبين الى نفسه ، اذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سمينا
أبيض اللون خفيف الدم .. فكان الصبي يجد في درسيهما متعة وسورا .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذنا بانتهاء الحصاة الرابعة ، حتى يسرع
الصبي الى بيته ، فيقذف بكتبه .. ثم ينطلق الى بيت جده .

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد أفندي فصعد معه ،
أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبني ..
ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد أفندي أنكر كل علاقة له بالمرأة ،
وسألني عما أعرفه ، ولم أستحسن أنا فكرة الانكار فرويت له الحقيقة ، وقلت
له انها زلة شباب واننا نأمل ان يتصرف في المسألة بعطفه الأبوي .
وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد ملأنا الخوف
والقلق .

وفي اليوم التالي حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة ،
ووقفت أمامنا برهة تحديق فينا بنظراتها ثم حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها الى أحمد أفندي بالورقة التي تنازل لها فيها عن أملاكه ،
وطلبت منه الطلاق .. بلا قيد ولا شرط .

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر ، وظننا المرأة تمزح ، ولكنها كانت جادة
في قولها .

أية معجزة تلك التي استطاع المدير صنعها ... كيف استطاع أن يؤثر
عليها ... بالضرب بالتهديد ... باللين ... بالسياسة .. من يدري ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن في حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل
عن قنيصتها أحمد أفندي بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضح لنا
الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد أفندي الا بعد أن
حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! .. لقد كان المدير
نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

والله وحده أعلم !

وكان بيت الجد هذا هو أحب أماكن النزهة الى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! ... الحرية المطلقة التى يحددها قيد ولا شرط .

كان الصبى يجد نفسه مطلق الصراح ... يلعب كما يشاء ... ويأكل ما يشاء ، ووقتما شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع الى أنه لم يكن من المستطاع توسيخها أكثر مما كانت) ... وكان يستطيع الشغلبة كما شاء دون أن يتهمه أحد بالشقاوة والعفرتة ... كان يشعر أن بيت جده ملئ بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمدة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » ... والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعا خصبا لمرحهم ولهوهم .

وأخيرا .. وهو أهم ما فى الأمر ... كان الصبى يجد فى البيت جدته العجوز التى كانت تخصصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص ... براعتها فى كل شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش ... لا تستطيع النهوض ... ولا تقدر أن تقف على ساقيها .

كانت الجدة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزا ككل العجائز ، فقد كان كل ما فيها محببا الى النفس مقربا الى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة .. طيبة القلب بلا حمق ولا بله .. سديدة الراى بلا مكر ولا دهاء ... معتدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى .. بجسدها الطويل النحيل المدد على الفراش ، وقد جدا وجهها هادئا ساكنا ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد اخفى بمنديل أبيض ، ويدها النحيلتان المعرورقتان قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئا ناعما .. وقد التف حولها الصبية يلحون عليها ان « تحكى حديثه » .. وتبدأ قصتها فاذا بالسكون يسودهم وكان على رؤوسهم الطير .. ويشربون ، بأعناقهم اليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ويستمرون هكذا فى سكوتهم ساعات طويلا وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنه حتى تنتهى القصة فيتمطون ويتأهبون ويذهبون للعشاء والنوم ورووسهم ملان بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة .. خضراء العينين ذهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الاطوار شاذة الخلق . اذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثير ، وكانت من فرط احساسها يخيل الى الناس انها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم انسانا كان أو حيوانا ، وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحدا يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضالتها وحقارتها . وكان أكثر ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة الى قلب الصبى ، انطلق كعادته الى بيت جده .. فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلال ونال منهم التعب .. فتسللوا الى الدار الفسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمه ، والتقوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم احدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ، تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم الى الجالوس حول فراش العجوز ،

وأشدهم انصاتا وأكثرهم لهفة وتشوقا .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهبدأ الجميع الذى كان يظن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

- فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان .. كان يحكم الدنيا ملكا من ملوك الانس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعا على السلطان ، ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تطفىء لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراخ والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وابعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة ... لا تعصف بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفرع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة الى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام ... فاستصوب رأى الحكيم ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل الى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم فى الوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصددهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدرائه واحتقاره ، وطردهم شر طرده ، وعاد الرسل اذبال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا الى ملكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى اهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ، ملك المشرق أنه قد أهين اهانة لا يغسلها الا الندماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه ... وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه اربا اربا ، وأن يعذبه عذابا لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير الى خصمه جيشا لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملا الحقد قلبه ، اذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواه ، وكان يتحرق شوقا للثأر لكرامته المهذورة ، والانتقام ممن احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لا تبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على ما لحقه من اهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم أيدي سبا ... وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدي الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب ... فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير ما سفك لأجلها من دماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح .. فقد كانت رائعة الحسن فانتة ساحرة .. حتى أحس الأمير ان الأسيرة على وشك أن تصبح أسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه نهاية امرأة !!

ولم يكن يحزن الأمير في كل ما حدث له الا خيانة الأميرة .. فقد كان حبها ما زال عالقا في فؤاده ، وكان يمزق قلبه ان ما أظهرته له من حب لم يكن الا لخدبته والابقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير ... فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلبا ... فقد انقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم الا عظاما نخرة وحطاما بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبخوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير .. وشعرت أنه لم يرتكب الا من أجلها ، وأنه كان كريما معها ، وبدأ حبه يتسلل الى قلبها يوما بعد يوم . حتى شعرت أخيرا أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتكررت الأميرة في زى خادمة وحملت معها اناء به خمر وتسلكت اليه تبغى زيارته في قبو ، وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطي الاناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه . ولكنها أسرت اليه بندمها واعترفت له بحبها .. فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيناً في القبو من أن يعيش بدونها طليقا في قصره ومملكته ، وشغلها الهوى برهة .. ثم أفاقا على صوت اقدام الحارس تقترب ... فانهمكت في ملء الكأس للأمير .. وأعطتها له فجرعها في لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريبا ، وتوهم حرارة في جوفه .. فظن بالشراب سما ، وبدأ الوهم يتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم في نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز وأمسك بعنقها في قبضة يده وصاح بها :

- لم تصرين على تعذيبى وقتلى ... أنا الذى أحبيتك حبا لم يحبه انسانا من قبل .. أنا لا أخشى الموت ، ولكنى يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب فى الذهاب الى الحياة الأخرى بدونك ! وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لا تخدعه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته اياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول ان يستميل الأميرة اليه ، ولكن قلبها كان مليئا بكرههته ، وحاول استرضاءها برفع من مصاف السبابا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد بانت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروما من حب الفتاة التى جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه ويعد العدة للتأثر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداداه ووجه جيشا هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يذنو منه فأخذ فى تحصين مدينته ... فلم يكذ يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت فى مقاومتها الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئا . وكانت الأميرة تتلف على نجاح أبيها فى هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب فى قلبها عندما رأت أباهما يفشل فى اقتحام المدينة ، وصممت على أن تفر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أبيها فى هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له وأحس أن بغضها قد أضحى حبا ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه ... واستدرجته الأميرة .. فوثق بها ولم يتوان عن أن يفضى اليها بكل ما عنده .

وفى جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت فى زى أحد الجنود وذهبت الى معسكر أبيها فباحث له بأسرار الأمير ، ولم يمضى يوما على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدها العدو حصدا .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه فى قبو مظلم رطيب يبقضى به بقية حياته .

وضحكت الجدة وربت على ظهر الفتاة ... ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

- يا حبيبتي انها قصة .. فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجومها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين ... واستمر الأسى يملاً قلبها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ، وسأل عنها فأنبأوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبى أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامسا أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبى عمه ، والد الصبية المريضة ، قد حضر الى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتا .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها الى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابها .
وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها الى حجره المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبى دهشا من كل ما حدث ... لا يكاد يدرى سببا لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر

طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لا حراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشائه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئا ، والأمير يحس أنه ما زال حيا ، وأخيرا بدأت الغيوم تنفث عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تدس له السم ، وانه قتلها ظلما وعدوانا .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

★ ★ ★

ونخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز .. فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم . وانقلب السكون ضجيجا وصخيا واندفعوا يتسابقون الى الطعام كأنهم لم يذوقوا للأكل مذ خلقوا طعما .

وساد السكون الحجره مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فاذا بالصبية النحيلة ما زالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجره مع الجمع الصاحب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات ... تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسما وجوها .. وسألتها الجدة فى رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطع البكاء :

- لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشنا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

بجدته قد تمددت في فراش الصبية ، وقد ضمتها الى صدرها بأحدى يديها .

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

- لقد أفاق الأمير فعلم أن السيف لم يقتلها بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجدته وأبلغ الطبيب فضمده له جرحه وأنقذ حياته ... وساء الأمير أن وجد نفسه حيا ، فقد كان لا يرغب في الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضا لم تمت ، إذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا انقاذها ... فملأ الفرح قلبه .. ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها .. وخشى أكثر من ذلك أن تكون قد عادت الى بغضه وكرهه بعد ما فعله بها ، وعصفت به الهواجس فعاد الى اغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب الى قلبه ... فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها .. وأبلغته الأميرة أن أباه قد عفا عنه وأطلق سراحه ، وأنه حر في أن يعود الى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، واخبرها انه لا يريد حرته ولا مملكته ، ولكنه يريد بها هي .. فأخبرته أنها هي أيضا ملك يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة ، وعاشوا في النبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

وظهر الهدوء على الصبية المريضه وكفت عن الهذيان واستمرت الجدة تدللها حتى راحت في سبات عميق .

وعندما عاد الصبي في الخميس التالي ، وجد الصبية في وسط الجمع . وهي تضحك في غبطة ومرح .. وكان أول ما قالت له :

- ألا تدري ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبي وقال :

- نعم أعرف .. لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبي ، وسألته من أخبرك ؟

وضحك الصبي مرة أخرى وأجاب :

- أخبرني الأمير نفسه .

ولا ينكر الصبي أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة الا وقد تزوج البطلان في النهاية .



مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story